منتخبات
من آيات القرآن الكريم

فضيلة الشيخ

أحمد فتحُ الله جامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين, والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين, وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدِّين. وبعد:

فإنَّ القرآن الكريم روحُنا وعزُّنا وشرفنا وإمامنا ومرشدنا, وإنَّ أعظمَ ما يعوِّل عليه الإنسان كتابُ الله عزَّ وجل, الذي أنار الله تعالى به قلوبَ عباده المتَّقين, وجعله شفاءً لما في الصدور, وهدىً ورحمةً للمؤمنين.

ومما منَّ الله تعالى به علينا أثناء تلاوة القرآن الكريم أنْ جمعنا بعضَ آياته المتعلِّقة بالمسائل الاعتقاديَّة, وبعضَ الآيات الآمرة بالاستقامة ومكارم الأخلاق, والآيات الناهية عن المخالفة والأخلاق الذميمة, بقدر الإمكان, فتَّشنا وكتبنا مع عجزنا ما جاء على قلوبنا من الآيات الكريمة, وجمعنا وكتبنا ليستفيد المسلمون منها. هذا مال القرآن, ليس لنا فيه اجتهاد, نرجو الله تعالى جلَّ وعلا أن نستفيد منها والمؤمنون جميعاً.

أخذنا مختصر المعنى للآيات الكريمة من التفسير الواضح الميسَّر, وأضفنا إليها بعض أقوال المفسِّرين, وإذا أردنا بيان شيءٍ أو نصيحةٍ للمؤمنين, قدمنا لذلك بـ (**أقول:**)؛ وما فسَّرنا برأينا حتى لا ندخل فيمن فسَّر القرآن برأيه, ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قال في كتاب الله عزَّ وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ) أخرجه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى. وفي رواية للإمام الترمذي رحمه الله تعالى بسند حسن: (... ومن قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ

مقعده من النار).

قال الله عزَّ وجل: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة: 16].

ومفاد الآية: هل تظنُّون يا معشر المؤمنين أن يترككم الله تعالى بدون ابتلاء وامتحان, يتبيَّن فيه الصادق من الكاذب؟

نسأل الله جلَّ وعلا أن يرحمنا بالقرآن العظيم, وأن يجعله لنا إماماً ونوراً وهدىً ورحمة, إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

وصلَّى الله تعالى على سيِّدنا محمَّد, وعلى آله وصحبه وسلَّم

والحمد لله ربِّ العالمين

أحمد فتح الله جامي

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**) الاستعاذة ليست آيةً من القرآن, وإنما هي أدبٌ أمر الله تعالى به قبل البدء بتلاوة القرآن الكريم بقوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: 98].

والمعنى: أستجيرُ وأعتصمُ بالله تعالى, من شرِّ الشيطان المرجوم, العاتي المتمرِّد, أن يضرَّني بهَمْزِهِ ولَمْزِهِ ووساوسِهِ, فإنَّ الشيطان لا يردُّه عن الإنسان إلا اللهُ ربُّ العزَّة والجلال سبحانه وتعالى.

(**1**) {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: 1].

{بِسْمِ اللّهِ} أي أبدأ باسم الله تعالى العظيم الجليل, مستعيناً به جلَّ جلاله في جميع أموري, طالباً منه العون, فإنه الربُّ المعبود, ذو الفضل والجود, {الرَّحْمَنِ} الذي وسعت رحمته كلَّ شيءٍ, {الرَّحِيمِ} الذي يرحم عباده المؤمنين {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُون * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيم} [الشعراء: 88،89].

(**2**) {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِين} [الفاتحة: 2].

علَّمَنا الباري جلَّ وعلا كيف ينبغي أن نَحمدَه ونُقدِّسه, ونُثنيَ عليه بما هو أهلٌ للمدح والثناء, فقال: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِين} أي قولوا يا عبادي, إذا أردتم شكري والثناء عليَّ: {الْحَمْدُ للّهِ} أي الثناءُ كلُّه لله تعالى وحده, دون ما يعبدون من دونه من أوثانٍ أو أصنام, فلا يستحقُّ الثناءَ والشكرَ والحمدَ إلا اللهُ تعالى ربُّ العالمين, الذي أفاض على الخلق فنون نعمائه

وفضله, فهو الخالق لجميع ما في الكون, المتصرِّف بالخلق والإيجاد, ربُّ الملائكة, والإنس, والجنِّ, والطير, والوحش, وسائر المخلوقات.

(**3**) {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: 3].

اسمان من أسمائه الحسنى {الرَّحْمنِ} أي المتصف بالرحمة, فهي صفة الذات, أي الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء, وعمَّ فضلُهُ جميعَ الأنام, بما أنعم على عباده من نعمة الخلق, والرزق, والهداية إلى طريق السعادة. {الرَّحِيمِ} الذي يرحم عباده المؤمنين يوم الدين {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43], فالرحمن يدلُّ على أنه سبحانه متَّصف بالرحمة بذاته المقدَّسة, والرحيم صفة متعلِّقة بالعباد.

(**4**) {مَالِكِ يَوْمِ الدِّين} [الفاتحة: 4].

أي هو سبحانه المالك ليوم الحساب والجزاء, المتصرِّفُ يوم الدِّين تصرُّف المالك في مُلكه {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار} [غافر: 16].

(**5**) {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين} [الفاتحة: 5].

أي نخصُّك وحدك يا ربَّنا بالعبادة, لا نعبد أحداً سواك, ونخصُّك وحدك بطلب العون, فلا نستعين بأحد غيرِك, لك وحدك نَذِلُّ ونخضع, ونستكين ونخشع, وبك وحدك ربَّنا نستعين, فأعنَّا على أمور الدُّنيا والدِّين.

(**6**) {اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيم} [الفاتحة: 6].

أي دُلَّنا وأرشدنا يا ربِّ إلى طريق الخير والسعادة, وطريق الإسلام, الموصلِ إلى دار السلام, الذي بعثتَ به أنبياءك ورسلك المكرَّمين عليهم

الصلاة والسلام, واجعلنا ممَّن سلك طريق المقرَّبين.

(7) {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين} [الفاتحة: 7].

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} أي طريق عبادك المهتدين, الذين أنعمتَ عليهم, من النبيِّينَ, والصدِّيقين, والشهداء, والصالحين, وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين} أي غير طريق اليهود الذين غضبت عليهم, فمسختهم إلى قِرَدة وخنازير؛ وغيرَ طريق النصارى الذين ضلُّوا صراطك المستقيم, فعبدوا المسيح ابن مريم عليه السلام من دون الله تعالى.

والآية ولو كان المرادُ بها اليهودَ والنصارى, كما صحَّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اليهود مغضوب عليهم, والنصارى ضُلَّال) أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى, لكنَّ حكمها عامٌّ يشمل كلَّ ضالٍّ, وكافر, ومشرك, من أهل الكتاب, ومن المشركين عَبَدة الأوثان, لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(**آمين**) أي استجب دعاءنا يا رب, وليست من القرآن باتفاق, ولهذا لم تكتب في المصحف, ولكنْ يسنُّ ختم السورة الكريمة بها, لما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا قال الإمام: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين} فقولوا: آمين, فمن وافق قولُه

قولَ الملائكة, غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

اللهمَّ اقطع أسرارنا عن شواهد الأغيار, ولوِّح في قلوبنا طوالع الأنوار. ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم, وهو حسبنا ونعم الوكيل, وصلَّى الله تعالى على سيِّدنا محمَّد, وعلى آله وصحبه وسلَّم, والحمد لله ربِّ العالمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(8) {الم} [البقرة: 1].

الحروف المقطَّعة للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم, فهذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية, وقد تحدَّى الخالق تبارك وتعالى به البشر.

(9) {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2].

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} هذا القرآن لا شكَّ في أنَّه تنزيلُ الحكيم العليم {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} مرشدٌ وهادٍ لأهل الإيمان, الذين يخافون عذاب الله جلَّ وعلا, وكذا من يحبُّون الله جلَّ وعلا على درجاتهم, فيمتثلون أوامرَه, ويجتنبون نواهيَه.

(10) {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: 3].

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} أي يصدِّقون بما غاب عن أبصارهم من الجنَّة والنار, والملائكة والجنِّ, والصراط والميزان, وكذا الإحياء بعد الموت والحشر... {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} يؤدُّونها على أكمل الوجوه بالخشوع والخضوع. {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} يؤدُّون زكاة أموالهم, وينفقون في وجوه البرِّ والإحسان على الفقراء والمساكين.

(11) {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: 4].

{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} من القرآن العظيم المنزل على سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين {وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} من الصحف والكتب السماويَّة, كالزبور والتوراة والإنجيل {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون} يصدِّقون بالحساب والجزاء تصديقاً جازماً لا يخالطه شكٌّ أو ارتياب.

(12) {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} [البقرة: 5].

{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} على بصيرة ونور من ربِّ العزَّة والجلال {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} الفائزون بكلِّ محبوب ومطلوب من نعيم الجنَّة وثوابها, ورؤية ربِّهم جلَّ وعلا في جنان الخلد, وهو النعيم الأكبر لأهل الجنَّة؛ كلُّ ذلك بفضله جلَّ وعلا.

ذكر الله تعالى خمسَ آيات في صفات المؤمنين الأبرار؛ فالمؤمنون هم الذين صدَّقوا باعتقادهم, ثم الذين صدَقوا في اجتهادهم.

(13) {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون} [البقرة: 15].

أي الله جلَّ وعلا يجازيهم على استهزائهم ويسخر منهم كما سخروا من أوليائه المؤمنين, بالإمهال في الدنيا, ثم العقاب في الآخرة؛ ويزيدهم في شقائهم وضلالهم يتخبَّطون حيارى, لا يدرون ما يفعلون؛ والعَمَهُ يكون في القلب كالعمى في البصر, يقال: رجلٌ عَمِهٌ, أي أعمى القلب والبصيرة.

ـ قال في المقتطف: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} أي الله تعالى يجازيهم على استهزائهم, بإمهالهم ثم بالنَّكال بهم.

والاستهزاء في اللغة: السُّخرية والاستخفاف, وأصله من الخِفَّة, لأنَّ مَنْ

كـان خفيـف العقـل سَـخر واسـتهزأ مـن غـيره, سمَّـى تعـالى جـزاءهم باسـم الاستهزاء على سبيل المقابلة[1].

أقول: ظاهر هذا الكلام: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} لا يليق بذاته جلَّ وعلا؛ سمى جزاء الاستهزاء باسمه, كما سمى جزاء السيئة سيئة؛ إما لمقابلة اللفظ باللفظ, أو لكونه مماثلاً له في القدر, ومثل هذا يسمى مشاكلة؛ أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء[2].

(14) {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون} [البقرة: 25].

{وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} أي وبشِّر يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين المتقين, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, بأنَّ لهم في الآخرة حدائق وبساتين في جنان الخلد, تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهارُ الجنَّة بالماء السلسبيل.

{كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً} أي كلَّما جاءتهم الملائكة عليهم السلام بالفواكه والثمار بصحاف من ذهب {قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} أي هذا مثلُ الطعام الذي قدَّمتموه لنا قبل هذه المرة.

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير, العلامة مصطفى الخيري المنصوري: 42/1.

(2) انظر: تفسير القاضي البيضاوي مع حاشية شيخ زاده: 146/1.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يُرزَقون الثمرة, ثم يرزقون بعدها مثلَ صورتها في الشكل, والطعمُ مختلفٌ, فهم يتعجَّبون لذلك, فتقول الملائكة عليهم السلام: كُلْ يا عبد الله, فاللون واحد والطعم مختلف.

{وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} أي ويُؤتَوْن بالثمار متشابهة في الشكل والمنظر, مختلفة في الطعم واللذة.

{وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} أي لهم في الجنَّة زوجات من الحور العين, مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسيَّة والمعنويَّة, فلا بول في الجنَّة ولا غائط, ولا حيض ولا نفاس, ولا حسد ولا تباغض.

أقول: نساء الدنيا إذا دخلْنَ الجنَّة, فهنَّ أفضل من الحور العين.

{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون} أي لا يُخرجون منها أبداً, بل هم في نعيم دائم, وسرور مقيم, لأن الموت يُذبح يوم القيامة, وينادي المنادي: يا أهل الجنَّة خلودٌ فلا موت, ويا أهل النار خلودٌ فلا موت؛ كما ورد في الحديث الصحيح.

(**15**) {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون} [البقرة: 44].

خطاب لليهود بأسلوب التوبيخ والتعجيب من حالهم: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ} أي أتدْعون الناس يا معشر اليهود إلى فعل الخير والعمل الصالح, وتتركون أنفسكم فلا تزكُّونها, ولا تأمرونها بفعل الخير, والحال أنكم تقرؤون التوراة, وفيها الوعيد لمن أمر

بـالمعروف ولم يفعلـه؟! {أَفَـلاَ تَعْقِلُـون}؟ أي أفـلا تـدركون أنَّ ذلـك قبـيح فترجعون عنه, أم أنكم لا عقول لكم؟

. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: ينبغي أن تقع البداية بإصلاح القلب وسياسة النفس, ومن لم يُصلح نفسه وطمع في إصلاح غيره كان مغروراً, كما قال الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ}.

وفي الحديث: أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: (عظ نفسك, فإن اتَّعظت فعظ الناس, وإلا فاستحي مني) رواه الديلمي عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه.

ومثال من عجز عن إصلاح نفسه وطمع في إصلاح غيره, مثال الأعمى إذا أراد أن يهدي العميان, وذلك لا يستتبُّ له قط, وإنما يقدر على إصلاح النفس بمعرفة النفس. {وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} إنكارٌ من حيث إنهم نسوا أنفسهم, لا من حيث أمروا غيرهم, ولكن ذَكَرَ أمر الغير استدلالاً به على علمهم, وتأكيداً للحجة عليهم[1].

(**16**) {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: 45].

أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر على المكاره والشدائد, والمحافظة على الصلاة التي تعصمكم من الشيطان, وإن الصلاة لشاقَّةٌ وثقيلة إلا على المؤمنين الصادقين المعظِّمين لحرمات الله تعالى.

---

(1) تفسير الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ص76.77.

(**17**) {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُون} [البقرة: 46].

أي الذي يعتقدون اعتقاداً جازماً أنَّهم سيلقون ربَّهم يوم القيامة, وأنَّ مصيرهم إلى الله تعالى وحده فيجازيهم على أعمالهم, والظنُّ هنا بمعنى اليقين, لا بمعنى الشكِّ, كقوله سبحانه: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} [الكهف: 53], أي أيقنوا بدخولها.

(**18**) {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون} [البقرة: 117].

أقول: أمره جلَّ جلاله ليس متعلِّقاً باللفظ, إنما هو بإرادته جلَّ وعلا, والفاء للتعقيب, وذِكرُ اللفظ لضيق العبارة ولإيصال المعنى لعقولنا, وإذا أراد الله تعالى شيئاً فإنَّ وجود ذلك الشيء متعلِّق بخلقه وإيجاده وتكوينه سبحانه, وإرادته متعلِّقة بذاته جلَّ وعلا, وهي صفة أزليَّة, وهذا الكلام عبارة عن سرعة حصول المخلوق بإيجاده وكمال قدرته جلَّ وعلا على ذلك, فإذا توجَّهت إرادتُه جلَّ وعلا لشيء يكون؛ وهذه الألفاظ المباركة تأتي في القرآن في سبعة مواضع, وهي:

1. {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون} [البقرة: 117].

أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق, ليس بحاجة إلى ولد, وإذا أراد أمراً حصل فوراً من غير امتناع {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون} [يس: 82], فكيف يكون له ولد وهو الغنيُّ عن كلِّ شيء؟!

2. {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون} [آل عمران: 47].

أي قالت على وجه التعجُّب, واستعظامِ قدرة الله تعالى: كيف يولد لي ولد وأنا لست متزوِّجة, ولم يقربْني أحد من الرجال؟ قال لها الملَكُ جبريلُ عليه السلام: هكذا أمرُ الله تعالى عظيمٌ, يخلق ما يشاء, بسبب أو بغير سبب, وإذا أراد شيئاً حصل من غير تردُّد, بقوله له: كن فيكون.

3. {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير} [الأنعام: 73].

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} أي وهو سبحانه الخالقُ المالكُ لكلِّ ما في السموات والأرض, خلق الكون بالحقِّ والحكمة, لا باطلاً وعبثاً, وقضاؤه سبحانه كائن, حين يقول للشيء: كنْ, فيكون, لا يحتاج إلى مهلة أو زمن, ولا تلكُّؤٍ ولا تأخير {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير} أي هذا الإله الكبير الجليل لا ينازعه أحدٌ في مُلكه, فقوله الصدقُ الواقع لا محالة, وله الملك التامُّ الكامل يوم القيامة, يوم ينفخ إسرافيل في الصور نفخة الإحياء, لا ملك فيه لأحدٍ غيرِهِ, هو العالم بما غاب عن الأبصار, وبما هو مشاهد أمام الأنظار, لا يخفى عليه شيء من الخلق, وهو الحكيمُ في أفعاله, الخبير بشؤون عباده.

والغرضُ من الآية: إثباتُ الملك والخلق والتدبير لله تعالى وحده, دون شيء من تلك الآلهة المزعومة من الأصنام والأوثان.

4. {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون} [النحل: 40].

أي لا يحتاج الأمر إلى كثيرِ جُهد وعَناء لإعادة الناس أحياء, بل هو سهلٌ هيِّن, فإنا نقول للشيء: كنْ فيكون. لقد رأى الكفار البعثَ أمراً عسيراً, بل اعتقدوه شيئاً مستحيلاً, وغفلوا عن معجزة (الحياة الأولى) كيف أوجد الله جلَّ وعلا الإنسان من نطفة مهينة, من شيء حقير لا يُذكر, غفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية التي توجِد الشيء بلمح البصر, كنْ, فيكون.

5. {مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون} [مريم: 35].

أي وما ينبغي لله وما يجوز له أن يتَّخذ ولداً, تنزَّه الله جلَّ وعلا عن الولد والشريك, لأنَّ اتخاذ الولد من شأن الضعيف العاجز, الذي يحتاج إلى نصير ومعين, أمَّا الغنيُّ القادرُ, الذي يقول للشيء: كنْ, فيكون, فلا يحتاج إلى زوجة ولا إلى ولد.

6. {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون} [يس: 83.82].

إنها القدرة الباهرة التي تقول للشيء: كنْ, فيكون, أي احدُثْ, فيَحدُث دون إمهالٍ ولا تأخير؛ وتنزَّه هذا الإله الخالق الجليل عن صفات العجز والنقص. وفي الآية برهانٌ ساطع على القدرة الإلهية التي لا يُعجزها أمرٌ من

الأمور, فإذا تعلَّقت إرادته جلَّ جلاله بشيء من الأشياء حَدَث من غير توقُّف على زمن أو أسباب.

7. {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون} [غافر: 68].

أي هو سبحانه القادر على الإحياء والإماتة, يحيي الأموات, ويميت الأحياء, ولا يحتاج الأمر إلى مدة, ولا إلى مشقَّة وكُلْفة, بل بلمح البصر يقول للشيء: كن, فيكون. وهذا تمثيلٌ لكمال قدرته, وتصويرٌ لسرعة وجودها, فالذي يوجِدُ الشيء بهذه الصورة السريعة, كيف يُعجِزه أن يعيد الإنسان إلى الحياة بعد موته, وهو الذي أوجده من العدم؟!

(**19**) {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيم} [البقرة: 143].

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أي كما هديناكم إلى الإسلام, وإلى قبلة أبيكم إبراهيم عليه السلام, كذلك جعلناكم خياراً وعُدولاً, وفضَّلناكم يا أمَّة الرسول محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام على جميع الأمم {لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} أي لتشهدوا يوم القيامة على الناس أنَّ الرسل عليهم السلام بلَّغتهم رسالةَ ربِّهم جلَّ وعلا, ويشهد عليكم

الرسول صلى الله عليه وسلم فيزكِّيكم ويشهد بصدقكم. روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء لهم, فتشهد أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم عليهم يوم القيامة, كما ورد ذلك في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

{وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} أي وما شرعنا التوجُّه إلى بيت المقدس أولاً, ثم حوَّلناك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة المشرفة, إلا امتحاناً للناس, لنختبر إيمانهم, فنعلم من يصدِّق الرسول صلى الله عليه وسلم, ممن يرتدُّ عن الإسلام لضعف إيمانه {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ} أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً, إلا على الذين أنار الله تعالى بصيرتهم, فعرفوا حكمة التشريع.

{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} أي ولا يصحُّ ولا يستقيم أن يضيِّع الله جلَّ وعلا صلاتكم إلى بيت المقدس, لأنه تبارك وتعالى شفيق رحيم بالعباد.

ويُروى: (أنَّه لما حوِّلت القبلة إلى الكعبة المشرَّفة, قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ فنزلت الآية) أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وقال: حديث حسن صحيح, وسمى الله تعالى الصلاة إيماناً في قوله تبارك وتعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} لأنها أعظم مظاهر الإيمان.

(20) {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ

بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِين} [البقرة: 145].

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ} أي ولئن جئت يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم اليهودَ والنصارى, بكلِّ حجَّة ساطعة تدلُّ على صدقك في أمر تحويل القبلة, ما اتَّبعوك ولا صلُّوا إلى قبلتك, لأنَّ جحودَهم عن عناد, لا عن جهل.

{وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} أي ولست يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بمتوجِّه إلى قبلتهم أبداً, كما أنَّ اليهود لا يتوجَّهون إلى قبلة النصارى, ولا النصارى يتوجَّهون إلى قبلة اليهود, لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد.

{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِين} أي ولئن فُرض أنك سايرتهم على أهوائهم, واتَّبعت ما يحبُّونه, بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي, تكون ممن ارتكب أفحش الظلم. والآية وردت على سبيل (الفرض والتقدير), وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يتَّبع أهواء الكفرة المجرمين؛ والخطاب في الظاهر للرسول صلى الله عليه وسلم, والمراد أمَّته.

أقول: في هذه الآية تهديد, وهذا الخطاب وإن كان في الظاهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم, ولكنَّ المراد أمَّتُه, المراد نحن, حتى لا ننحرف عن الاستقامة, ونتَّبع الهوى؛ وحاشا الرسول صلى الله عليه وسلم, فإنَّه معصوم

بعصمة الله تعالى له.

(**21**) {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُون} [البقرة: 152].

أي اذكروني بالعبادة والطاعة, أذكرْكم بالمغفرة والثواب, واذكروني في النعمة والرَّخاء, أذكرْكم في الشدة والبلاء, واشكروا نعمتي الجليلة عليكم, ولا تكفروها بالجحود والعصيان, فمن أطاع الله سبحانه فقد شكر, ومن عصاه جلَّ وعلا فقد خالف.

أقول: ولا يخرج المؤمن بالمعصية من الإيمان, كما هُزم المؤمنون يوم حُنين من المعركة, كما قال الله جلَّ وعلا: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين} [التوبة: 25]. قال في المقتطف: والمراد الانهزام, وقد ظهر منه صلى الله عليه وسلم من الشجاعة في تلك الوقعة ما أبهر العقول, ولم يخطر بباله صلى الله عليه وسلم مفارقة القتال, فقال للعباس رضي الله تعالى عنه . وكان صيِّتاً .: صِحْ بالناس, فناداهم, فكرُّوا, ونزلت الملائكة, فالتقوا مع المشركين فانهزموا... وذلك قوله تعالى: {ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ} أي طمأنينته {عَلَى رَسُولِهِ} أي أنزل رحمته التي تسكن القلوب وتطمئنُّ إليها اطمئناناً بالنصر القريب {وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} عامةً, الذين ثبتوا, والذين انهزموا؛ وفيه دلالة على أن الكبيرة لا تنافي الإيمان(1).

ثم نادى الله تعالى عباده بنداء الإيمان, ليستنهض هممهم إلى امتثال

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 378.377/2.

الأوامر الإلهية, فقال سبحانه:

(22) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِين} [البقرة: 153].

أي استعينوا على طاعة ربكم بالصبر على المشاقِّ, وأداء الصلاة التي فرضها عليكم, فبالصبر تنالون كلَّ فضيلة وإحسان, وبالصلاة تنتهون عن كلِّ رذيلة وعصيان {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [العنكبوت: 45], والله تعالى مع الصابرين, بالمعونة والرعاية.

(23) {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين} [البقرة: 155].

أي ولَنختبرنَّكم أيها النَّاس بشيء يسير من أنواع البلاء, مثل الخوف من الأعداء, والجوع الشديد بسبب القحط والجدب, وذهاب بعض الأموال, وفقد بعض الأحباب, وضياع بعض الزروع والثمار؛ وبشِّر الصابرين على المصائب والمِحَن, بالأجر والثواب الجزيل, من ربِّ العالمين جلَّ وعلا.

(24) {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعون} [البقرة: 156].

أي هم الذين إذا أُصيبوا بمكروه أو بلاء, قالوا: نحن عبيدٌ وملك لله تعالى, ونحن راجعون إليه للحساب والجزاء.

أقول: وهذا من خصوصيات هذه الأمة المحمَّديَّة عليه الصلاة والسلام, كما ذكر المفسِّرون, ولذا قال سيِّدنا يعقوب عليه السلام: {يَا أَسَفَى عَلَى

يُوسُفَ} [يوسف: 84] عليهما الصلاة والسلام.

(**25**) {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون} [البقرة: 157].

أي هؤلاء الصابرون, لهم ثناء وتمجيد ورحمة عظيمة من الله جلَّ وعلا, وهم المهتدون إلى طريق السعادة والفلاح, وفي الحديث القدسي: (من ابتليته بحبيبتيه ـ أي عينيه ـ فصبر, عوَّضته الجنَّة) أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**26**) {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم} [البقرة: 163].

أي إلهكم المستحقُّ للعبادة أيها الناس إلهٌ واحدٌ, لا نظير له في ذاته, ولا في صفاته, ولا في أفعاله, لا معبود بحق إلَّا هو جلَّ وعلا, المتَّصف بالرحمة الواسعة, الرحيم بالعباد.

(**27**) {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون} [البقرة: 164].

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي إنَّ في إبداع السموات والأرض, بما فيهما من عجائب الصَّنعة ودلائل القدرة, بما تعجز عن الإحاطة بها عقول البشر؛ وتعاقب الليل والنهار, بنظام دقيق محكم, يأتي الليل فيعقبه النهار, ويمضي النهار فيعقبه الليل, ويطول النهار

ويقصر, حسب التدبير الإلهي.

{وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ} أي والسُّفن الكبيرة الضخمة, التي تسير في البحر, وتجري على سطح الماء, ولا تغوص فيه, وهي مملوءة بالأثقال والرجال, بما يحقِّق مصالح العباد.

{وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي والمطر الذي أنزله الله سبحانه من السحاب بقدرته, فأحيا به الضرع, وأخرج به الزرع, بعد جدب الأرض وقحطها.

{وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} أي وما نشر وفرَّق في الأرض من كل ما يدبُّ على سطحها, من حيوان, وزواحف, وأنعام.

{وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} أي وتقليب الرياح عند هبوبها, جنوباً وشمالاً, حارة وباردة, والسحاب المسيَّر بين السماء والأرض, يسير بقدرة الله حيث شاء الله جلَّ وعلا.

{لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون} أي لدلائل وبراهين ساطعة, لقوم يتفكَّرون بعقولهم. ذكر تعالى في هذه الآية ثمانية دلائل على قدرة الله تعالى ووحدانيَّته, كلُّها براهين ساطعة قاطعة تشير إلى وجود الخالق المنظِّم الحكيم, وختم هذه الآية بقوله: {لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون}, ليوضِّح للناس أنَّ هذه دلائل عقليَّة لمن له عقل وفهم.

(28) {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ...} [البقرة: 165].

أي وفريق من البشر, تبلغ بهم الجهالةُ والحماقةُ, أن يعبدوا غير الله تعالى, من الأصنام والأوثان, يجعلونها أشباهاً ونظراء مع الله سبحانه, كأنها تخلق وترزق, يحبونها كحبِّ المؤمن لله تعالى.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} أي وحُبُّ المؤمنين لله تعالى أشدُّ من حبِّ المشركين للأوثان.

(**29**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُون} [البقرة: 172].

أي كلوا يا معشر المؤمنين من الرزق الحلال الذي رزقكم الله تعالى إيَّاه, من أنواع اللذائذ الطيِّبة, واشكروا ربَّكم على نعمه الجليلة, إن كنتم حقاً تعبدونه ولا تعبدون معه غيره.

. قال الإمام الغزالي قُدِّس سرُّه: الطيبات: هي الحلال, وأطب مطعمك ومشربك وما عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار, وطيبُ المِطْعم أصل كبير في طريق القوم, ولو قام العبدُ قيامَ السارية لم ينفعه ذلك حتى يعلم ما يدخل جوفه[1].

(**30**) {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي

(1) تفسير الإمام الغزالي قُدِّس سره ص82.

الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون} [البقرة: 177].

الخطاب لليهود والنصارى المختلفين في كتابهم اختلافاً كبيراً: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}. والمعنى: ليس فعلُ الخير, والعملُ الصالح, محصوراً في توجُّه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب, فإنَّ أمر القِبلة جزءٌ يسير من أمر الدِّين.

{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} أي ولكنَّ البرَّ الذي ينبغي أن يحرص عليه الإنسان ويهتمَّ بشأنه, هو الإيمان بالله تعالى, والطاعة له, والإيمان باليوم الآخر, وبالملائكة عليهم السلام, وبالكتب السماوية, وبالأنبياء المرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام, فهذا هو حقيقة البِرِّ, الذي يحبُّه الله جلَّ وعلا.

{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} أي أعطى المال على شحِّه به وحبِّه الشديد له, أعطاه للأقارب الفقراء, واليتامى الضعفاء, والمساكين المعْدِمين, وأعطاه أيضاً لابن السبيل, وهو المسافر الذي انقطع في سفره لفقد ماله, وللسائل المحتاج, وفي فكِّ الأسرى.

{وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} أي أدَّى الصلاة المفروضة عليه على أكمل الوجوه, ودفع زكاة ماله إلى المستحقِّين من الفقراء والمساكين.

{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} أي والذين يفُون بالعهود والمواثيق,

العهود التي عاهدوا بها ربَّهم جلَّ وعلا, والعهود مع البشر.

{وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ} أي والصابرين على الشدائد والمكاره في الأنفس والأموال, وحين اشتداد القتال.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون} أي هؤلاء المتَّصفون بهذه الصفات الكريمة, هم الصادقون في إيمانهم, المطيعون لربِّهم تبارك وتعالى, والفائزون بأعلى الدرجات في جنَّات النعيم؛ هذا هو البرُّ الذي يرضى عنه الله سبحانه.

(31) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون} [البقرة: 183].

. قال في المقتطف: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} بيان لحكم آخر, وتكرير النداء لإظهار الاعتناء بهم {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} الصيام لغةً: الإمساك, ومنه يقال للصمت: صومٌ, لأنه إمساك عن الكلام. وشرعاً: إمساكٌ عن أشياء مخصوصة, على وجه مخصوص, والمرادُ به صيامُ شهر رمضان, خُصَّ هذا الشهر بهذه العبادة لأنَّ فيه إنزال القرآن, وأضيفت فيه هداية الرحمن, وحصل فيه الظفر ببدرٍ بنصرِ العزيز المنَّان, وكان جبريل عليه السلام يدارس النبيَّ صلى الله عليه وسلم القرآن في رمضان.

{كَمَا كُتِبَ} أي فُرِضَ عليكم صومُه كما فُرِضَ {عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} من الأنبياء والأمم, وعن ابن عباس ومجاهد رضي الله تعالى عنهم أنَّهم أهلُ الكتاب, وفيه توكيدُ الحكم, وترغيبٌ على الفعل, وتطييبٌ للنفس,

فإنَّ الأمور الشاقَّة إذا عمَّت طابت وسهل عملها, والمماثلة في أصل الوجوب, وقد كُتِبَ الصومُ على أهل الملل السابقة, فكان ركناً من كلِّ دين, لأنَّه من أقوى العبادة, وأعظم ذرائع التهذيب, وفي إعلام الله تعالى لنا بأنَّه فرضه على الذين من قبلنا, إشعارٌ بوحدة الدِّين في أصوله ومقصده.

ويروى أنَّ صومَ رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى, ثمَّ غيَّروه, فتركه اليهود إلا صوم يوم من السَّنَة, زعموا أنَّه اليوم الذي أُغرق فيه فرعون؛ وزاد النصارى فيه حتى بلغ خمسين, فصعب عليهم في الحرِّ, فنقلوه إلى زمن الربيع.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون} أي لعلَّكم تنتظمون به في زمرة المتَّقين, فالصوم إنَّما فُرض لمنفعتنا, لأنه يُعِدُّنا للسعادة؛ وإعدادُ الصيامِ نفوسَ الصائمين بتقوى الله سبحانه من وجوه:

1. أعظمها أنَّ الصومَ أمرٌ داخلي, موكول إلى نفس الصائم, لا رقيبَ لأحدٍ عليه, إلا لله سبحانه وتعالى, وهو سرٌّ بين العبد وربِّه, فإذا ترك الصائم شهوتَه ولذَّتَه, مدة شهر, امتثالاً لأمر ربِّه, ملاحظاً عند عروض كلِّ رغبةٍ جسديَّةٍ, من أكلٍ نفيس, وشراب لذيذ, وزوجة فاتنة, أنَّه لولا اطِّلاعُ الله تعالى عليها, لما صبر على ترك تلك الشهوات, لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة (ملكةُ المراقبة) لله تعالى, والحياء منه أن يراه حيث نهاه. وهذه المراقبة الدائمة من كمال الإيمان, كما جاء في الحديث القدسيِّ: (يَدَعُ طعامه وشهوته من أجلي) رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى, وهي أكبر

وسيلة لسعادة الروح, فهل يُقدِم مَنْ تُلابِسُ هذه المراقبةُ قلبَه, على غشِّ الناس ومخادعتهم؟ كلا! إنَّ صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي, لأنَّ الصوم ربَّى نفسه.

2. ومن الوجوه الاجتماعية, أنَّ الصائم عندما يجوع, يتذكَّر الفقيرَ الذي لا يجد قوتاً, فيحثُّه التذكُّر على الرأفة والرحمة بعباد الله تعالى, فيمدُّ إليهم يدَ العون والإحسان.

3. ومن الوجوه أيضاً أنَّ الصومَ يُصفِّي نفسَ الإنسان, ويهذِّب لسانه وسلوكَه, وينقل الإنسان من (حيوانيَّة) الأرض, إلى (ملائكيَّة) السماء, فيجعله كالملائكة الأبرار الأطهار, الذين ليس لديهم ميل إلى المخالفة والعصيان, ومن أجل ذلك شُرِعَ الصيامُ[1].

(**32**) {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ...} [البقرة: 184].

. قال في المقتطف: أي هذا الصيام أيامُه معدودات, وهي أيام قلائل, فلم يفرض الله تعالى على عباده صيام الدهر, حتى لا يشقَّ عليهم, وإنَّما جعله شهراً واحداً في السنة, رأفةً ورحمةً بهم, وأحد عشر شهراً يتقلَّبون في لذائذ الطعام والشراب والمتعة الجسدية, فما أرحم الله عزَّ وجلَّ بعباده![2].

(**33**) {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 201.200/1.

(2) المقتطف من عيون التفاسير: 201/1.

نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيب} [البقرة: 214].

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم} أي هل تظنُّون يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنَّة بدون ابتلاء وامتحان, ولم تعرفوا ما أصاب الأمم قبلكم من الشدائد والمصائب؟

{مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ}؟ أي أصابتهم الشدائد والكوارثُ والبلايا, في أنفسهم وأموالهم, وامتُحنوا امتحاناً شديداً, حتى وصل الحال بالرسل وأتباعهم, أن يقولوا: متى يأتينا الفرجُ والنَّصرُ؟ والتعبير بالزلزلة يوحي بشدَّة الكرب والهول الذي نزل بهم {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيب} أي استبشروا معشر المؤمنين, ففرجُ الله تعالى قريب, ونصره لأوليائه آتٍ لا محالة.

(**34**) {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم} [البقرة: 256].

{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الإسلام, بل لا بدَّ أن يكون عن قناعة, وقد توضَّح الإيمان من الكفر, وتميَّز الهدى عن الضلال.

{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم} أي فمن يكفر بالشيطان والأوثان, وكلِّ ما عُبِدَ من دون الرحمن, ويؤمن بالله تعالى وحده, فقد استمسك بأوثق عروة, وأمتن

حبل, لا انقطاع له؛ والله تعالى سميع لأقوال العباد, عالم بأحوالهم.

شبَّه تعالى المستمسك بالإسلام, بالمستمسك بالحبل القويِّ المحْكَم, وهو تشبيه تمثيليٌّ رائع.

(**35**) {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ...} [البقرة: 257].

أي الله جلَّ وعلا حافظُ المؤمنين ومتولي أمورهم, يخرجهم بهدايته وتوفيقه من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان.

(**36**) {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَاب} [البقرة: 269].

أي يهب جلَّ وعلا العلمَ النافع, والفهمَ السليم, والسَّدادَ في العمل, لمن شاء من عباده, ومَنْ أُعطيَ الحكمةَ والفقه في أمور الدِّين فقد أُعطي الخيرَ الكثير {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَاب} أي وما يتَّعظ بأمثال القرآن إلا أصحابُ العقول النيِّرة الخالصة.

قال لقمان عليه السلام لابنه: (يا بنيَّ جالس العلماء, واسمع كلام الحكماء, فإنَّ الله تعالى يحيي القلبَ الميت بنور الحكمة, كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر) أخرجه الإمام الطبراني رحمه الله تعالى.

. قال في المقتطف: الحكمة: تحقيق العلم, وإتقان العمل, والمراد بها علم القرآن والسنة[1].

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 281/1.

(37) {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [البقرة: 272].

{لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} أي ليس عليك يا أيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - هدايةُ البشر, وإنَّما عليك الإرشادُ, والله تعالى يهدي من شاء من عباده إلى الدِّين الحقِّ, دينِ الإسلام.

{وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} أي وما تبذُلونه من مالٍ تُحسنون به إلى الفقراء فنفعه عائدٌ إليكم, لا ينتفع به غيركم, فلا تَمُنُّوا على الفقراء بما بذلتم, وينبغي أن يكون غرضُكم رضوانَ الله تعالى, لا الشهرة والرياء؛ وكلُّ ما تنفقونه في سبيل الله تعالى يعوَّض لكم ثوابه أضعافاً مضاعفة, ولا تُنقَصون منه شيئاً يوم القيامة.

(38) {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة: 276].

أي يُذهِب بركته, ويُهلك أصله الذي دخل فيه, والمحْقُ: إذهاب الشيءِ من أساسه وجذوره, فهو وإنْ كان في الظاهر زيادة, لكنَّه في الحقيقة خسران ودمار, ويبارك الله تعالى في الصدقات فيزيدها وينمِّيها, والله سبحانه يبغض كلَّ فاجر كافر منهمكٍ في الجرائم والآثام.

(39) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}

[البقرة: 278].

أي خافوا ربَّكم, واخشوا عقابه, وراقبوه فيما تفعلون, واتركوا ما بقي لكم من الربا عند الناس, إنْ كنتم حقاً مؤمنين.

(40) {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون} [البقرة: 281].

أي خافوا ذلك اليومَ الرهيب العصيب, الذي تُرجعون فيه إلى ربكم, فيجازيكم على أعمالكم, وأنتم لا تُظلمون بنقص ثواب أو مضاعفة عقاب. وهذه الآية آخرُ ما نزل من القرآن العظيم, وفيها التذكير بالوقفة الكبرى بين يدي أحكم الحاكمين, وقد عاش بعدها النبيُّ صلى الله عليه وسلم تسع ليالٍ, ثم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**41**) {إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} [آل عمران: 5].

أي لا يغيب عنه سبحانه أمرٌ من الأمور, لا مما يحدث في الأرض من أعمال البشر, ولا ممَّا تفعله الملائكة في السماء.

(**42**) {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم} [آل عمران: 6].

أي هو الذي يخلقكم على الصورة التي يشاؤها في أرحام أمهاتكم, من ذكر أو أنثى, وأسود وأبيض, وطويل وقصير {لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم} أي لا خالق غيرُه, ولا معبود بحقٍّ سواه؛ العزيزُ الذي لا يُغلب ولا يُقهر, الحكيمُ في صنعه وتدبيره.

(**43**) {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب} [آل عمران: 8].

تعليمٌ من الله تعالى للعباد, أي قولوا: يا ربَّنا لا تصرفْ قلوبنا عن نور الهداية والإيمان, بعد أن هديتنا إلى دينك القويم, وشَرعك المستقيم, وامنحنا من فضلك الثَّباتَ على الإسلام, فأنت يا رب المتفضِّل على عبادك بالعطاء والإحسان.

. أمارتان على حُسن الخاتمة:

الأمارة الأولى: لقد قضى أهلُ الكشف والتَّحقيق أنَّ الإيمان التحقيقيَّ

كلما ارتقى من علم اليقين إلى حقِّ اليقين يستعصي على السلب، فلا يُسلب؛ وقالوا: إنَّ الشيطان لا يستطيع أنْ يورث أحداً في سكرات الموت إلَّا إلقاء الشبهات بوساوسه إلى العقل فحسب, أما هذا النوع من الإيمان التحقيقيِّ فلا يتوقَّف في حدود العقل فحسب, بل يسري إلى القلب وإلى الروح وإلى السرِّ وإلى لطائف أخرى, فيترسَّخ فيها رسوخاً قوياً, بحيث لا تصل يد الشيطان إليها أبداً, فإيمان أمثال هؤلاء مَصُون من الزوال بإذن الله تعالى.

إنَّ إحدى طرق الوصول إلى هذا الإيمان التحقيقي هو بلوغ الحقيقة بالولاية الكاملة بالكشف والشهود, وهذا الطريق إيمان شهودي يخصُّ أخصَّ الخواصِّ.

أما الطريق الثاني فهو تصديق الحقائق الإيمانية بعلم اليقين البالغ درجة البداهة والضرورة، وبقوَّة تبلغ درجة حقِّ اليقين، وذلك بفيض سرٍّ من أسرار الوحي الإلهي من جهة الإيمان بالغيب, وبطراز برهاني وقرآني يمتزج فيه العقل والقلب معاً.

الأمارة الثانية: الدعاء[1].

. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: عند استقرار النفس في الترقِّي والارتفاع تعرض عليه الفتن (أي عند الغرغرة), وذلك أنَّ إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصَّة, واستعملهم عليه, ووكَّلهم به, فيأتون المرء

(1) ينظر: الملاحق, الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى ص110.

وهو في تلك الحال, فيتمثَّلون له في صورة مَنْ سلف مِن الأحبَّاء الميِّتين الباغين له النُّصح في دار الدنيا, كالأب والأم والأخ والأخت, والصديق الحميم, فيقول له: أنت تموت يا فلان ونحن قد سبقناك في هذا الشأن, فمت يهودياً فهو الدِّين المقبول عند الله تعالى, فإن انصرفوا عنه وأبى, جاءه آخرون وقالوا له: مت نصرانياً فإنه دين المسيح عليه السلام, ونُسخ به دين موسى عليه السلام, ويذكرون له عقائد كلِّ ملة, فعند ذلك يُزيغ الله جلَّ وعلا من يريد زيغه, وهو معنى قوله تعالى: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب} أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا إلى الإيمان؛ فإذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتاً جاءته ملائكة الرحمة, وقيل: هو جبريل عليه السلام, فيطرد عنه الشيطان, ويمسح الشُّحوب عن وجهه, فيبتسم الميت ضاحكاً لا محالة, وكثير من يُرى مبتسماً في هذه الحالة فرحاً مسروراً بالبشير الذي جاء رحمة من الله تعالى, يقول: يا فلان أما تعرفني؟ أنا جبريل, وهؤلاء أعداؤك من الشياطين, مت على الملَّة الحنيفيَّة, والشريعة المحمَّديَّة, فما شيء أحبَّ إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك, وهو قوله تعالى: {وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب} ثم الموت على الفطرة(1).

أقول: ومصداق هذا في الواقعة, كنت في عملية فتق, تبيَّن لي أنَّ الشياطينَ مصفوفةٌ في بيتٍ واحدٍ مريض, بعضهم وراء بعض لا يوجد فراغ,

---

(1) تفسير الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ص103.

قلت لواحد: اذهب إليه, الشياطين يجتمعون حواليه, يُخشى أن يذهب بدون إيمان, وقل له ينطق بالشهادة, ثم ذهبت أنا إليه وقلت له: أشهد أن لا إله إلا الله, كي يخرج من الدنيا على الإيمان, فقالها ثم مات, والحمد لله ربِّ العالمين؛ وهذا مما يدلُّ على الكشف, ومما يدلُّ على مَن كان إيمانه تحقيقيّاً.

(44) {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَاد} [آل عمران: 9].

وقولوا أيضاً في دعائكم: يا ربَّنا إنَّك جامع الخلائق ليوم لا شكَّ في وقوعه, وهو يوم القيامة, يوم الحساب والجزاء, فإنَّ وعدك حق, وأنت لا تخلف الوعد.

(45) {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآب} [آل عمران: 14].

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ} أي حُسِّن للبشر حبُّ أنواع الشهوات التي يُفتن بها الناسُ {مِنَ النِّسَاء} وبدأ بهنَّ لأنَّ الفتنة بهنَّ أشدُّ, والميلُ نحوهنَّ أعظم {وَالْبَنِينَ} أي الأولاد لأنَّهم بهجة النفس وقُرَّة العيون {وَالْقَنَاطِيرِ} أي الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة, والقنطار في اللغة: المالُ الكثير الذي لا يحصى, والمقَنْطرة أي المكدَّسة المخبوءة في الخزائن من أصناف الذهب والفضة {وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} أي وزُيِّن لهم حبُّ الخيلِ المعلَّمة بعلامةٍ

تجعلها حسنة المنظر, وهي الأصيلةُ الحسانُ؛ والأنعام وهي (الإبلُ, والبقر, والغنم) فمنها المرْكَب والمِطْعَم؛ والحرث وهي أنواع الزروع والنبات والثمار, لأنَّ فيها تحصيلَ الأقوات.

{ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآب} أي هذه الشهواتُ المذكورة هي زهرةُ الحياة الدنيا, وزينتُها الفانية الزائلة, والله جلَّ وعلا عنده حسْنُ المرْجع والمصير, وهو الجنَّة دارُ الخلود والنعيم, فلا تغترُّوا بنعيم الدنيا الفاني, عن نعيم الجنَّة الباقي.

(**46**) {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِير} [آل عمران: 28].

{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} أي احذروا يا معشر المؤمنين صداقة أعداء الله تعالى, فلا تتَّخذوهم أعواناً وأنصاراً, توالونهم من دون إخوانكم المؤمنين, ومَنْ يوالِ الكفرة فقد خالف شرع الله تعالى ودينَه, وليس بمؤمنٍ صادق الإيمان.

{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} أي إلَّا أن تخافوا شرَّهم وأذاهم, فتُظهروا لهم المودَّةَ باللسان, دون المحبة بالقلب؛ لأنَّ هذا من باب (مداراة السفهاء) كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّا لنبشُّ ـ أي نظهر السرور ـ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم) ذكره الإمام البخاري رحمه الله تعالى تعليقاً.

{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِير} أي يخوِّفكم الله تعالى عقابه

الشديد, الصادرَ منه تعالى, لا عقاباً من غيره, وإليه جلَّ وعلا وحدَه مصيرُكم ومرجعكم, فيجازي كلَّ إنسانٍ بعمله.

. {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} أي يحذِّركم يا أهل العزائم عن نفسه على وجه المبالغة, حتى لا تأمنوا عن سخطه, ولا تغفلوا عن غضبه, ولا تميلوا عنه سبحانه بارتكاب ما نُهيتم عنه. الجيلاني قُدِّس سرُّه.

(**47**) {قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [آل عمران: 29].

أي ما أخفيتم في قلوبكم من الحبِّ والموالاة للأعداء, أو أظهرتموه, فإنَّ الله سبحانه مطَّلع عليه, ولا يخفى عليه ما في الكون, لأنَّه العالمُ بجميع الأمور, فكيف يخفى عليه أمرُكم؟ وهو القادر على الانتقام ممَّن خالف حكمه وعصى أمره, وفي الآية تهديد شديد.

(**48**) {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَاد} [آل عمران: 30].

أي ليس الجزاء هنا في الدنيا, إنما الجزاء في الآخرة, يوم يجد كلُّ إنسانٍ جزاءَ عمله, حاضراً لا يغيب, فإنْ كان عملُه حسناً, سرَّه ذلك وأفرحه, وإنْ كان سيئاً, تمنَّى أن لا يرى عمله القبيح, وأنْ يكون بينهما المسافة الشاسعة البعيدة, بحيث لا يراه ولا يتصوَّره, لما يلحقه من الخزي والذُّلِّ {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ

نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَاد} أي يخوِّفكم الله تعالى عقابَه الشديد, ومن رأفته ورحمته بكم حذَّركم من موالاة أعدائه.

(**49**) {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيم} [آل عمران: 31].

أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبُّون الله تعالى فاتَّبعوني لأني رسولُه, أرسلني لهدايتكم, فإذا أطعتموني أحبَّكم الله تعالى, وغفر لكم ما سلف من الذنوب, والله سبحانه واسع المغفرة, عظيم الرحمة.

. قال الإمام الغزالي قُدِّس سرُّه: قال لأمَّته: {إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} فإنَّما أمَّتُه من اتَّبعه عليه الصلاة والسلام, وما اتَّبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة؛ فإنَّه ما دعا إلا إلى الله تعالى واليوم الآخر, وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة, فبقَدْر ما أعرضتَ عن الدنيا وأقبلتَ على الآخرة فقد سلكتَ سبيله الذي سلكه, وبقَدْر ما سلكتَ سبيله فقد اتَّبعتَهُ, وبقدر ما اتَّبعتَهُ فقد صرتَ من أُمَّته, وبقدر ما أقبلتَ على الدنيا عدلتَ عن سبيله, ورغبتَ عن مُتابعته, والتحقتَ بالذين قال الله تعالى فيهم: {فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 37-39]. فقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}(1).

---

(1) تفسير الإمام الغزالي قدِّس سره ص105.

(**50**) {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيم} [آل عمران: 92].

أي لن تبلغوا حقيقة البرِّ الذي هو جماع فعل الخير, ولن تفوزوا برضا الرحمن ودخول الجنان, حتى تنفقوا من أفضل أموالكم, مما تحبُّونه وتشتهونه لأنفسكم, وما تنفقونه من شيء في سبيل الله تعالى, فهو محفوظٌ لكم تُجزون عنه في الآخرة خيرَ الجزاء.

أقول: والمحبوب عند الإنسان روحُه, فلا بدَّ أن يصرفه فيما خُلق له متمسِّكاً بأحكام الشريعة والسنة النبوية عليه الصلاة والسلام, حتى يعمِّر آخرته.

(**51**) {... وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} [آل عمران: 101].

ومن يتمسَّك بدين الله تعالى الحقِّ, وهو الإسلام, الذي بيَّنه الله تعالى بآياته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم, فقد تحقَّق له الهُدى, وطريقُ الله تعالى المستقيمُ, الموصلُ إلى جنَّات النعيم, ورضا ربِّ العالمين جلَّ وعلا.

. قال في المقتطف: {فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} أفاد الكلامُ تحقُّقَ الهدى, حتى كأنَّه حصل, والتنوين للتفخيم, والصراط المستقيم وإن كان هو الدِّين الحق, والاهتداء إليه هو الاعتصام به, لكن أُبرِز في معرض الجواب, للحثِّ على الاستمساك به والترغيب فيه[1].

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 352/1.

(**52**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون} [آل عمران: 102].

ناداهم بلفظ الإيمان تكريماً وتشريفاً, أي يا مَنْ آمنتم بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم, اتقوا الله تعالى تقوى حقيقية (حقَّ التقوى), وذلك كما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: (أن يُطاع فلا يُعصى, وأن يُذكَر فلا ينسى, وأن يُشكَر فلا يُكفَر)؛ وتمسَّكوا بالإسلام واثبتوا عليه, حتى يأتيكم الموتُ وأنتم على ذلك, فتموتون على الإسلام.

. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (أطيعوا الله تعالى حقَّ طاعته). وقال مجاهد رحمه الله تعالى: (هو أن يُطاع فلا يُعصى, وأن يُذكَر فلا يُنسى, وأن يُشكَر فلا يُكفَر)[1].

(**53**) {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون} [آل عمران: 103].

أي واستمسكوا بدين الإسلام, وبالقرآن العظيم, ولا تتفرَّقوا وتختلفوا في الدِّين, كما فعل مَنْ قبلكم مِن اليهود والنصارى, وتذكَّروا نعمة الله تعالى عليكم, حين كنتم قبل الإسلام أعداء, يقتلُ بعضُكم بعضاً, فألَّف بين قلوبكم بالمحبة, وجمعكم على الإيمان, فأصبحتم إخوة متحابِّين في الله, بفضل

(1) تفسير الإمام الغزالي قدس سره ص107.106.

الله تعالى وإنعامه.

{وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون} أي وكنتم على طرف حفرة من نار جهنَّم بسبب كفركم, فأنقذكم ربُّ العزَّة والجلال بأنْ هداكم للإسلام, ومثل هذا البيان البديع, يُبيِّن الله تعالى لكم شرائع الدِّين, لكي تهتدوا وتفوزوا بسعادة الدارين. شبَّه تعالى حالهم في الجاهلية, بحال من كان واقفاً على طرف جبل شاهق, مشرفٍ على وادٍ سحيق يكاد يقع فيه, وما أروعه من تمثيل!

(**54**) {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} [آل عمران: 104].

توجيهٌ ربانيٌّ للمؤمنين, للدعوة إلى هداية الخلق, بعد إصلاح النفس, ليكونوا هادين مهتدين, أي ولتقم منكم طائفة كثيرة بالدعوةِ إلى الله تعالى, والأمرِ بكلِّ ما فيه خير للناس, والنهيِ عن كلِّ ما فيه شرٌّ؛ والمعروف: هو كلُّ ما استحسنه الشرع والعقلُ, والمنكر ضدُّه: كلُّ ما استقبحه العقلُ والشرع.

{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} أي الفائزون بكلِّ محبوب.

(**55**) {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون} [آل عمران: 132].

أي أطيعوا أمر الله تعالى, وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام, لتكونوا من المؤمنين الأبرار, الذين تنالهم رحمة الله تبارك وتعالى.

. قال في المقتطف: أطيعوا أمرهما راجين لرحمة الله تعالى في جميع أحوالكم, وإيراد لعل في الآيتين: {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [آل عمران:

130], {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون} [آل عمران: 132] للإشعار بعزَّة مَنال الفلاح والرحمة[1], اللهمَّ ارحمنا والمؤمنين جميعاً.

(**56**) {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُون} [آل عمران: 135].

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ} أي والذين إذا ارتكبوا كبيرة من كبائر الذنوب, أو صغيرة من الصغائر, تذكَّروا عظمة الله تعالى وجلالَه, فأقلعوا عن الذنب وتابوا, وطلبوا من الله تعالى أن يعفوَ عمَّا صدر منهم.

{وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُون} أي ومن يملك مغفرةَ الذنوب إلَّا الرحمنُ ربُّ العزة والجلال؟ هو وحده غفَّار الذنوب. وفي الآية ردٌّ على النصارى (القسس), الذين يُقعدون النصرانيَّ على (كرسي الاعتراف) فيقرُّ أمامهم بما اقترف من خطيئة, ثم يغفرون له ذنبه! وقوله تعالى: {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ} أي لم يقيموا على ذنوبهم مُداومين على المعصية وهم يعلمون قُبْحَها, بل يسرعون إلى التوبة وطلب المغفرة.

(**57**) {أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين} [آل عمران: 136].

أي أولئك الموصوفون بهذه الصفات الحميدة, جزاؤهم عند الله تعالى

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 369/1.

سترٌ لذنوبهم, وحدائق وبساتين تجري خلال أشجارها وقصورها أنهار الجنَّة, ماكثين فيها أبداً, ونعم أجرُ العاملين المغفرةُ وجنَّاتُ النعيم.

(58) {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِين} [آل عمران: 142].

الاستفهامُ للإنكار والاستغراب, أي هل تظنُّون يا معشر المؤمنين أن تفوزوا بالجنَّة بدون ابتلاء وتمحيص؟ والحالُ أنه لم يتبيَّنْ بعدُ المجاهدُ منكم لإعلاء كلمة الله تعالى, والصابر على الشدائد وقت مقارعة السيوف؟

(59) {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين} [آل عمران: 147].

أي ما كان دعاؤهم وهم في ساحة القتال إلا طلب المغفرة من الله تعالى لخطاياهم, وتثبيت أقدامهم في مواطن الحرب, ونصرهم على أعدائهم الكفرة الفجار.

(60) {فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين} [آل عمران: 148].

أي جمع الله تعالى لهم بين جزاء الدنيا بالعزِّ والنصر, وبين جزاء الآخرة بالشهادة في سبيل الله تعالى, ودخول الجنان؛ والله تعالى يحبُّ أهل الفضل والإحسان. والمقصود من هذه الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم المؤمنين, ليقتدي المسلمون بهم في تضحيتهم ونضالهم.

(**61**) {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

أي فاعفُ عمَّا صدر منهم من خطأ, كما عفا الله تعالى عنهم, واطلب لهم من الله تعالى المغفرة, إكمالاً للبرِّ بهم, وإتماماً للشفقة عليهم, وشاورهم في أمر الحرب, وفي جميع الأمور الهامة, ليقتدي بك المسلمون, فإذا صمَّمتَ على أمرٍ بعد الاستشارة, فتوكَّل على ربِّك جلَّ وعلا, فإنَّه سبحانه يحبُّ المعتمدين عليه, المفوِّضين أمورهم إليه.

(**62**) {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

أي قال لهم بعض المرجفين من أنصار المشركين, لإدخال الرعب في أنفسهم: إنَّ قريشاً قد جمعت لكم الجموع, فخافوا على أنفسكم ولا تخرجوا لقتالهم, فما زادهم هذا التخويفُ إلَّا إيماناً بالله وثقةً بنصره تعالى, وقالوا: كافينا اللهُ ربُّ العالمين, ونعم الملجأ والنصيرُ لمن توكَّل عليه!.

(**63**) {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} [آل عمران: 190].

أي إنَّ في خلق السموات والأرض على ما فيهما من إحكام وإبداع, وتعاقب الليل والنهار على الدوام وبانتظام, لعلامات واضحة ساطعة دالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته لذوي العقول السليمة.

(64) {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 191].

أي هؤلاء العقلاء, هم الذين يذكرون الله تعالى وعظمته دائماً وأبداً, يتذكَّرون جلال الله سبحانه, ولا يغفلون عنه في جميع الأحوال, سواء كانوا في أسواقهم وأعمالهم, أو مضطجعين في فرشهم للنوم؛ ويتفكَّرون في ملكوت السموات والأرض, قائلين: ربنا ما خلقتَ هذا الكون وما فيه سُدىً ولا عبثاً, تنزَّهتَ يا ربَّنا عن العبث, فنجِّنا من عذاب جهنَّم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(65) {... إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

إنَّ الله سبحانه وتعالى مطَّلعٌ على أحوالكم وأعمالكم وأقوالكم, وهو وعد ووعيد.

أقول: لا بدَّ للعبد أن لا يضيِّع ارتباط قلبه مع ربِّه تبارك وتعالى, وإذا حصلت الغفلة لا بدَّ أن نستغفر ونتوب, وهو جلَّ وعلا مراقب علينا, وضياع المراقبة لا يكون منه تبارك وتعالى, حاشا, ولكن ضياع المراقبة يكون منا, فلا بدَّ أن نحفظ هذه المراقبة {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}.

(66) {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا} [النساء: 27].

أي واللهُ جلَّ وعلا يريدُ أن يطهِّركم من الذنوب والآثام, ويريد الفُسَّاقُ والفُجَّارُ, الذين يتَّبعون الأهواء والشهوات, أن يصرفوكم عن التقوى إلى الفجور, وعن الإيمان إلى الضلال, لتكونوا مثلهم.

(67) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: 29].

أي لا تأكلوا أموال غيركم بالحرام, كالربا, والقمار, والسرقة, والغصب, إلَّا ما كان بطريقٍ شرعيٍّ شريف, كالتجارة التي أحلَّها الله تعالى, بطريق التراضي بين البائع والمشتري.

{وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} أي لا يسفكْ بعضُكم دمَ بعضٍ, وعبَّر عن ذلك بقتل النفس؛ لأنَّ المؤمنين كنفس واحدة, فالعدوان على أحد منهم عدوانٌ على النفس, ويدخل في الآية (الانتحارُ) والإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة, وذلك من رحمته تعالى بالعباد.

(**68**) {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا} [النساء: 30].

أي ومن يفعل ما نهى الله تعالى عنه معتدياً ظالماً, مستحِلًّا لقتل النفس, وأكل المال الحرام, فسوف ندخله ناراً هائلة شديدة نحرقُه فيها, وكان هذا العقابُ أمراً هيِّناً يسيراً على الله تعالى, لأنه تعالى لا يعجزه شيء.

(**69**) {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا} [النساء: 31].

أي إنْ تجتنبوا كبائر الذنوب والمعاصي, نغفرْ لكم صغائرها, وندخلكم الجنَّة دار السرور والحُبور, التي فيها ما لا عينٌ رأت, ولا أُذُنٌ سمعتْ, ولا خطر على قلب بشر؛ والكبائر بيَّنها سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم بقوله: (اجتنبوا السبع الموبِقات, قالوا: يا رسول الله, وما هنَّ؟ قال: الشركُ بالله تعالى, والسِّحرُ, وقتلُ النفس التي حرَّم الله تعالى إلا بالحق, وأكلُ الرِّبا, وأكلُ مال اليتيم, والتولِّي يوم الزحف, وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) رواه البخاري ومسلم.

(**70**) {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ

أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 40].

أي إنَّ الله تعالى لا يظلم أحداً من عباده, ولو كان وزن ذرَّة من التراب, وإن كانت هذه الذرَّة من أعمال الخير, يضاعفها الله جلَّ وعلا لصاحبها أضعافاً كثيرة, ويعطي تفضُّلاً منه عطاءً جزيلاً, وهي الجنَّة دار المتقين.

(**71**) {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: 48].

إعلانٌ من ربِّ العزة والجلال لعباده بأنَّ كلَّ ذنب يمكن أن يغفره الله تعالى, إلا الكفر والإشراك بالله جلَّ جلاله, فهذا لا يُغفر أبداً؛ ومن أشرك بالله تعالى فقد اختلق ذنباً عظيماً, وارتكب جرماً فظيعاً شنيعاً تُسْتحقر دونه الذنوب والجرائم.

. {لِمَن يَشَاء} من التائبين وغيرهم, كما قال سيِّدي الجيلاني قُدِّس سرُّه.

. قال الطبريُّ رحمه الله تعالى: قد أبانت هذه الآية أنَّ كلَّ صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالى, إن شاء عفا عنه, وإن شاء عاقبه عليه, ما لم تكن كبيرتُه شركاً بالله تعالى[1].

(**72**) {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [النساء: 49].

أي ألا تعجب أيها السامعُ من حال هؤلاء اليهود, الذين يطهِّرون

---

(1) تفسير الطبري: 450/8. وانظر: صفوة التفاسير: 260/1.

نفوسهم من الذنوب, ويقولون: نحن أبناءُ الله وأحباؤه, فلن يعذِّبنا الله, مع ما هم عليه من الكفر, والتكذيب لخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم؟ {وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} أي ولا يُظلمون أدنى ظلم وأصغره, ولو بمقدار الخيط الذي في شقِّ النواة, وهو مَثَلٌ يُضرَب للقلَّة والحقارة.

(**73**) {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} [النساء: 54].

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} أي أيحسدون محمَّداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه, على نعمة النبوَّة والقرآن؟ {فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا} أي فقد أعطينا أسلافهم من ذرية إبراهيم عليه السلام النبوَّةَ والعلم, وآتيناهم الملك العظيم مع النبوة, كداود وسليمان عليهما السلام حين قال: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} [ص: 35], فكيف يحسدون محمَّداً صلى الله عليه وسلم على النبوة, ويستبعدون أن تكون الرسالة في غير اليهود؟

(**74**) {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [النساء: 57].

إخبارٌ عن مآل المؤمنين السعداء, بعد الإخبار عن مآل الكفار الأشقياء: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي إنَّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح,

سندخلهم في الآخرة حدائق وبساتين, تجري من تحت قصورها ومنازلها أنهار الجنَّة, ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون {لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} أي لهم في الجنَّة زوجاتٌ مطهَّرات من الأقذار والأدناس, كالحيض والنفاس, والتبوُّل والتغوُّط, وسائر ما يعتري نساء الدنيا (**أقول**: وكذا الرجال لا يجدون في الجنَّة هذه العوارض البشرية)؛ وندخلهم الظلَّ الظليل, في جنَّات الخلد والنعيم.

(**75**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء: 59].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} أي أطيعوا أمر الله تعالى, وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يدعوكم إليه من فعل الطاعات, وترك الفواحش, وأطيعوا الحُكَّام إذا كانوا مسلمين, متمسِّكين بشرع الله تعالى, إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق, وفي قوله سبحانه: {مِنكُمْ} دليلٌ ساطع على أنَّ الحكام إذا كانوا غير مسلمين, أو كانوا غير متمسِّكين بشرع الله تعالى, فلا طاعة لهم في أعناق المسلمين, لأن الله جلَّ وعلا شرط أن يكونوا مسلمين حقاً, لا مسلمين في الصورة والهوية {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور, فاحتكموا فيه إلى كتاب الله تعالى, وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم, إن كنتم مؤمنين

حقاً, فذلك خيرٌ لكم وأصلح, وأحسن عاقبةً ومآلاً.

(**76**) {... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} [النساء: 64].

أي ولو أنَّ هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بالنفاق, وعرَّضوها لسوء العذاب, جاؤوك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, نادمين, مستغفرين الله تعالى من ذنوبهم, معترفين بخطئهم وجنايتهم, متوسِّلين إليك لتطلب لهم من الله تعالى المغفرة, واستغفرتَ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم, لعلموا سعة رحمة الله تعالى, ولطفه بعباده! وإنما قال: {وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ} على طريقة الالتفات, ولم يقل: واستغفرت لهم, تفخيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام, وتعظيماً لاستغفاره ووساطته, لمكانته الرفيعة عند الله تعالى, فالله جلَّ وعلا وحده هو غفَّار الذنوب.

(**77**) {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69].

أي ومن يطع أمر الله تعالى وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم, فإنَّ الله جلَّ جلاله سيسكنه جنان الخلد والنعيم, مع النبيين الأبرار, والصديقين الأطهار, والشهداءِ الأخيار, والصالحين من عباد الله تعالى, ونعم صحبةُ هؤلاء ورفقتهم! بمعنى ما أحسنها وأكرمها من رفقة!

. فعلى المرء أن يتَّبع الرسول عليه الصلاة والسلام, ويتَّبع أولياء الله تعالى, فإن الأنبياء لهم وحي إلهي, والأولياء لهم إلهام ربَّاني, والاتِّباع لهم لا

يخلو عن الاتِّباع للرسول صلى الله عليه وسلم[1].

والمرءُ يُحشر مع من أحب, وهذه الآية هي التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سكرات الموت, يودِّع الحياة, فقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من نبيٍّ يمرضُ, إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة), فلما كان في شكواه الذي قُبض فيه, سمعته يقول: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ} فعلمتُ أنه خُيِّر, وأنه لا يختارنا).

(**78**) {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا} [النساء: 70].

أي هذا هو الفضل العظيم, من ربِّ العزَّة والجلال, لعباده المطيعين المتَّقين, وكفى أن يكون الله جلَّ وعلا عالماً بمن يستحقُّ هذا الفضل والإكرام.

(**79**) {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [النساء: 79].

بيَّن تعالى حقيقة قضية الإيمان فقال: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} الخطاب هنا لكلِّ إنسان ولكلِّ سامع, أي ما أصابك أيها الإنسان من نعمة وإحسان, فمن الله تعالى, تفضُّلاً منه وكرماً؛ وما أصابك من مصيبةٍ وبلاء, فبسبب ما اقترفته يداك أيها الإنسان من معاصٍ وآثام, كقوله سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

---

(1) تفسير روح البيان: 334/2.

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى: 30]. ثم قال تعالى تعظيماً لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} أي وأرسلناك يا أيها الرسولُ صلى الله عليه وسلم لكافَّة الناس, ولجميع البشر, تبلِّغهم شرائع دين الإسلام, وتدعوهم إلى دار السلام, وحسبُك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أنَّ الله تعالى شاهد على صدق نبوَّتك ورسالتك.

(**80**) {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: 80].

أي من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله تعالى, لأنه مبلِّغ عن الله تعالى أمرَه ونهيه, فطاعتُه صلى الله عليه وسلم من طاعة الله جلَّ وعلا, لأنَّ الله تعالى أرسله؛ ومن أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فما أرسلناك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم حافظاً لأعمالهم, مجازياً عليها, إنما عليك البلاغُ وعلينا الحساب.

(**81**) {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].

هذا قَسَمٌ من ربِّ العزَّة والجلال, أي واللهِ الذي لا معبود بحقٍّ سواه, ليحشرنَّكم الله تعالى أيها الناس من قبوركم ليوم الحساب والجزاء الذي لا شكَّ فيه {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا} لفظُه استفهام, ومعناه النفي, أي لا أحد أصدق في الحديث من ربِّ العزة والجلال! وفي الحديث القدسي:

(كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك, وشتمني ولم يكن له ذلك, أمَّا تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني, وليس أوَّل الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته؛ وأمَّا شتمُه إياي فقوله: اتَّخذ الله ولداً, وأنا الأحدُ الصمدُ, الذي لم يلد ولم يولد, ولم يكن له كُفُواً أحدٌ) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**82**) {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء: 100].

{وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} أي ومن يخرج من وطنه مهاجراً في سبيل الله تعالى, يجد له ما يرغم أنوف أعداء الله تعالى, ويسهِّل الله تعالى له أمر الهجرة, ويرزقه من حيث لا يحتسب, فأرض الله تعالى واسعة, لا تضيق بأحد من الناس, ورزقه سابغ على العباد {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} أي ومن يخرج من وطنه, مفارقاً لقومه وأهله وأولاده, يبتغي وجه الله تعالى, ثم يموت في الطريق قبل بلوغه دارَ الهجرة, فقد ثبت له الأجر كاملاً, لأنَّ الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين. ورُوي أن رجلاً مُسنّاً يدعى (ضمرة بن القيس رضي الله تعالى عنه) لما سمع ما أنزل الله تعالى في المتخلِّفين عن الهجرة, قال لأولاده . وكان شيخاً كبيراً لا يستطيع الركوب على الراحلة .: احملوني إلى المدينة المنوَّرة, والله لا أبيت الليلة بمكة, وإني لأهتدي إلى الطريق, فحملوه على سرير, ثم خرجوا به إلى المدينة,

فمات في الطريق بالتنعيم قريباً من مكة, فقال بعض الناس: ذهب أجره لأنه لم يصل إلى مراده, فأنزل الله تعالى: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ} أخرجه البيهقي في السنن الكبرى, والطبراني في المعجم الكبير.

وهذه الآية ترغيب في الهجرة لكلِّ من لم يستطع أن يقيم شعائر الدِّين في وطنه, فيجب عليه أن يهاجر إلى بلد يستطيع أن يعبد الله تعالى فيه, دون أذى أو ضرر, فأرض الله تعالى واسعة, {وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} أي إنَّه سبحانه عظيم المغفرة, يغفر للإنسان ما فرط منه, واسع الرحمة لمن تاب وأناب.

(**83**) {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: 105].

أي نحن الذين أنزلنا عليك ـ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ هذا القرآن العظيم, ناطقاً بالحقِّ المبين, لتحكم بين الناس بما عرَّفك الله تعالى وأوحى به إليك, من إنصاف المظلوم, وإقامة العدل بين الخلق؛ ولا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين, تجادل وتدافع عنهم.

(**84**) **{وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [النساء: 106].

أي استغفر الله تعالى مما هممتَ به من الدفاع عن الخائن المنافق (طعمةَ بن أُبيرق) المتظاهر بالإيمان, (وقد ارتدَّ).

(**85**) {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا

رَّحِيمًا} [النساء: 110].

أي ومن يعمل عملاً قبيحاً يسوء به غيره, كاتِّهام إنسان بريء, أو يظلم نفسه بارتكاب جريمة من الجرائم, كالسرقة, وشهادة الزور, ثم يتوب من ذنبه توبة صادقة, يجد ربَّه عظيمَ المغفرة, واسعَ الرحمة.

(86) {وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: 111].

ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان, فقال تقدَّست أسماؤه: {وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} أي ومن يفعل جريمة من الجرائم, أو ذنباً من الذنوب, فإنما يعود ضررُ ذلك على نفسه, ولا يضرُّ غيره, إذ كلُّ نفس مرهونة بعملها, ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى, والله تعالى عليم بأعمال العباد, حكيم في تشريعه وتدبيره.

(87) {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} [النساء: 122].

أي وأمَّا المؤمنون الصادقون, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فسندخلهم حدائق وبساتين ناضرة, تجري من تحت منازلها وقصورها أنهار الجنَّة, مخلَّدين في دار النعيم, لا يخرجون منها أبداً, ومن أصدق من الله تعالى قولاً؟ والاستفهام هنا معناه النفيُ, أي لا أحد أصدق حديثاً وقولاً من ربِّ العزَّة والجلال؟ والمقصود من الآية معارضةُ مواعيد الشيطان الكاذبة لأتباعه

وأنصاره, بوعد الله تعالى الصادق لأوليائه وأحبابه.

(88) {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: 124].

أي ومن يعمل الأعمالَ الصالحة, سواء كان هذا العاملُ رجلاً أو امرأة, ذكراً أو أنثى, وهو مؤمن بالله تعالى حقَّ الإيمان, فهؤلاء المؤمنون العاملون يدخلهم الله تعالى الجنَّة, ولا يُنقَصون شيئاً ولو كان حقيراً من أعمالهم الصالحة, حتى ولو كان بمقدار النَّقير, وهي الحفرة التي في ظهر نواة التمرة, كيف لا والمجازي يوم الدِّين هو ربُّ العزة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى!.

(89) {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النساء: 125].

أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله تعالى, واستسلم لحكمه, وأخلص عمله لله جلَّ وعلا {وَهُوَ مُحْسِنٌ} أي مطيع لله تعالى, مجتنب لمحارمه, واتَّبع الدِّين الحقَّ الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام, وهو دين الإسلام, مستقيماً على منهاجه وسبيله, وقد اتَّخذ الله تعالى إبراهيم عليه السلام صفيَّاً له, اصطفاه لصدقه ومحبَّته, فجعله خليلاً, كما جعل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم حبيباً له.

(90) {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا} [النساء: 126].

أي جميع ما في الكون ملك لله عزَّ وجل, وهم خلقُه وعبيدُه, الملائكة,

والإنس, والجنُّ, وجميع المخلوقات, وهو المتصرِّف فيها, وهو محيطٌ بها, لا تخفى عليه خافية من شؤون عباده سبحانه.

(**91**) {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ...} [النساء: 173].

أي فأمَّا المؤمنون الصادقون, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فسيعطيهم ثواب أعمالهم كاملة, ويزيدهم تفضُّلاً منه بما لا عينٌ رأت, ولا أذنٌ سمعت, ولا خطر على قلب بشر.

أقول: {فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} يدخلهم الجنَّة {وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ} الشفاعة فيمن وجبت لهم النار, كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره, والطبرانيُّ في المعجم الكبير والأوسط.

(**92**) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء: 174].

خطابٌ لجميع البشر, أي لقد جاءكم . أيُّها الناس . أكبرُ حجة وأعظم برهان من ربِّ العزَّة والجلال, وهو محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم, المؤيَّد بالمعجزات الباهرة, وأعظم برهانٍ على صدق نبوَّته أنه نبيٌّ أميٌّ, جاءكم بالقرآن العظيم المعجز, فهل يُعقل لرجلٍ أميٍّ, أن يأتي بكتاب معجز يتحدَّى به جميع الخلق, وهو لا يعرف قراءةً ولا كتابةً؟

(**93**) {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [النساء: 175].

أي فأمَّا الذين صدَّقوا بوحدانيَّة الله تعالى, وتمسَّكوا بكتابه المنير, فسيدخلهم في جنَّة الخلد والنعيم, ويهديهم إلى أقوم طريق مستقيم, هو طريق السَّعادة والإيمان. اللهم اجعلنا منهم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**94**) {وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة: 9].

أي وعد الله تعالى المؤمنين الصادقين, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, بأنَّ لهم المغفرة لذنوبهم, والثواب العظيم في الجنَّة, وإذا وُصف الأجر بالعِظَم, فلا يُراد به إلَّا الجنَّة, لأنها غاية إكرام الله تعالى لعباده المتَّقين, كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت, ولا أذنٌ سمعت, ولا خطر على قلب بشر, وقال عليه الصلاة والسلام: واقرؤوا إن شئتم: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون} [السجدة: 17]) أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى.

(**95**) {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم} [المائدة: 41]. نعوذ بالله تعالى من النفاق, لنا وللمؤمنين.

الكلام عن المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر, أي لا تحزن يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, ولا تُبال بصنيع هؤلاء المنافقين, الذين

يتسابقون نحو الكفر تسابقاً, كأنهم في ميدان سباق, يريد الواحد منهم أن ينال قَصَب السَّبق؟

ثمَّ فصَّل تعالى حالهم بقوله: {مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ} أي من المنافقين الذين لم يجاوز الإيمان أفواههم, يقولون بألسنتهم: آمنَّا, وأمَّا قلوبهم فكافرة, لم تخالطها بشاشة الإيمان {وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ} هذا هو الفريق الثاني من أهل الكفر والضَّلال, وهم اليهود المحرِّفون لكلام الله تعالى, أي ولا تحزن أيضاً لهؤلاء اليهود, المبالغين في سماع الأكاذيب والأباطيل, وإشاعتها من أجل قوم آخرين, لم يحضروا مجلسك, تكبُّراً ومبالغة في العداوة, يحرِّفون كلام الله تعالى ويبدِّلونه, يقولون لإخوانهم في الكفر: إنْ أمركم محمَّد صلى الله عليه وسلم بالجلد فاقبلوا, وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا, والآية تشير إلى قصَّة اليهود, في أمر يتعلَّق بالزنى والرجم.

فقد رُوي أنَّ رجلاً من أشراف يهود خيبر, زنى بامرأة شريفة, وكانا مُحصَنَين, فكرهوا رجمهما لشرفهما, فأرسلوا إلى يهود بني قُرَيْظة أن اسألوا لنا محمَّداً صلى الله عليه وسلم عن حكم الزاني المحصَن في شريعته, فإنْ قال: حدُّه الجلدُ, فاقبلوا حكمه, وإنْ قال: الرجم فلا تقبلوا, فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, وقالوا: يا محمَّد صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أُحصِنا ـ أي كانا متزوِّجين ـ ما حدُّهما في كتابك؟ فقال: الرَّجمُ,

فأبوا أن يأخذوا بحكمه, فقال لهم عليه الصلاة والسلام: ما حكمه في التوراة؟ قالوا: الجلدُ, ونسوِّد وجههما ونفضحهما, فقال لرجلٍ من علمائهم: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام, أهكذا تجدون حقَّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا, ولولا أنَّك نشدتني بالله تعالى لم أخبرك!! نجده الرجم, ولكنه كثر في أشرافنا, فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه, وإذا أخذنا الضَّعيف أقمنا عليه الحدَّ, فقلنا: تعالوا نجتمع على أمر واحد, نقيمه على الشريف والوضيع, فاجتمعنا على التحميم . أي طلي الوجه بالسواد . والجلد, مكان الرجم, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهمَّ اشهد فإني أوَّل من أحيا أمرك بعدما أماتوه, فأمر بهما فرُجِما, وفيهم نزل: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ} يقولون: ائتوا محمَّداً صلى الله عليه وسلم فإنْ أمركم بالتحميم والجلد فخذوه, وإنْ أمركم وأفتاكم بالرجم فاحذروا... والقصَّة رواها البخاريُّ ومسلم رحمهما الله تعالى.

قال تعالى تسفيهاً لهم وتجهيلاً: {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} أي ومن أراد الله تعالى إضلاله وشقاءه, فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه؛ أولئك الأشقياء الفجَّار لم يرد الله تعالى أن يطهِّر قلوبهم من رجس الكفر والضَّلالة, ودنس العصيان والفجور, لهم في الدنيا ذلٌّ وفضيحة وهوانٌ, ولهم في الآخرة عذاب عظيم, هو الخلود في نار الجحيم.

(**96**) {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُون}

[المائدة: 50].

إنكارٌ وتعجيبٌ من حالهم وتوبيخٌ لهم, والمعنى: أيعرضون عن حكمك, ويبتغون غير حكم الله تعالى, يريدون حكم الجاهليَّة, حكم أهل السَّفه والهوى؟! ومن أعدل من الله تعالى في حكمه, وأصدق في خبره وبيانه, لقوم يوقنون بحكمة الله جلَّ وعلا وعظمته وجلاله؟!

ـ قال في المقتطف: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا} إنكارٌ لأن يكون أحدٌ حكمُه أحسنُ من حكمه تعالى, أو مساوٍ له {لِّقَوْمٍ يُوقِنُون} عند قوم يتدبَّرون الأمور, ويتحقَّقون الأشياء بأنظارهم, فيعلمون أنه لا أحسن حكماً من حكم الله سبحانه.

ومن الجهالة أن نرى ونسمع مِن بعض المسلمين في هذا العصر مَن يقول: لا ننكر الدِّين, ولكنَّا لا نريد الشريعة, وهؤلاء هم أشدُّ فساداً في دينهم وأخلاقهم من أولئك الذين نزلت الآية فيهم, فإنَّهم يرغبون عن حكم الله تعالى إلى حكم غيره, لا يعرفون شرائع الله تعالى ومحسِّناتها, فهم ينتقدون كثيراً منها لعدم موافقتها لأهوائهم, وهم في ضلال مبين(1).

(**97**) {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين} [المائدة: 83].

وإذا سمعوا آيات الله تعالى البيِّنات, الشاهدة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم, والمنزلة على الرسول صلى الله عليه وسلم, ترى أعينهم تمتلئ

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 46/2.

بالدمع حتى تفيض مدراراً, لمعرفتهم أنَّ هذا القرآن كلام الله تعالى الحقِّ {يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين} أي يقولون: يا ربَّنا صدَّقنا بنبيِّك صلى الله عليه وسلم وبكتابك, فاكتبنا مع أمة محمَّد صلى الله عليه وسلم, الذين يشهدون يوم القيامة على الأمم؛ ومرادهم اكتبنا في زمرة المؤمنين من أمة محمَّد صلى الله عليه وسلم. وما يزعمُه بعض أدعياء العلم أنَّ النصارى إخوتنا في الوطنيَّة, وهم غير كفار, وأنَّ الله تعالى مدحهم في كتابه العزيز, وأثنى عليهم لشدة مودَّتهم للمسلمين, فإنه كذب وافتراء, وسوء فهم وغباء, فهم كمن يقرأ قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّين} ويقف عندها ولا يكملها, ولو أنهم أكملوا الآية هنا لعرفوا أنها لم تنزل في النصارى عامة, وإنما نزلت في (نصارى الحبشة) خاصة, بدليل قوله سبحانه: {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين} فهل نسي المسلمون الحروب الصليبيَّة, التي خاض فيها النصارى في دماء المسلمين إلى الرُّكَب, حين دخلوا بيت المقدس؟! وهل غفلوا عما يعمله الصربُ المجرمون من إراقة دماء المسلمين في البوسنة والهرسك وكوسوفو في زماننا هذا بمنتهى الوحشيَّة والأعمال البربريَّة؟ فلينتبه المسلمون إلى هذه الفتنة العمياء التي يروِّج لها دعاة الضلال, أنَّ النصارى إخوة للمسلمين, وليسوا في العداء كاليهود.

(98) {وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِين} [المائدة: 84].

ثم قال تعالى في تتمة قصة نصارى الحبشة, وبيان سبب إيمانهم, فقال سبحانه: {وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِين} أي ما الذي يمنعنا من الإيمان, ويصدُّنا عن اتِّباع الحق, وقد ظهر لنا الحقُّ المبين؟ ومعنى الإيمان بالله تعالى: الإيمان بوحدانيَّته سبحانه على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمَّديَّة عليه الصلاة والسلام, وبالحقِّ: القرآن الكريم؛ ونحن نطمع أن يُدخلنا ربُّنا جلَّ وعلا الجنَّة في صحبة الصالحين من عباده الأبرار.

(**99**) {فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِين} [المائدة: 85].

أي أعطاهم الله تعالى وجازاهم على إيمانهم وإخلاصهم وصِدْقِهم فيما قالوا الخلدَ في جنَّات النعيم, التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة, وذلك الأجر والثواب جزاءُ من أحسن عمله, وأخلص نيَّته, وآمن بربِّه أصدق الإيمان.

(**100**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [المائدة: 105].

أي الزموا إصلاح أنفسكم, وحفظَها مما يوجبُ سخط الله تعالى وعذابَه, لا يضرُّكم ضلال من ضلَّ إذا كنتم مهتدين؛ إلى الله تعالى وحده مرجعُ الخلائق كلِّهم, فيجازيهم على أعمالهم, وهذا وعدٌ ووعيد, للمهتدين

والضالِّين, وتنبيه على أنَّ الإنسان لا يؤاخذ بجناية غيره, هذا إذا أدَّى الواجب عليه, بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وقد خطب أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ذات مرَّة, فقال: (يا أيها الناس: إنكم تقرؤون هذه الآية, وتضعونها غيرَ موضعها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ...} وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه, عمَّهم الله تعالى بعقابه) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى؛ فإذا قام المسلم بالواجب, من النُّصح والتَّذكير, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ولم يستجب له الناس, فإنه لا يتحمَّل أوزارهم, ويدلُّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مروا بالمعروف, وتناهَوا عن المنكر, فإذا رأيتم شحَّاً مطاعاً, وهوىً متَّبعاً, وإعجابَ كلِّ امرئ برأيه, فعليكم أنفسكم, لا يضرُّكم ضلالة غيركم) أخرجه الإمام الترمذي والحاكم رحمهما الله تعالى.

أقول: مع هذا لا بدَّ مهما أمكن أن لا يُهمل الأمر بالمعروف, قبِلَ أم لم يقبلْ.

(**101**) {يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب} [المائدة: 109].

أي اذكروا يا أيها الناسُ ذلك اليوم العصيب الرهيب, الذي يجمع الله تعالى فيه الرسل والخلائق, للحساب والجزاء {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُود} [هود: 3], فيسأل الرسل عليهم الصلاة والسلام: ما الذي أجابتكم به أممُكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد؟ هل استجابوا

لكم, أم رفضوا وكذَّبوا؟ قالوا: {لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب} أي لا علم لنا إلى جانب علمك يا رب, فأنت العالم بما ردُّوا به علينا, لا يخفى عليك شيء من أمور الخلق, تعلم ما ظَهَر وما بطن, قالوا ذلك على سبيل الشكوى من أقوامهم, وردُّوا العلم إليه تعالى أدباً, كأنهم يقولون: أنت العالم بما كابدناه منهم من الأهوال والأكدار.

وإذا كان الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ـ على جلالة قدرهم ـ سيُسألون يوم القيامة عمَّا حصل لهم, وما أجابتهم به أممهم, فما بالك بالخلائق وأفراد الناس؟ هل سيُتركون من السؤال والحساب, أم أنهم سيرون يوماً عصيباً تطيش له الأحلام؟.

(102) {قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [المائدة: 119].

أي يقول الله تعالى يوم القيامة مشيراً إلى صدق عيسى عليه السلام: هذا اليوم يوم العدالة الإلهي, ويوم الجزاء الأخروي, ينفع المؤمنين الصادقين فيه صدقهم, لهم بساتين وحدائق تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة, ماكثين فيها أبداً, ذلك هو الظفر والفوز الكبير.

(103) {لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [المائدة: 120].

أي لله جلَّ وعلا ملك جميع ما في الكون, وهو القادر على كلِّ شيء,

الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

اللهمَّ ارزقنا الصدق في الإيمان والعمل الصالح, ظاهراً وباطناً.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**104**) {قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: 15].

أي قل لهم: إن عبدتُ غير ربي, وسايرتكم على ما طلبتم, فإنني أخاف عذاب يوم القيامة, وهو عذاب جهنَّم الذي لا يُطاق, وفيه تيئيسٌ للمشركين مما طلبوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكذا في سورة يونس: {إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس: 15] وإني أخشى إن خالفت أمر الله تعالى, أن يعاقبني بعذاب عاجل شديد, أو يهلكني يوم القيامة بعذاب جهنَّم.

وفي سورة الزمر: {قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الزمر: 13], أي وقل لهم: إني أخاف إن عصيت أمر الله تعالى وعبدتُ غيره, أن يعذبني الله جلَّ وعلا يوم القيامة بنار جهنَّم. والمقصودُ زجر الناس عن معصية الله تعالى, فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ على جلالة قدره ـ خائفاً من عذاب الله تعالى, فغيرُه أحقُّ وأولى بالخوف.

أقول: والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو فُرض, ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم, عصمته بالله جلَّ جلاله, والمراد هو تحذير الأمة من معصية الله جلَّ وعلا, والله تبارك وتعالى أعلم بمراده.

(**105**) {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُير} [الأنعام: 17].

أي إنْ أصابك الله تعالى بشيء من البلاء, كفقرٍ أو مرض, فلا دافع ولا صارف له إلا اللهُ ربُّ العالمين, ولا يملك أحدٌ كشفَه سواه؛ وإن أصابك بخير من صحة ونعمة, ورزقٍ وعطاء, فلا يقدر أحدٌ على ردِّه؛ لأنه تعالى وحده القادرُ على النفع والضُّرِّ, لا ما يعبدون من الأصنام والأوثان.

أقول: إنَّ الضرَّ من الله تعالى ليس شرّاً في الحقيقة, بل هو تربية واختبار.

(106) {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير} [الأنعام: 18].

أي هو سبحانه الملك القهَّار, فتعالى فوق خلقه, الذي خضعت له الرقاب, وعَنَتْ له الوجوه, وذلَّت له الجبابرة, وهو الحكيم في جميع أفعاله, الخبيرُ بأعمال العباد.

أقول: وهو جلَّ وعلا عالم بظلم البشر, وقادر على الإزالة. اللهمَّ فرِّج عن المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

(107) {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُون} [الأنعام: 32].

أي ليست الدنيا وما فيها من نُضرة ومتعة ونعيم, إلا باطل وغرور يغترُّ بها الجهول, وما هي إلا كلُعَب الأطفال, يتلهى بها الصبيانُ, وعما قريب تزول؛ والآخرة وما فيها من أنواع النعيم خيرٌ وأبقى للذين يخشون ربَّهم ويخافون عقابه, لأنَّ الآخرة باقية والدنيا فانية, أفلا تعقلون ذلك لتتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان؟!

(108) {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم} [الأنعام: 54].

{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} أي إذا جاءك هؤلاء المؤمنون الفقراء, الذين آمنوا بالله تعالى وبلقائه وجزائه, فبشِّرهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمغفرة والرضوان, ودخول الجنان, وقل لهم: إنَّ ربَّكم ألزم على نفسه . بطريق التفضُّل والإحسان . الرحمةَ للمؤمنين, أن يرحمهم ويرعاهم {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم} أي إنَّه من فعل خطيئةً من دون قصد, جاهلاً عاقبةَ الذنب الوخيمة, ثم تاب عن ذلك الذنب وأناب, وأصلح سيرته وعمله, فإنَّ الله تعالى يغفر له ويرحمه, لأنَّه سبحانه واسع المغفرة, عظيم الرحمة للمنيبين.

(109) {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِين} [الأنعام: 59].

{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي عنده جلَّ وعلا خزائن علم الغيب المستورة الخفية, لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو, ويعلم ما في البرِّ والبحر من أنواع المخلوقات على اختلاف أنواعها وأجناسها وأشكالها {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ

الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي ولا تسقط ورقةٌ من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها, والمكانَ الذي سقطت فيه, ولا حبَّة في بطون الأرض إلا يعلم مكانها, وهل تنبت أم لا؟ وكم تُخرج مِن ثمرات؟ ومَنْ يأكلها؟ ولا من شيء فيه رطوبة أو جفاف, إلَّا وهو معلومٌ عند الله جلَّ وعلا, مسجَّل في اللوح المحفوظ, فأين هذا الإله القديرُ من تلك الأوثان والأصنام, التي لا تسمع ولا تنفع, ولا تدري من دعاها أو دحاها؟!

. {إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي في اللوح المحفوظ, أو في علمه الحضوري تعالى وتقدَّس. قال أولياؤنا رحمهم الله تعالى: الكتاب المبين في القرآن علمُ الله تعالى.

(**110**) {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُون} [الأنعام: 61].

أي هو جلَّ وعلا الذي قهر كلَّ شيء, وخضع وذلَّ لعظمته وكبريائه كلُّ شيء, وهو المتصرِّف في خلقه بما يشاء, ويرسل عليكم ملائكةً تحفظ أعمالكم, وهم الكرام الكاتبون, حتى إذا انتهى أجلُ الإنسان, قبضتْ روحَه الملائكةُ الموكَّلون بقبض الأرواح, وهم لا يقصِّرون في القيام بوظيفتهم في الحفظ, وفي قبض الأرواح.

(**111**) {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِين} [الأنعام: 62].

أي ثم يُردُّ العباد بعد إحيائهم إلى ملك الملوك, ربِّ الأرباب, الذي لا

يقضي إلا بالحقِّ والعدل, وهو الحاكم وحده في ذلك اليوم, وله الفصل والقضاء, لا يشغله شأن عن شأن, ولا حسابٌ عن حساب, يحاسب الخلائق بنفسه في أسرع زمان. أما الحكمة من توظيف الملائكة الحفظة على أعمال العباد, فهي أنَّ المكلف إذا علم أنَّ أعماله تكتب عليه, وتُعرض على رؤوس الأشهاد في ذلك اليوم المشهود, كان ذلك أزجرَ له عن المعاصي, وأبعدَ عن القبائح والآثام.

(**112**) {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [الأنعام: 70].

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} أي اترك هؤلاء الفجرة المجرمين, الذين اتخذوا الدِّين سخرية وهزؤاً, وخدعتهم هذه الحياة الفانية عن طاعة الله تعالى, وذكِّر بالقرآن من يَصلُح للتذكير, خشية أن تُبسَل ـ أي تُسلم ـ نفسٌ للهلاك بكفرها وسوء صنيعها, والإبسال: التَّعرُّض لما فيه هلاكٌ للنفس, كمن يلقي بنفسه إلى التهلكة, وفي ذلك الوقت ليس لهم ناصر ينجيهم من عذاب الله تعالى, ولا شفيع يشفع لهم {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: 48].

ثم ذكر تعالى كمال شقائهم فقال: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ

مِنْهَا} أي وإن تعطِ تلك النفسُ كلَّ فدية لا يُقبل منها, ولو جاءت بملء الأرض ذهباً, فلا فدية ولا شفاعة لأولئك المجرمين يوم القيامة {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُون} أي أولئك المستهزئون بدين الله تعالى, المغترُّون بالحياة الدنيا, هم المهلَكون المعذَّبون, بسبب عقائدهم الشنيعة, وأعمالهم القبيحة, ولأولئك الأشقياء شرابٌ من ماءٍ حارٍّ مغليٍّ, يجرجر في بطونهم, وتتقطع من حرارته أمعاؤهم, كما قال سبحانه: {وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُم} [محمَّد: 15], كما يُحرقون بنارٍ تشتعل في أبدانهم, جزاء كفرهم المستمر, وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

. قال في المقتطف: {وَذَكِّرْ بِهِ} أي بالقرآن, مَن يصلح للتذكير, وقد جاء مصرَّحاً به في قوله سبحانه: {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيد} [ق: 45](1).

(**113**) {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُون} [الأنعام: 82].

أي الذين تحقَّقوا في الإيمان, ولم يخلطوا إيمانهم بوثنيَّة وشرك, وعبدوا الله تعالى بإخلاص ويقين, هؤلاء لهم الأمنُ من العذاب, وهم من أهل الهداية والرشاد, لا مَنْ عداهم من أهل الضلال.

. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 131/2.

لا شريك له, ولم يشركوا به شيئاً, لهم الأمن يوم القيامة, المهتدون في الدنيا والآخرة[1].

(**114**) {... قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون} [الأنعام: 91].

أي قل لهم في الجواب: اللهُ تبارك وتعالى الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام, هو الذي أنزل القرآن على محمَّد صلى الله عليه وسلم, فمصدرُ الوحي واحد هو اللهُ ربُّ العزة والجلال, ثم اتركهم في باطلهم الذي فيه يخوضون, ويهزؤون فيه ويلعبون, وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم, وجملةُ {قُلِ اللّهُ} جملةٌ ابتدائية حُذف أحد جزئيها, أي: اللهُ تعالى أنزله, وإنما أُمِرَ الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب, للإشعار بأنهم أُفحموا ولم يقدروا على التكلُّم.

(**115**) {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ ...} [الأنعام: 94].

أي ويقال لهم توبيخاً: لقد جئتمونا للحساب والجزاء, منفردين عن الأهل والولد, على الهيئة التي ولدتم عليها, حفاةً, عراةً, غُرْلاً, وتركتم ما أعطيناكم وتفضَّلنا عليكم به في الدنيا من المال والخدم والمتاع, فلم ينفعكم شيء منها في هذا اليوم العصيب.

(**116**) {ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل} [الأنعام: 102].

---

(1) تفسير ابن كثير: 152/2.

أي ذلكم هو الله تعالى ربُّ العالمين, خالقكم ومالككم ومدبِّر أموركم, لا معبود بحقٍّ سواه, هو الخالق لجميع الكائنات, فاعبدوه ولا تعبدوا غيره, وهو الحافظ والمدبِّر لكلِّ شيء, ففوِّضوا أموركم إليه.

. {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} لا يدخل فيه ذاتُه وصفاتُه. [**أقول**: فإنَّ ذاته جلَّ وعلا قديمة, وكذلك صفاته جلَّ وعلا قديمة, لا تدخل في الحوادث], خرج بدليل العقل ذات القديم وصفاته[1].

(**117**) {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 103].

أي لا تحيط به تعالى الأبصار إحاطة معرفة وشمول, ولا تعرف حقيقة كُنهِ ذاته؛ وهو المحيط علماً بكلِّ ما في الكون؛ وهو اللطيف بعباده, الخبيرُ بأمورهم ومصالحهم.

أقول: والمراد عدم الإحاطة, لا عدم الرؤية... وانظر تفسير ابن كثير.

(**118**) {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [الأنعام: 107].

أي لو شاء الله تعالى هدايتهم لهداهم, وما كان يحدث منهم إشراك, ولكنْ ليس عندهم استعداد لقبول الإيمان, ولم نجعلك رقيباً مهيمناً على أعمالهم لتحاسبهم عليها, ولست بموكَّل على أرزاقهم وهدايتهم.

(**119**) {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ

---

(1) انظر: تفسير الإمام الغزالي قدِّس سره ص154.

يَقْتَرِفُون} [الأنعام: 120].

أي اتركوا الجرائم والمعاصي, الظاهرَ منها والخفيَّ. كان أهل الجاهلية يرون أنَّ الزنى إذا كان ظاهراً فهو إثم, وإذا كان مستتراً فلا إثم فيه, فنزلت الآية تُحرِّم الظاهر منه والخفي؛ إنَّ الذين يرتكبون الآثام والمعاصي, ويأتون ما حرَّم الله تعالى, سيلقون جزاء إجرامهم يوم القيامة.

. قال في المقتطف: أي اتركوا المعاصي ما يُعلن منها ويُسرُّ, وما بالجوارح, وما بالقلب[1].

(120) {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُون} [الأنعام: 121].

أي لا تأكلوا ممَّا ذُبح لغير الله تعالى, أو ذُكر اسم غير الله تعالى عليه, كالذي يذبح للأوثان, أو للأضرحة والقبور, فالأكل منه معصية؛ وإنَّ الشياطين يوسوسون إلى أتباعهم من المشركين لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: أتأكلون مما قتلتم, أي: ذبحتم بأيديكم, ولا تأكلون مما قتله الله تعالى. يعنون الميتة .؟ {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُون} أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام أصبحتم مثلهم, وخرجتم من ربقة الإسلام.

ـ التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك من باب التغليظ[2]. وكما قال

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 163/2.

(2) المقتطف من عيون التفاسير: 163/2.

القاضي رحمه الله تعالى: من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره, واتبعه في دينه, فقد أشرك(1).

(**121**) {وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون} [الأنعام: 126].

أي وهذا الإسلامُ الذي أنت عليه يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, هو الطريقُ المستقيم الذي لا عوج فيه, وهو سبيلُ السعادة لمن استمسك به واعتصم بحبله المتين؛ قد وضَّحنا وبيَّنا الآيات والحجج والبراهين لقوم يتذكَّرون ويتدبَّرون, ويتَّعظون بآيات الذكر الحكيم.

ـ قال في المقتطف: {وَهَذَا} الذي جاء به القرآن {صِرَاطُ رَبِّكَ} الطريق الذي ارتضاه لعباده, وذكرُ الربوبيَّة إيذان بأنَّ تقويم ذلك الصراط للتربية, وإفاضة الكمال {مُسْتَقِيمًا} أي لا عوج فيه, أو عادلاً مطَّرداً, فاستمسك به {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ} بيَّنَّاها مفصلة {لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون} يتذكَّرون ما في تضاعيفها, فيعلمون أنَّ كلَّ ما يحدث في الحوادث, خيراً كان أو شراً, فإنما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه, وأنَّه تعالى عالم بأفعال العباد, حكيم عادل فيما يفعل ويريد, وتخصيص القوم بالذكر لأنهم هم المنتفعون(2).

(**122**) {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُون} [الأنعام: 127].

---

(1) حاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي: 304/2.

(2) المقتطف من عيون التفاسير: 168/2.

أي لهـؤلاء المـؤمنين المتَّقـين المنتفعـين بـالمواعظ والآيـات الزاجـرة, دارُ السـلامة مـن المكـاره والفواجـع, وهـي الجنَّـة الـتي أعـدَّها الله تعـالى لعبـاده الصالحين, التي (فيها ما لا عين رأت, ولا أذنٌ سمعت, ولا خَطَر على قلب بشر)؛ وهو تعالى وليُّهم وناصرهم في الدنيا والآخرة جزاء عملهم الصالح.

ـ قـال في المقتطـف: {لَهُـمْ} أي للمتـذكِّرين {دَارُ السَّـلاَمِ} أي دار الله تعالى, أضاف الجنَّة إلى نفسه تعظيماً لها, أو دار السلامة من المكاره {عِندَ رَبِّهِمْ} أي ذخيرة لهم عنده, لا يعلم كُنْهها غيره جلَّ وعلا {وَهُوَ وَلِيُّهُمْ} أي مـولاهم وناصرهم {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُون} بسبب أعمـالهم الصـالحة الـتي كـانوا يتقرَّبون بها إليه في الدنيا[1].

(**123**) {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون} [الأنعام: 129].

أي كما مكَّنَّا الجنَّ من إغواءِ الإنس, كذلك نسلِّط بعض الظالمين على بعض, بسبب اقترافهم للذنوب والمعاصي, وهذه من سنن الله تعالى الكونية, أنَّ الناس إذا كانوا ظالمين, سلَّط الله جلَّ وعـلا عليهم حاكمـاً ظالمـاً, وكمـا يكون الخلقُ يولَّ عليهم, وفي بعض الآثار القدسية: (إني أنا الله مالكُ الملوك, قلوبُ الملوك بيدي, فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة, ومن عصاني جعلتهم عليهم نقمة) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه, والطبراني في المعجم الأوسط, عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه.

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 168/2.

. وفي الحديث: (من أعان ظالماً سلَّطه الله عليه) من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه, أخرجه ابن عساكر والديلمي.

(**124**) {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُون} [الأنعام: 148].

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} بيان لفنٍّ آخر من باطل المشركين وضلالهم, فقد زعموا أنَّ ما هم عليه من الكفر والإشراك, واقع بمشيئة الله تعالى, فهم إذاً معذورون عند الله تعالى, ولو شاء الله تعالى ما أشركوا, ولا حرَّموا شيئاً أحلَّه الله تعالى, لا هم ولا آباؤهم الذين سبقوهم. وغرضهم أن يتعلَّلوا بالقضاء والقدر لدفع المسؤولية عنهم, وهذه نزعة جبريَّة شيطانيَّة, يحتجُّ بها السفهاء عندما تقرعهم بالحجة, كما يقول المجرم والعاصي والمرتكب لأنواع القبائح والمنكرات: هذا قَدَرُ الله تعالى, لا مهربَ ولا مفرَّ منه!

وقد ردَّ الله تعالى عليهم هذا الباطل والبهتان بقوله: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُون} أي كما افترى هؤلاء المشركون الكذب على الله تعالى, كذلك افترى مَنْ سبقهم من الأمم الكذب, كذَّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم, حتى ذاقوا عذابنا الشديد, وهو (عذاب الاستئصال)

الذي لم يفلت منه أحد, قل لهم يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم: هل عندكم حجة أو برهان على صدق قولكم فتظهروه لنا؟ ما تتبعون في هذه الدعوى إلا الظنون والأوهام, وما أنتم إلا قوم فجرة كذبة, تكذبون على الله جلَّ وعلا. ردَّ الله تعالى مزاعمهم الباطلة من وجهين:

الأول: أن هذه المقالة هي مقالة من سبقهم من الفجرة المكذِّبين بآيات الله تعالى.

الثاني: أنهم كذبوا على الله تعالى, وخلطوا صدقاً بكذب. نعم إنَّ أفعال البشر واقعةٌ بقضاء وقدر, هذا حقٌّ لا يخالف فيه مؤمن, ولكنْ من أين لهم علمٌ بأنَّ الله تعالى قدَّر عليهم هذه القبائح والمعاصي؟ هل اطَّلعوا على اللوح المحفوظ, فرأوا بأمِّ أعينهم أنَّ الله تعالى كتب عليهم الضلال والشقاء, فسارعوا إلى تنفيذ قضاء الله تعالى, حتى يكونوا مطيعين؟ ومَن الذي أخبرهم أنَّ الله تعالى إذا كان يعلم كفرهم وعصيانهم, أنَّه يقبل ذلك منهم ويرضى عنهم؟ إنَّ قضاء الله تعالى تابعٌ لعلمه, وعلمُه تعالى لا يدلُّ على الرضا, كما إذا علم السلطانُ خروج بعض الجنود, وقيامهم بثورةٍ ضدَّ حكمه, فهل هذا العلم يكون عذراً لهم بالخروج على حكمه, ومخالفة النظام والقانون؟

هذا مَثَلٌ. ولله المثل الأعلى. فالله سبحانه يعلم كفر الكافر, وعصيان العاصي, وقد سُجِّل هذا العلمُ في اللوح المحفوظ, وعلمُه سبحانه ليس فيه حجة أبداً للإنسان؛ لأنَّ الله تعالى يحبُّ الطاعة ويكره العصيان, ولهذا ختم الموضوع بقوله سبحانه وتعالى:

(**125**) {قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 149].

أي قلْ لهم: لقد قامت حجةُ الله تعالى البيِّنة الواضحة على العباد في أمر التكليف, فلم يبق لأحد حجَّة, ولو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين, ولكنَّه تعالى ترك للعباد أمر الاختيار للإيمان أو الكفر, ليَتِمَّ التكليفُ {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: 29], ولا إكراه لأحدٍ على طاعةٍ أو عصيان.

. قال في المقتطف: {فَلَوْ شَاء} هدايتَكم {لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} بالتوفيق لها, والحمل عليها, ولكن شاء أن يترك للعباد أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتمَّ التكليف[1].

أقول: والقول بالإيمان الجبري . شاء أم أبى . لا يقبل؛ لأنَّ ذلك يُبطل الحكمة المطلوبة من التكليف.

(**126**) {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: 151].

جاءت الآيات الكريمة تبيِّن للناس الدِّينَ الحقَّ, الذي لا عوج فيه ولا انحرافَ, فما كانت شريعة الإسلام لتحرِّم على الناس الطيِّبات, ولا لتمنعهم

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 183/2.

عن لذائذ الحياة, إنما جاءت لتُبعدهم عن المحرَّمات والخبائث الضارَّة, التي تؤذيهم في أبدانهم وعقولهم, سواء منها ما كان من الأمور العقديَّة, أو العمليَّة, في العبادات, والمعاملات, والأخلاق, ولهذا جاءت الآيات الكريمة **بالوصايا العشر** التي اتفقت عليها جميع الشرائع والأديان السماوية, وفي ذلك يقول تقدَّست أسماؤه:

{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} أي قل: تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم, باليقين لا بالظن والتخمين:

فالوصية الأولى: {أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا} أي لا تشركوا مع الله تعالى أحداً, لا بشراً ولا حجراً؛ وبدأ بأمر الشرك لأنه أعظمُ المحرَّمات, وأكبر الكبائر.

الوصية الثانية: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} أي أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً, لا تقصير فيه ولا إساءة, والحكمة من ذكر الإحسان, دون قوله: ولا تسيئوا إلى الوالدين, هي المبالغةُ في حسن المعاملة, والدلالة على أنَّ ترك الإساءة إليهما غيرُ كاف في قضاء حقوقهما.

الوصية الثالثة: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} الإملاقُ: الفقر, أي لا تقتلوا أولادكم خشية الفقر, فرزقُهم ليس عليكم, وإنَّما رزقكم ورزقهم علينا, فلا تخافوا الفقر من وجود العيال, فإنَّ الله تعالى هو الرازق للعباد.

الوصية الرابعة: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} أي ولا

تقربوا المنكرات والفواحش كالزنى, وشرب الخمر, والربا, وغيرها من الذنوب المهلكة, سواء ما كان منها يُفعل بالعلانية, أو بالسرِّ والخفاء. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرِّ, ويستقبحونه في العلانية, فحرَّمه الله تعالى في السرِّ والعلانية). وقد نهت الآية عن جميع المنكرات والفواحش, الظاهر منها والخفي, ليظلَّ المسلم بعيداً عن هذه القاذورات التي تلوِّث عرضه.

الوصية الخامسة: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} وهي تحريم سفك دم المسلم, اللهمَّ إلا أن يكون القتل بحقٍّ, كالارتداد عن الإسلام, أو بالقصاص بأنْ قتل شخصاً فيُقتل به, أو برجم المحصَن.

ولما كانت الأمور المنهيُّ عنها مما يدرك الإنسان قبحَها بعقله, ختمت الآية الكريمة بقوله سبحانه: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون} أي تستعملون عقولكم التي تصرفها عن مباشرة القبائح المحرمة.

(**127**) {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون} [الأنعام: 152].

الوصية السادسة: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} وهي تحريم أكل مال اليتيم, والأمر بالمحافظة عليه حتى يبلغ سنَّ الرشد والتكليف, فيسلَّم إليه مالُه.

أما الوصية السابعة: {وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} فهي النهي عن البخس في المكيال والميزان, ومعنى القسط: العدل, أي العدل في الأخذ والعطاء, فإنَّ نقصَ المكيال والميزان ظلمٌ, والظلم ظلماتٌ يوم القيامة {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُون * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُون} [المطففين: 3.1] أي يُنقصون الوزن.

الوصية الثامنة: {لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} أي هذه التكاليف في وُسْع الإنسان وطاقته, فلا نكلِّف أحداً من عبادنا إلا بما هو في وُسعه, وبما لا يعسر عليه.

الوصية التاسعة: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} أي وإذا حكمتم فاعدلوا في حكومتكم وشهادتكم, ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم, وهذا أمرٌ بالعدل بين جميع طوائف البشر, بقطع النظر عن أجناسهم وأديانهم, فالعدلُ أساسُ الملك, وهو واجبٌ في الأقوال, كما هو واجب في الأفعال, لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس, فهو ركنُ العمران, وقُطب رحى الإسلام.

الوصية العاشرة: {وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ} أي أوفوا بكلِّ عهدٍ عاهدتم به اللهَ تعالى, أو عاهدتم به الناس, فالوفاء بالعهد سمةُ أهل الإيمان.

{ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون} أي ذلكم هو أمر الله تعالى ووصيته إليكم, أمركم به أمراً مؤكداً, لتتَّعظوا وتسيروا على مقتضاه. وهذه الوصايا العشر, مما لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار, وهنَّ محرَّمات على

بني آدم جميعاً, ولهذا أكَّدها في هذه السورة الكريمة, وكرَّر فيها لفظ الوصية, ليستمسك بها المسلمون, ولا يغفلوا عنها في حياتهم الاجتماعية, فهي وصايا ربانيَّة, وتوجيهاتٌ قدسيَّة سماويَّة.

وقد ذُكرت هذه الوصايا في التوراة بالنص الآتي: وأوَّلها: (أنا الربُّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر, من بيت العبودية, لا يكن لك إلهٌ غيري, أكرمْ أباك وأمك, ليطول عمرك في الأرض, لا تقتل, لا تزن, لا تسرق, لا تشهد شهادة زور, لا تشته بنت قريبك, ولا عبدَه ولا أمَتَه, ولا ثوره ولا حماره, ولا شيئاً مما لقريبك), ولليهود عناية عظيمة بهذه الوصايا, ولكنَّهم لا يطبِّقونها, وقد كتبها أهل الإنجيل في أول إنجيلهم.

(128) {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون} [الأنعام: 153].

أي وأنَّ دين الإسلام هو دينُ الله تعالى المستقيم, الذي لا يقبل الله تعالى ديناً سواه بعد بعثة خاتم النبيين, فاستمسكوا به, ولا تتَّبعوا الأديان المختلفة, والطرق الملتوية, فتتفرَّق بكم عن سبيل الهدى والسعادة؛ ذلكم وصاكم به ربُّكم جلَّ وعلا لتتَّقوا نار جهنَّم بامتثال أوامره, واجتناب نواهيه.

ولما كانت المحرَّمات الأولى لا يقع بها عاقل, جاءت العبارة بقوله: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون}.

ولما كانت المحرَّمات الأخرى شهوات, وقد يقع فيها من لم يتذكَّر ويتَّعظ جاءت العبارة بقوله: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون}.

ولما كان السير في طريق الفضيلة والاستقامة, يحتاج لمقاومةٍ للنفس, وجهادٍ لها لتستقيم على شرع الله تعالى ودينه, جاءت العبارة بقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون}, فتدبَّر أسرار بدائع القرآن!

وفي الحديث: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان ذات يوم مع أصحابه, فخطَّ خطاً بيده صلى الله عليه وسلم ثم قال: (هذا سبيلُ الله تعالى), ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله, ثم قال: (هذه السُّبُل, ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطان يدعو إليه) ثم قرأ: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...} الآية. رواه الإمام أحمد والنسائي رحمهما الله تعالى.

أقول: يعني من العرش إلى الفرش مرتبط بالقرآن.

(**129**) {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون} [الأنعام: 155].

أي وهذا القرآنُ الذي أنزلناه عليك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم كتابٌ عظيم الشأن, كثير المنافع, مشتملٌ على أنواع الفوائد الدِّينية والدنيوية, فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم, واحذروا أن تخالفوه, لتنالوا رحمة ربكم.

(**130**) {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُون} [الأنعام: 159].

{وَكَانُواْ شِيَعًا} أي أحزاباً متفرِّقة في الدِّين.

نزلت في اليهود والنصارى كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما [**أقول**: وهذا قبل البعثة], وليست في الأئمة المجتهدين الذين اختلفوا في فروع

الدين, كما فهم ذلك بعض الجاهلين, فالاختلاف في الفروع رحمة, وفي الأصول بلاءٌ ونقمة.

والمعنى: إنَّ أهل الكتاب الذين فرَّقوا الدين, فأصبحوا شِيَعاً وأحزاباً, كلُّ فرقة تعادي الأخرى وتكفِّرها, أنت يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بريء منهم, والله تعالى وحده يتولَّى جزاءهم يوم القيامة, ويجازيهم على إجرامهم في الدنيا.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: هم اليهود والنصارى, تفرَّقوا فِرَقاً, وكفَّر بعضهم بعضاً, وأخذوا من الدين بعضاً وتركوا بعضاً, فهم أهلُ البِدَع والشُّبُهات, لم يعبدوا الله تعالى, وإنَّما عبدوا الأهواء.

أخرج الإمام أبو داود والترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: (إنَّ بني إسرائيل تفرَّقت على اثنتين وسبعين ملَّة, وتفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين ملَّة, كلُّهم في النار إلا ملَّة واحدة), قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي).

قال المفسِّر الخازن رحمه الله تعالى: فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحثَّ على أن تكون كلمةُ المسلمين واحدةً, وأن لا يتفرَّقوا في الدِّين, وأن لا يبتدعوا البِدَع المضِلَّة في الدِّين.

أقول: السياسة حبل الشياطين, كما قال أولياؤنا: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة, مَنْ تحرَّك بالسياسة, لو كان موافقاً للكتاب والسنَّة والإيمان والعمل الصالح, تنظر إلى واحد من مخالفيه, ما دام لم يكن من حزبه

لا يقبلُ منه, وإذا كان واحد من حزبه ضدَّ هذا الرجل, فإنَّه يرجِّحه على هذا الرجل الصالح, ولو كان الذي من حزبه مخالفاً, هذه هي شؤون السياسة, شؤون الاختلاف, شؤون البدع, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلُّ بدعة ضلالة, وكلُّ ضلالة في النار) أخرجه النسائي وابن خزيمة رحمهما الله تعالى؛ الوضع الحالي يدلُّ على صدق الآية الكريمة.

(**131**) {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون} [الأنعام: 160].

المراد بالحسنة هنا: الإيمانُ والعمل الصالح, وبالسيِّئة المعاصي والذنوب, أي من جاء بالحسنة من المؤمنين . إذْ لا حسنةَ بغير إيمان . نضاعفها له إلى عشر حسنات أمثالها, تفضُّلاً من الله تعالى وكرماً, ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة, وهم لا يُنقَصون من أجر أعمالهم شيئاً, فالزيادة في الحسنات من باب الفضل, والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل؛ وفي الحديث القدسي: (يقول الله عزَّ وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيدُ, ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئةٍ مثلُها أو أغفرُ) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**132**) {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم} [الأنعام: 165].

أي هو جلَّ وعلا جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة, يخلف

بعضكم بعضاً, كلما مضى جيل أتى جيل آخر؛ ورفع بعضكم فوق بعض في الغنى والفقر, والعلم والجهل, والقوة والضعف, فأغنى بعضكم وأفقر البعض, ليمتحنكم ويختبركم فيما منحكم من الرزق, هل تشكرون ربكم على نعمه أم تكفرون؟ وهل تنفقون في سبيله أم تبخلون؟ فالرزق والمال فتنة, وقليلٌ من العباد الشكور {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم} أي إنَّ ربَّك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم سريع العقاب لمن خالف أمره وعصاه, وواسع المغفرة والرحمة لمن أطاعه واتَّقاه.. جمع الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين الخوف والرجاء, وعنصري الترهيب والترغيب, وما ألطف افتتاح هذه السورة الكريمة بالحمد, وخَتْمها بالمغفرة والرحمة!.

. اعلم أنَّ في قوله تعالى: {جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ} وجوهاً:

أحدها: جعلكم خلائف الأرض لأنَّ محمَّداً عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين, فخلفت أمَّتُه سائر الأمم.

وثانيها: جعلهم يخلف بعضهم بعضاً.

وثالثها: أنهم خلفاء الله تعالى في أرضه, يملكونها ويتصرَّفون فيها(1).

أقول: وتفكَّر في هذه الآية, وما أنعم الله تعالى عليك من الإيمان والقرآن والعقل, وإنْ تعدُّوا نعمة الله تعالى لا تحصوها؛ هذا تهديد وترغيب وابتلاء لك...

---

(1) تفسير الفخر الرازي: 15/14.

**   **   **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**133**) {المص} [الأعراف: 1].

تُكتب هكذا, وتُقرأ الحروفُ مقطَّعة: (ألف, لام, ميم, صاد), وقد تقدَّم في أول سورة البقرة أنَّ الحكمة من ابتداء بعض السور بالحروف الهجائية المقطَّعة, هو لفتُ أنظار البشر إلى ما يسمعون, والتنبيه على (إعجاز القرآن), وأنَّ هذا الكتابَ المعجزَ منظومٌ ومركَّب من أمثال هذه الحروف المقطَّعة, ومع ذلك فقد تحدَّاهم القرآن بأنْ يأتوا بمثل سورةٍ منه, فعجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله, وهذا أعظم شاهد على أن القرآن كلام الرحمن جلَّ ثناؤه, وهذا القول هو الذي اختاره المحقِّقون من المفسِّرين.

(**134**) {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين} [الأعراف: 2].

أي هذا القرآنُ كتابٌ عظيم الشأن, أنزله عليك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ربُّ العزة والجلال, برهاناً ناطقاً على صدق رسالتك, ومعجزةً ساطعة تشهد بجلال الوحي المنزَّل عليك, فلا يكن في صدرك ضيقٌ من تبليغه للناس مخافة أن يكذبوك, لتنذر به أهل الشرك والضلال, وتذكِّر به أهل اليقين والإيمان, المنتفعين بآيات الذكر الحكيم.

ثم دعا الله تعالى البشرَ إلى اتباع هذا الوحي الإلهي, المنزل لسعادة الخلق فقال:

(**135**) {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون} [الأعراف: 3].

أي اتبعوا أيها الناسُ القرآنَ العظيمَ المنزَّل إليكم من ربِّكم جلَّ وعلا, ففيه النور والضياءُ, والهدى والشفاء, ولا تعبدوا الأصنام والأوثان من دون الرحمن, ولا تطيعوا أمر الكُهَّان والرهبان, فتَزيغوا وتضلُّوا, وما يتَّعظ منكم إلا القليل.

(**136**) {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} [الأعراف: 8].

أي توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة بالميزان العادل, فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فهو الناجي من العذاب, الفائز بالجنَّة والثواب.

(**137**) **{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم}** [الأعراف: 16].

أي قال إبليس: فبسبب ما أضللتني يا ربِّ وطردتني من السموات ومن رحمتك, فأقسم بعزَّتك لأقعدنَّ لآدم وذريَّتِه على طريق الحق, كما يقعد قطَّاع الطريق للمسافرين, لأصدَّهم عن دينك.

(**138**) {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين} [الأعراف: 17].

أي ثم لآتينَّهم من جميع الجهات, عن اليمين والشمال, والأمام

والخلف, ولا تجد أكثر الخلق مطيعين, شاكرين لنعمائك. ذكر الجهات الأربعَ لأنها هي التي يكون هجومُ العدوِّ منها. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم, لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى.

(**139**) {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: 31].

أي يا أبناء آدم عليه السلام: البَسوا أفخر ثيابكم وأجملها وأطهرها عند كلِّ صلاة وطواف, ولا تسرفوا في الأكل والشرب واللباس, مما يضرُّ بالنفس أو بالمال؛ لأنه سبحانه لا يحبُّ المجاوزين حدودَ الله تعالى فيما أحلَّ لهم وحرَّم.

ـ قال في المقتطف: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} أي لا يرضى فعلهم, ولا يحبُّ طريقتهم, وهذا وعيد شديد لمن أسرف(1).

(**140**) {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: 34].

أي ولكلِّ أمةٍ كذَّبت رسولَها مدةٌ مضروبة لهلاكها, فإذا جاء وقتُ هلاكها المقدَّر لها, لا يتأخر عنها برهةً من الزمان ولا يتقدَّم, كما أنَّ البشر يهلكون إذا كَثُرت فيهم المعاصي, وانتهكوا محارم الله تعالى, كما في حديث أم المؤمنين زينب رضي الله تعالى عنها, حين سألت الرسولَ صلى الله عليه

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 213/2.

وسلم فقالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم, إذا كَثُر الخَبَثُ) أي إذا كثر الفسوقُ والفجور, والحديث أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**141**) {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون} [الأعراف: 35].

الخطاب لكافَّة البشر, تكريماً لهم, واعتناء بشأنهم, أي يا معشر الناس, إنْ جاءكم رُسُلي الذين بعثتهم لهدايتكم, يبيِّنون لكم الأحكامَ والشرائع, ويرشدونكم إلى طريق الإيمان والجنَّة, فمن آمن منكم واتَّقى ربه فلا خوف عليهم في الآخرة ممَّا يلحق العصاة والمجرمين, ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

. قال في المقتطف: {يَا بَنِي آدَمَ} تلوين للخطاب, وتوجيه له إلى كافة الناس, اهتماماً بشأن البشر {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} أي إنْ جاءكم رسل كائنون من جنسكم, لأنهم إذا كانوا من جنسهم كان أقطعَ لعذرهم, لأنهم يعرفونه وأحواله {يَقُصُّونَ} أي يبيِّنون {عَلَيْكُمْ آيَاتِي} أحكامي وشرائعي, ويخبرونكم بها.

{فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون} أي فمن اتَّقى منكم الشرك والتكذيب, وأصلح عمله, فلا خوف عليهم في الآخرة, ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا(1).

(**142**) {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 216/2.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [الأعراف: 42].

أي وأمَّا المؤمنون الأبرار, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فإنهم أهلُ الجنَّة وسُكَّانها الذين لا يبغون عنها حِوَلاً, وهم مخلَّدون فيها إلى ما لا نهاية, وجملةُ {لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} جملة اعتراضيَّة بين المبتدأ والخبر, أي لا نكلِّف أحداً بما لا يُطيق, وبما ليس في وُسعه, بل كلُّ التكاليف في مقدور الإنسان وطاقته, جيء بها لتنبيه الكفار على أنَّ هذا النعيم العظيم الذي ناله المؤمنون, يمكن الوصول إليه بكلِّ يُسرٍ وسهولة, فلو كان لهم عقل لآثروا الإيمان والطاعة على الكفر والمعصية, فبالعمل القليل نال المؤمنون الجزاء الكبير.

(143) {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [الأعراف: 43].

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} أي طهَّرنا قلوبهم من الشحناء والبغضاء, فليس بينهم إلا المودَّةُ والإخاء؛ لأنَّ الجنَّة دار الطُّهر, ولا يدخلها إلا طاهرٌ مطهَّر, وفي الحديث: (إذا خَلَص المؤمنون من النار, حُبسوا بقنطرة بين الجنَّة والنار, فيتقاصُّون مظالمَ كانت بينهم في الدنيا, حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا, أُذن لهم بدخول الجنَّة, فوالذي نفسُ محمَّد صلى الله عليه وسلم بيده, لأحدُهم بمسكنه في الجنَّة أدلُّ بمنزله كان في الدنيا) رواه

الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

{تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} أي تجري من تحت قصورهم ومساكنهم أنهارُ الجنَّة, زيادةً في تكريمهم وسرورهم.

{وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ} أي ويقولون اعترافاً بفضل الله تعالى عليهم: الحمد لله الذي هدانا للإيمان والعمل الصالح, لننال هذا النعيم الخالد العظيم, ولولا هدايةُ الله تعالى وتوفيقُه, لما وصلنا إلى هذه السعادة.

{لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي يقولون: واللهِ لقد جاءتنا الرسل عليهم الصلاة والسلام بالدِّين الحق, فاهتدينا إلى الإيمان بإرشادهم وهدايتهم, وتناديهم الملائكة عليهم السلام: هذه الجنَّة التي وعدكم الله تعالى بها, لقد صارت لكم إرثاً وملكاً, بسبب إيمانكم وعملكم الصالح, فهنيئاً لكم بهذا الأجر العظيم.

وينبغي أنْ نعلم أنَّ دخول الجنَّة بمحضِ الفضل الإلهي, وتقاسم درجاتها ومنازلها بالعمل الصالح, فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنةَ) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا, إلا أنْ يتغمَّدني الله تعالى منه بفضل ورحمة) رواه البخاري ومسلم.

. قال في المقتطف: وهذا القول من أهل الجنَّة لإظهار السرور بما نالوا, والتلذُّذ بالتكلُّم به, لا للتعبُّد, فإنَّ الدارَ ليست دارَ تكليف, بل هي دار

تشريف[1].

ثم يأتي الحديث عن المحاورة والمناظرة بين أهل الجنَّة والنار, بعد أنْ يستقرَّ أهلُ الجنَّة في الجنَّة, وأهلُ النار في النار, فيقول سبحانه:

(**144**) {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِين} [الأعراف: 44].

عبَّر عن المستقبل بالماضي لتحقُّق وقوعه فقال سبحانه: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا}, أي ينادي أهلُ الجنَّة أهلَ النار, تحدُّثاً بنعمة الله تعالى, وشماتةً بأعداء الله سبحانه, يقولون لهم: إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا جلَّ وعلا على ألسنةِ رسله عليهم الصلاة والسلام حقاً, حيث نلنا هذه الكرامة والنعمة العظمى, فهل وجدتم ما وعد ربُّكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً؟

{قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِين} أي قال أهل النار مجيبين النداء: نعم لقد وجدنا ذلك حقاً, وينطلق صوتٌ علويٌّ قدسيٌّ من الملائكة عليهم السلام, يسمعه كلُّ واحد من أهل الجنَّة وأهل النار: أنْ لعنةُ الله على كلِّ ظالم, كافر, فاجر.

(**145**) {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 221/2.

وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِين}
[الأعراف: 54].

أي إنَّ خالقكم ومالككم أيُّها الناس, هو اللهُ تعالى ربُّ العالمين, المتفرِّدُ بالعظمة والجلال, خلق السموات والأرض في مقدار ستَّة أيام من أيام الدنيا, ولو شاء لخلقها في لحظة, ولكنَّه أراد أن يعلِّمكم عدم التسرُّع في أموركم, ثم استوى على العرش المجيد, استواءً يليق بجلاله, بلا تشبيهٍ ولا تعطيل {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} أي يجعل سبحانه ظلمة الليل تغطِّي نورَ النهار, فتُذهِب ضياءه, لراحة الناس وهدوئهم, يطلبه طلباً سريعاً, والتعبيرُ في غاية الروعة والبيان, كأنَّهما في ميدان سباق, يلحق أحدُهما الآخر بأقصى السرعة, ليلحقه حتى يدركه, ويذهب نوره وضياءه.

كما سخَّر لعباده هذه الأجرام العظيمة (الشمس, والقمر, والكواكب) تتحرَّك وتجري بأمره سبحانه وتدبيره, لمعرفة الفصول, والسنين, والأوقات, كما قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس: 5], فبالشمس تُعرف الأيامُ, وبالقمر تُعرف الشهور والأعوام {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِين} أي له جلَّ وعلا الملكُ والتصرُّف التامُّ, في الخلق والرزق, والإيجاد والإعدام, فهو الموجِد لكلِّ شيء, والمتصرِّف في كلِّ شيء, لا خالقَ ولا مالك ولا متصرِّف في الكون غيرُه, تمجَّد وتعظَّم الخالقُ المبدعُ الحكيمُ سبحانه وتعالى!.

. {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ} الواحد الأحد, الفرد الصمد, القادر المقتدر {الَّذِي خَلَقَ} أظهر وأوجد {السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} وما بينهما من كتم العدم بمدِّ أظلال أوصافه وأسمائه عليها, وبرشِّ رشحات ماء الحياة المترشِّحة من بحر الوجود إياها {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} أوقات تارات ودفعات ليشير بها إلى إحاطتها بالجهات كلِّها {ثُمَّ اسْتَوَى} واستولى {عَلَى الْعَرْشِ} أي على عروش عموم المظاهر والمكوَّنات الكائنة في الأقطار والآفاق, منزَّهاً عن جميع الحدود والجهات, وكذا عن الاستواء والاستقرار والتمكُّن مطلقاً, ورتب أمور المكوَّنات على حركات الأفلاك بحيث {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} أي يغطي ويستر بالليل وجه النهار, مع أنَّ النهار {يَطْلُبُهُ ح} ويعقبه {ثِيثًا} سريعاً؛ {وَ} بالجملة قد جعل {الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} وحكمه, يتحرَّكن حيث أمرها الحق سبحانه.

{أَلاَ لَهُ} سبحانه, وفي قبضة قدرته, وتحت حكمه وإرادته {الْخَلْقُ} أي عموم الإيجاد والإظهار {وَالأَمْرُ} أي مطلق التدبير والتصرف بالاستقلال والاختيار {تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي تعاظم وتعالى في ألوهيته عن أن تدركه العقول والأفهام, وفي ربوبيَّته عن المظاهرة والمشاركة بالأمثال والأشباه مطلقاً. الجيلاني قُدِّس سرُّه.

(**146**) {... وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56].

وادعوا ربكم جلَّ وعلا خوفاً من عقابه, وطمعاً في ثوابه, إنَّ رحمته تعالى

تغشى المطيعين أهلَ الإحسان والصلاح.

(**147**) {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157].

أي يتبعون خاتمَ الأنبياء والمرسلين (محمَّد بن عبد الله) عليه الصلاة والسلام النبيَّ العربيَّ الأميَّ, الذي لا يقرأ ولا يكتب, وصفَه تعالى بالأميَّة, لتظهر المعجزةُ فيه على أكمل الوجوه, وهي صفة مدح, فإنه لم يخطَّ حرفاً, ولم يقرأ كتاباً, ثم أتاهم بهذا الكتاب المعجِز من عند الله تعالى, وأوصافه مذكورة في التوراة والإنجيل, ورسالته تتلخَّص في الأمر بكلِّ شيء مستحسن, والنهي عن كلِّ شيء قبيح, ويحلُّ لهم اللذائذ, ويحرِّم عليهم الخبائث, كالخنزير, والعقارب, والخنافس, وسائر المستقذرات

{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} أي يرفع عنهم التكاليف الشاقَّة التي تشبه الأغلال, كقتل النفس في التوبة, وقطع الثوب من أثر البول, ووجوب القصاص دون الدِّية في القتل, وأمثالِ ذلك مما فيه عناء ومشقة, وقد جاءت الشريعة الإسلامية برفع جميع تلك الأثقال, كما قال صلى الله عليه وسلم: (بُعثتُ بالحنيفيَّة السمحة) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند.

{فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي فالذين صدَّقوه وآمنوا برسالته, وعزَّروه أي عظَّموه ووقَّروه, وقاموا بنصرته على جميع من عاداه, واتبعوا القرآن المجيد, والشرع الإسلامي الحنيف, الذي جاءهم به من عند الله تعالى, هؤلاء هم السعداء الفائزون بكلِّ محبوب, الناجون من شدائد وأهوال يوم القيامة.

. وفي المقتطف: {وَعَزَّرُوهُ} أي عظَّموه ووقَّروه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم.

{إِصْرَهُمْ} الإصْرُ: الثقل, والمراد به التكاليف الشاقَّة الصعبة.

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الفاضلة هم الفائزون بالرحمة الأبديَّة, الناجون من الشدائد والكربات يوم القيامة. ومعنى الفلاح: النجاح والفوز بالمحبوب[1].

(**148**) {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف: 170].

أي والذين يستمسكون بكتاب الله تعالى, ويلتزمون بأحكامه, ويحافظون على أداء الصلاة بأركانها وآدابها, فلن نضيع لهم أجرهم لتقواهم وصلاحهم.

. وفي المقتطف: قال عطاء رحمه الله تعالى: هم أمة محمَّد صلى الله عليه

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 282/2.

وسلم, والكتاب: القرآن الجليل(1).

(**149**) {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين} [الأعراف: 175].

هذه قصة رجل من علماء بني إسرائيل, يدعى (بلعم بن باعورا) بعثه موسى عليه السلام إلى ملك (مَدْين) داعياً إلى الله تعالى, فرشاه الملك وقرَّبه منه, وأغدق عليه المال على أن يترك دين موسى عليه السلام, ويتابع المِلِكَ على دينه ففعل, فزاغ وضلَّ, وأضلَّ كثيراً من الناس بسوء صنيعه.

والمعنى: اقرأ يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم على اليهود وعلى سائر البشر, قصة ذلك العالِم الخاسر, الذي أوتي علماً ببعض كتاب الله تعالى في التوراة, فانسلخ من تلك الآيات انسلاخ الجلد عن الشاة, بأنْ كفر بالآيات, ونبذها وراء ظهره, فلحقه الشيطان حتى صار قريناً له, فصار من زمرة الضالين الراسخين في الضلال.

والتعبيرُ عن ذلك بالانسلاخ {انسَلَخَ مِنْهَا} للإشارة إلى أنَّ الإيمان كان طِلاءً, لم يخالط بشاشةَ قلبه, فانسلخ من الإيمان كما تنسلخ الحية من جلدها, ولو تمكَّن الإيمان من قلبه لما حصل ذلك.

وفي التعبير أيضاً بقوله: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} فيه تلويحٌ بأنَّه كان أشدَّ من الشيطان غواية, إذ صار كأنَّه إمام للشيطان, والشيطانُ تلميذ يتبعه ويلحقه, كما قال بعض غلاة الضلالة:

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 292/2.

وكنتُ فتىً من جُنْدِ إبليس فارتَقَى بي الحَالُ حتى صارَ إبليسُ من جُنْدي

ـ قال في المقتطف: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} أي على اليهود, أو على قومك {نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} أي خبره الذي له شأن وخطر. وهو كما روى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (بلعم بن باعوراء) وكان من بني إسرائيل, وكان قد أوتي علماً ببعض كتاب الله تعالى.

{فَانسَلَخَ مِنْهَا} من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة, بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره, والتعبير عنه بالانسلاخ فيه إشارة إلى أنَّ الإيمان كان طلاءً, ولم يتمكَّن من قلبه, كما تنسلخ الحية من جلدها, وهو مؤذن بكمال مباينته للآيات الهادية {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} أي تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قريناً له؛ وفيه تلويح بأنَّه أشدُّ من الشيطان غواية, ومبالغة في اللحوق إذ جعل كأنه أمام الشيطان {فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين} فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين, بما خالف ربه, وأطاع هواه وشيطانه.

روي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى أنَّ (بلعم) كان من علماء بني إسرائيل, وكان موسى عليه السلام يقدِّمه في الشدائد, وينعم عليه, فبعثه إلى ملك مَدْين, يدعوهم إلى الله تعالى, فترك دين موسى واتَّبع دين الملك, فزاغ وضلَّ[1].

(150) {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 296/2.

الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون} [الأعراف: 176].

أي لو أردنا لرفعناه بهذا العلم وبهذه الآيات إلى مصافِّ العلماء الأبرار, ولكنَّه مال إلى الدنيا, وسَكَن إليها, وآثر حطامها الفاني على الآخرة, واتَّبع هوى نفسه في إيثار الدنيا, واسترضاء هوى الحُكَّام, فانحطَّ إلى أسفل سافلين, فمثله في الخِسَّة والدناءة كمثل الكلب, إنْ طردته وزجرته وجريت وراءه, مدَّ لسانه فَلَهث, وهو طبعٌ في الكلب لضعف قلبه, وقلة الأوكسجين الذي يدخل إلى رئتيه, فهو يمدُّ لسانه لأخذ أكبر قسط من الهواء.

{ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون} أي هذا المثل السيِّئ هو مثلٌ لكلِّ مَنْ كذَّب بآيات الله تعالى, من أحبار وعلماء (اليهود والنصارى), الذين أوتوا التوراة والإنجيل, وفيهما صفة محمَّد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيِّين, ولكنهم لحبِّ الرئاسة والزعامة, وحبِّ الدنيا, أنكروا صفاته, وتلاعبوا في أحكام دينهم, فانسلخوا من التوراة والإنجيل, فاقصص يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على الخلق جميعاً هذه القصص التي أوحيناها إليك, لعلهم يتدبَّرونها فيتَّعظون ويتفكَّرون.

. وفي المقتطف: {وَلَوْ شِئْنَا} في الكلام حذف المفعول لمشيئة, أي لو شئنا رفْعَه لرفعناه إلى منازل العلماء الأبرار {لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} أي إلى المنازل العالية بسبب تلك الآيات, بمحض مشيئتنا, ولكنها منافية للحكمة التشريعية المؤسَّسة على تعليق الجزاء بالأفعال الاختياريَّة للعباد {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى

الأَرْضِ} إلى الدنيا, ومال إليها, وأصل الإخلاد اللزوم للمكان, من الخلود {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} في إيثار الدنيا واسترضاء قومه وإعراضه عن مقتضى الآيات, فانحطَّ أسفل السافلين.

وهذه الآية أشدُّ الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس.

عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ذئبان جائعان أُرْسِلا في غنم, بأفسد لها مِنْ حرص المرء على المال والشرف لدينه) أخرجه الإمام الترمذي وصحَّحه.

ومن تفكَّر في الأمثال المضروبة في التنزيل في حقِّ المشركين والأصنام من بيت العنكبوت, والذباب, تحقَّق له أنَّ مثل علماء السوء أسوأ وأقبح من ذلك, لما هم فيه من التهالك على الدنيا, مالِها وجاهِها, والركون إلى لذَّاتها وشهواتها, ولذلك مثَّل لهم بالكلب, كما مثَّل لهم بالحمار, عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك[1].

اللهمَّ لا تجعلنا من الذين يأمنون من عذابك, إنَّ عذابك غيرُ مأمون.

(**151**) {سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُون} [الأعراف: 177].

أي بئس هذا المثل القبيحُ مثلاً للقوم المكذِّبين بآيات الله تعالى, والجاحدين لنعمة فضل العلم والهداية, وما ظلموا بهذا الصنيع إلَّا أنفسهم,

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 2/296،297.

لأنهم عرَّضوها لعذاب الله تعالى الشديد.. ومن تفكَّر الأمثالَ المضروبة في القرآن, يرى بوضوح أنَّ المثل الذي ضربه الله تعالى لعلماء السَّوْء, أقبحُ وأشنعُ ممَّا ضربه لعبدة الأصنام والأوثان, مثَّل لهم بالعنكبوت اتخذت بيتاً, وبالذباب الذي يقف على الطعام, أما علماء السوء فقد مثَّل لهم بالكلب, وبالحمار {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: 5]؛ لأنهم بتهالكهم على الدنيا, والركون إلى لذاتها وشهواتها, أصبحوا كالكلاب والحمير, وهما أقبح الأمثلة التي ذكرها القرآن.

(152) {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179].

أي ولقد خلقنا خلائق كثيرين, من الإنس والجن, لنار جهنَّم, ليكونوا لها وقوداً وحطباً, لهم قلوب معميَّة لا يفقهون بها الحقَّ, ولهم أعينٌ لا يبصرون بها طريق الرشاد, ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ؛ أولئك كالبهائم والدوابِّ, بل هم أضلُّ منها وأسوأ حالاً؛ لأنَّ الحيوانات تُدرك منافعها ومضارَّها, وهؤلاء لا يميِّزون بين المنافع والمضار, ولهذا يتسارعون نحو النار, أولئك هم الكاملون في الغفلة.

وليس المرادُ نفيَ السمع والبصر بالكليَّة, وإنما المراد نفيها عما ينفعها, فقد أثبت الله تعالى لهم القلوب والأسماع والأبصار, لكنهم لما لم يستفيدوا منها صاروا كالبهائم السارحة التي لا تفهم ولا تعي.

(**153**) {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون} [الأعراف: 180].

أي له جلَّ وعلا الأسماءُ التي هي أحسن الأسماء, فسمُّوه بتلك الأسماء الجليلة, واتركوا الضالين الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق والاستقامة, كما فعل عُبَّاد الأوثان, حيث اشتقُّوا من أسماء الله تعالى الجليلة, أسماء لآلهتهم وطواغيتهم, كاللات من (الله), والعُزَّى من (العزيز), ومناة من (المنَّان), سينالون جزاء كفرهم, وأعمالهم القبيحة في الآخرة.

. روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى, عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: (إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً, مئة إلا واحداً, من أحصاها ـ قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: المراد به حفظها ـ دخل الجنَّة), ولا يظنَّنَّ أحدٌ أنَّ أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار, بل له سبحانه أسماء غيرها استأثر بعلمها؛ يدلُّ على ذلك ما ورد في الحديث الصحيح: (أسألك بكلِّ اسم هو لك, سمَّيت به نفسك, أو علَّمته أحداً من خلقك, أو استأثرت به في علم الغيب عندك..) أخرجه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم رحمهم الله تعالى.

. وإنَّ أسماء الله تعالى توقيفيَّة يُراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع, فكلُّ اسمٍ ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جلَّ شأنه, وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صحَّ معناه(1).

(**154**) {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون} [الأعراف: 181].

---

(1) انظر: المقتطف من عيون التفاسير: 2/299ـ300.

أي ومن بعض البشر الذين خلقناهم أمَّةٌ مستمسكة بشرع الله تعالى, قولاً وعملاً, يدلُّون الناس على الخير, ويهدونهم إلى طريق الإيمان, وبكتاب الله تعالى يقضون ويحكمون, والمراد بهم أمة محمَّد صلى الله عليه وسلم. لما رواه الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ـ أي مستمسكين بالحق ـ لا يضرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفهم, حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

ـ قال في المقتطف: أي ومن بعض البشر التي خلقنا طائفة جليلة يهدون الناس, ويدلُّونهم على الاستقامة, وبالحقِّ يحكمون في الحكومات الجارية بينهم, ولا يجورون, والمراد بهم أمة سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم.

روى الشيخان عن معاوية رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله تعالى, لا يضرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفهم, حتى يأتي أمرُ الله تعالى وهم على ذلك) أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

واستدلَّ بالآية على صحة الإجماع (إجماع أمة محمَّد صلى الله عليه وسلم)؛ لأنَّ المراد منه أنَّ في كلِّ قرن طائفة بهذه الصفة, إذ لو اختصَّ بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لذكره فائدة[1].

أقول: يعني أنَّ هذا ليس مخصوصاً في زمان الرسول صلى الله عليه

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 300/2.

وسلم, بل إلى آخر الزمان.

(**155**) {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

أي اترك الغلظة والفظاظة, ولا تقابل السفهاء بمثل سفههم, بل بالحلم والصفح والعفو, وأن تأمرَ بكلِّ جميلٍ مستحسن من الأقوال والأفعال. وهذه الآية . على وجازتها . جمعت الفضائل الإنسانية والاجتماعية التي دعا إليها الإسلام, وحذَّرت من مساوئ الأخلاق, فنهت عن كلِّ رذيلة, ودعت إلى كلِّ فضيلة.

ولما نزلت هذه الآية الكريمة قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الله تعالى يأمرك أن تعفو عمَّنْ ظلمك, وتعطي مَنْ حَرَمك, وتصل مَنْ قطعك) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره, وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق, وهو توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم, وتأديب لجميع الخلق.

(**156**) {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم} [الأعراف: 200].

أي إن اعتراك وأصابك وسوسةٌ من جهة الشيطان, فاستجر بالله تعالى, والجأ إليه في دفعه عنك, فإن الله تعالى يسمع كلامك, ويعلم تضرُّعك, فيعصمُك من شرِّه.

. قال في المقتطف: وهذا الخطاب وإن كان له صلى الله عليه وسلم, إلا أنَّ المراد غيرُه, وهو تأديب عامٌّ لجميع المكلَّفين, ولما ثبت أنَّ لهذه الاستعاذة

أثراً في دفع نزغ الشيطان, لزمت لنا المواظبة عليها في أكثر الأحوال. وفي الآية زيادةُ تنفيرٍ وفَرْطُ تحذيرٍ عن العمل بموجب الغضب, وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لذلك, وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التي لا يُتخلَّص من مضرَّتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عزَّ وجل[1].

(**157**) {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُون} [الأعراف: 201].

أي إن الذين اتَّقوا ربهم, بامتثال أوامره واجتناب نواهيه, إذا أصابتهم وسوسة من الشيطان, رجعوا إلى ربهم والتجؤوا إليه, فأبصروا طريق الخلاص والنجاة من وساوس الشيطان.

(**158**) {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُون} [الأعراف: 202].

أي وأما الفسقةُ الفجرة المنهمكون في الضلال, فإخوان الشياطين, أعني: شياطينُ الإنس والجن تغويهم, وتزيِّن لهم القبيحَ والضلال لينتكسوا, ثم لا يكفُّون ولا يمسكون عن إغوائهم؛ والغرضُ من الآية اتِّقاءُ شرِّ الأشرار والفجار, والبُعد عنهم, لأنهم سببٌ لضلال الإنسان وبُعده عن الرحمن.

(**159**) {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون} [الأعراف: 204].

أي وإذا تُليت آيات القرآن فاستمعوا إليها أيها المؤمنون بتدبُّر وتبصُّر, واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً له, لكي تنالوا رحمة ربكم جلَّ

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 312/2.

وعلا.

(160) {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِين} [الأعراف: 205].

أي واذكر أيها المؤمن ربَّك سرَّاً, مستحضراً لعظمة جلاله, واذكر متضرِّعاً إليه وخائفاً منه, وليكن ذكرك ودعاؤك وسطاً بين الجهر والسرِّ, في الصباح والمساء, ولا تغفل عن ذكر ربك أبداً, فإنه الغذاء الروحي لسلامة قلبك.

(161) {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون} [الأعراف: 206].

أي إنَّ الملائكة الأبرار الأطهار الذين هم في الملأ الأعلى . على مكانتهم وسموِّ قدرهم . لا يستكبرون عن طاعة الله تعالى وعبادته, يسبحونه ليلاً ونهاراً, وله وحده جلَّ وعلا يسجدون ويخضعون.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**162**) {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون} [الأنفال: 2].

أي إنَّما المؤمنون الكاملون في الإيمان, هم المخلصون الصادقون, الذين إذا ذُكر اسم الله تعالى أمامهم فزعت قلوبهم وارتجفت لمجرَّد ذكره, استعظاماً لجلاله, وهيبةً منه جلَّ وعلا؛ وإذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد إيمانهم ويقينهم بالله عزَّ وجل؛ وعلى ربهم وحده يعتمدون, لا يخافون ولا يرجون غيره.. وصفهم تعالى بمقامات ثلاثة عظيمة: (مقام الخوف), و(مقام الاطمئنان), و(مقام التوكُّل على الرحمن).

ـ واعلم أنَّ هذه المراتب الثلاث, أعني الوجل عند ذكر الله جلَّ وعلا, وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن, والتوكُّل على الله تعالى, من أعمال القلوب. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح[1], فقال سبحانه وتعالى:

(**163**) {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون} [الأنفال: 3].

أي هؤلاء المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان, هم الذين يؤدُّون الصلاة على الوجه الأكمل, بأركانها وخشوعها وآدابها, ويحافظون على أدائها في أوقاتها؛ ومما منحناهم وأعطيناهم من المال الحلال ينفقون ويتصدقون . ويدخل في هذه الآية: الزكاة, والنفقة, وسائر الخيرات ..

---

(1) تفسير الخازن: 292/2.

(**164**) {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: 4].

فهؤلاء المتصفون بالصفات الحميدة, هم المؤمنون إيماناً حقاً, لهم منازلُ رفيعة عند الله تعالى, وتكفيرٌ لما فرط من ذنوبهم, ورزقٌ دائم مقيم في جنَّات النعيم.

(**165**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُون} [الأنفال: 20].

أي دوموا يا معشر أهل الإيمان على طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم, ولا تعْرضوا عنه بمخالفة أمره, وأنتم تسمعون القرآن والمواعظ.

(**166**) {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُون} [الأنفال: 21].

أي لا تكونوا كالكفار الفجار, الذين سمعوا الهدى والقرآن بآذانهم دون قلوبهم, فلم يتَّعظوا به ولم ينتفعوا, لأنَّ الغرض من الاستماع التدبُّر والانتفاع, فمن لم ينتفع من الكلام فهو بمنزلة الأنعام, ولذلك شبَّههم تعالى بالدوابِّ السارحة, في قوله سبحانه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون} [الأنفال: 22].

. قال في المقتطف: أي لا تكونوا كالكفرة والمنافقين الذين قالوا سمعنا بمجرد الادِّعاء من غير فهم وإذعان {وَهُمْ لاَ يَسْمَعُون} أي والحال أنهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به, ولا يفهمونه حقَّ فهمه(1).

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 329/2.

(**167**) {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: 23].

أي لو علم الله تعالى في هؤلاء الكفار شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهُّم وتدبُّر, فانتَفَعوا بحواسِّهم, ولو فُرض أنَّ الله تعالى أسمعهم ـ وقد علم أنْ لا خير فيهم ـ لأعرضوا عن هداية الله تعالى كفراً وجحوداً, لأنَّ بصائرهم مطموسة, وعقولهم منكوسة.

(**168**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: 24].

بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين, أمر المؤمنين بالاستجابة لأمر الله تعالى ودعوة رسوله صلى الله عليه وسلم, فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} أي أجيبوا دعاء الله تعالى إلى طاعته, ودعاء الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعاكم إلى القرآن والإيمان, الذي تحيا به النفوسُ, كما تحيا الأرض بوابل المطر, ففي (الإيمانِ والقرآن) الحياةُ والنجاة والعصمةُ في الدنيا والآخرة.

ـ قال قتادة رحمه الله تعالى: القرآن, لما روي أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ على أبيٍّ بن كعب رضي الله تعالى عنه وهو يصلي, فدعاه فلم يجب, وأسرع في صلاته, ثم جاءه فقال صلى الله عليه وسلم: (ما منعك من إجابتي؟ قال: كنت أُصلِّي, قال: ألم تُخبَر فيما أوحي {اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ

إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} قال: بلى, ولا أعود إن شاء الله تعالى) أخرجه الإمام النسائي رحمه الله تعالى.

قيل: إنَّ الدعاء كان لأمر لا يحتمل التأخير, وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله, كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر, ولو لم يحذِّره لوقع فيه وهلك[1].

{وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُون} أي اعلموا يا معشر المؤمنين, أنَّ الله تعالى يُصرِّف القلوب كيف يشاء, بما لا يقدر عليه البشر, فيفسخ عزيمة الإنسان, ويغيِّر مقاصده, ويُلهمه الرشاد, أو يُزيع قلبه, فهو المتصرِّف في شؤون الكون, ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يدعو بهذا الدعاء: (اللهمَّ يا مقلِّب القلوب, ثبِّت قلبي على دينك) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه رحمهم الله تعالى؛ ومرجعكم إلى الله تعالى, فيجازيكم على أعمالكم, فسارعوا إلى طاعته؛ وفي الآية حثٌّ على إخلاص القلوب وتصفيتها.

. {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} فهو بيان عن غاية القرب من العبد, أي يصرِّف القلوب كيف يشاء, بما لا يقدر عليه صاحبها, فيفسخ عزيمته, ويغيِّر مقصده, وفيها تنبيه على أنَّه تعالى مطَّلع على مكنونات القلوب, وحثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله تعالى بينه وبين قلبه بالموت, أو غيره. وفي الحديث: (إنَّ قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد, يصرِّفه حيث يشاء, ثم قال

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 330/2.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهمَّ مصرِّفَ القلوب, صرِّف قلوبنا على طاعتك) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى[1].

. {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} يعني إذا تجلَّى الله تعالى على قلب المرء, يحول بسطوات أنوار جماله وجلاله بين مرآة قلبه وظلمة أوصاف قالَبه {وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} بالفناء عنكم والبقاء به[2].

(**169**) {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 25].

أي احذروا بطش الله تعالى وانتقامه إن عصيتم أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم, وخافوا عقاب الله تعالى, إن نزل بكم لا يقتصر على الظالم فقط, بل يعمُّ الصالح والطالح, لأن الظالم يهلك بظلمه وفجوره, وغير الظالم يهلك بسكوته على الجريمة والعصيان, وفي الحديث: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه, أوشك أن يعمَّهم الله تعالى بعقاب) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

. قال في المقتطف: أي لا تختصُّ إصابةُ عذابها بمن يباشر الظلم منكم, بل يعمُّه وغيرَه. والمراد بالفتنة الذنب والمعصية, كإقرار المنكر بين أظهركم, وظهور البدع, والتكاسل عن الجهاد؛ والخطابُ إذا كان عاماً للأمة, وفُسِّرت الفتنة بإقرار المنكر, لا يخبئ الإشكالُ على عموم الإصابة بقوله سبحانه:

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 331330/2.

(2) التأويلات النجمية: 114/3.

{وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الإسراء: 15]؛ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاءُ عنه, يجب على الباقين رفعُه, وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين, فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم. لما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده, أوشك أن يعمَّهم الله تعالى بعقاب) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى[1].

(**170**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون} [الأنفال: 27].

أي لا تخونوا دينكم ورسولكم صلى الله عليه وسلم بإطلاع الكفار على أسرار المؤمنين, ولا تخونوا ما ائتمنكم عليه الناسُ من أموال, وأنتم تعلمون عاقبة الخيانة. نزلت في قصة (أبي لبابة رضي الله تعالى عنه), وذلك حين حاصر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يهودَ بني قريظة, طلبوا منه الصلح, فأمرهم أن ينزلوا على حكم (سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه) فقالوا: أرسل لنا أبا لبابة, فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقالوا: يا أبا لبابة ماذا ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه ـ يعني الذبح ـ قال: فعرفت أني قد خنتُ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم, ثم قال: والله لا أذوق طعاماً, ولا أشرب شراباً, حتى أموت أو يتوب الله عليَّ, فنزلت توبته, وكان قد ربط نفسه بسارية في المسجد, فحلَّه صلى الله عليه وسلم. رواه ابن جرير.

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 331/2.

(**171**) {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: 28].

أي الأموال والأولاد محنة من الله تعالى, ليختبركم هل تفضِّلون المال والولد على عبادته وطاعته؛ وإنما كانت فتنةً لأنها تشغل القلب بالدنيا, وتمنعه عن الجهاد في سبيل الله تعالى؛ وثوابُ الله تعالى وجزاؤه خيرٌ من الأموال والأولاد.

(**172**) {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: 29].

أي إنْ أطعتم ربَّكم جلَّ وعلا, واجتنبتم محارمه, يجعل لكم نوراً وهداية في قلوبكم, تفرِّقون به بين الحق والباطل, والهدى والضلال, ويمحو عنكم ما صدر منكم من الذنوب والآثام, ويسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها؛ والله تعالى واسع الفضل, عظيم العطاء.

(**173**) {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: 33].

أي إكراماً لك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, ما كان الله تعالى ليعذِّبهم بعذاب الاستئصال وأنت مقيم بين أظهرهم, هذا هو السبب الأول, وهناك سبب آخر لعدم الإهلاك الكليِّ, أنَّ الله تعالى يعلم أنَّ مِنْ أبنائهم مَنْ يحمل راية الإسلام ويؤمن, ومنهم مَنْ سيتوب ويدخل في الإسلام, فلذلك لم يهلكهم بالإفناء مع استحقاقهم له.

(**174**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُون} [الأنفال: 45].

هذا توجيه وإرشادٌ إلى طريق العزَّة والنصر, أي إذا لقيتم جماعة من الكفار فاثبتوا أمامهم ولا تنهزموا, وأكثروا من ذكر الله تعالى, لتستمطروا نصره وعونه, وتفوزوا بالفلاح والنجاح!.

أربعة عناصر ذكرها تعالى لكسب المعركة ونيل النصر, وهي:

1. الثبات في الميدان مع الإيمان.
2. وتقوية القلب بالإكثار من ذكر الرحمن.
3. وعدم التنازع والاختلاف بين المؤمنين.
4. والصبر عند المكاره والشدائد.

أمَّا الثَّمرة والنتيجة فهي الظفرُ والنصر, وقد حقَّق الله تعالى لهم ذلك.

. قال في المقتطف: وفيه تنبيه على أنَّ العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى, وأن يلتجئ إليه عند الشدائد, ويُقبِل عليه فارغ البال, واثقاً بأنَّ لطفه جلَّ وعلا لا ينفكُّ عنه في شيء من الأحوال؛ وفي الحديث الشريف: (لا تتمنَّوا لقاء العدو, فإذا لقيتموهم فاصبروا...) أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى(1).

(**175**) {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِين} [الأنفال: 46].

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 343/2.

أي أطيعوا أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع شؤونكم وأحوالكم, ولا تختلفوا فيما بينكم فيدِبَّ فيكم الوهْنُ والخَوَرُ, وتذهب قوتكم وبأسكم؛ واصبروا على شدائد الحروب وأهوالها, فالله جلَّ وعلا مع الصابرين بالعون والنصر.

(176) {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيم} [الأنفال: 53].

أي ذلك الذي حلَّ بهم من العذاب, من القتل والأسر والهزيمة, بسبب أنَّ الله تعالى عادل في حكمه وقضائه, لا يغيِّر نعمة أنعمها على أحد من خلقه حتى يبدِّلوا النعمة إلى كفر وعصيان, فيسلبهم الله تعالى هذه النعمة؛ وهكذا كان أمرُ كفار مكة, كانوا في أمن واستقرار, وسعادة ورفاهية, تُجبى إليهم الخيرات من الفواكه والحبوب والثمار من جميع البلدان والأقطار, وأكمل الله تعالى عليهم النعمة ببعثة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم, فكذبوه وقاوموه وقاتلوه, فغيَّر الله تعالى حالهم, فنقلهم من الأمن إلى الخوف, ومن السَّعة إلى الضيق, وابتلاهم بالشدائد والنكبات, حتى أكلوا الجِيَف والوَبَر, ثم قُتل صناديدهم يوم بدر, وهذه نتيجة كلِّ من كفر نعمة الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**177**) {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} [التوبة: 14].

أي قاتلوا المشركين أعداءَ الدِّين, حتى يكون عذابُهم بأيديكم, لتنالوا أجر الجهاد, ويذلُّهم الله تعالى بالقهر في الدنيا, والهوان والخسران في الآخرة, ويجعلكم مسلَّطين عليهم بالغلبة والظفر, ويشفِ صدوركم بإعزاز الدِّين واندحار الأعداء.

(**178**) {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

أي قل لهم: إنْ كان هؤلاء الأقارب من الآباء, والأبناء, والإخوان, والزوجات, والعشيرة, والتجارة, والأموال, والوطن, أحبَّ عندكم من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم, والجهاد في سبيله, فانتظروا حتى يأتيكم عذابُ الله تعالى! والله سبحانه لا يهدي الخارجين عن طاعته وحدوده إلى طريق الخير والسعادة (إلا بعد التوبة للمؤمنين). أفرأيتم إلى هذا الوعيد الشديد, الذي ينخلع له قلبُ المؤمن هَلَعاً وفزعاً, وهو يسمع آيات الرحمن تُنذر وتتوعَّد كلَّ من آثر الدنيا وما فيها من زخرف المتاع, على الإيمان بالله تعالى والجهاد في سبيله؟! وقد جاء الترتيب في الآية الكريمة في غاية الحُسْن

والتناسق, فقد بدأ تعالى بذكر الآباء والأبناء, ثم الإخوة والزوجات, ثم العشيرة والأموال, ثم التجارة والأوطان, التي هي زهرات الحياة الدنيا ونعيمُها العاجل, وكلُّها إلى فناء, ولا يبقى للمؤمن إلا الإيمانُ والعمل الصالح, وما عند الله تعالى خيرٌ للأبرار. اللهمَّ ارزقنا العمل الصالح والاستقامة.

(179) {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون} [التوبة: 51].

أي قل لهم توبيخاً وإنكاراً: لن يصيبنا شيء من خير أو شرٍّ, أو غنيمةٍ أو هزيمة, إلا بتقدير المولى جلَّ وعلا, ولا يقع علينا إلا المقدَّر المكتوب في الأزل, فعلامَ تفرحون وتشمتون بنا؟ الله جلَّ وعلا ربُّنا هو ناصرنا وحافظنا, وعلى الله تعالى وحده نعتمد, وبه نثق.

. تدلُّ الآية على أنَّ الحوادث كلَّها بقضاء الله تعالى {هُوَ مَوْلاَنَا} أي ناصرنا ومتولي أمورِنا {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون} ولا ينافي في ذلك الأخذ بالأسباب(1).

(180) {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم} [التوبة: 71].

أي والمؤمنون والمؤمناتُ إخوةٌ في الدِّين, يعينُ بعضهم بعضاً, وينصر بعضهم بعضاً, يأمرون الناس بكلِّ فضيلة وخير, وينهونهم عن كلِّ رذيلة وشرٍّ,

---

(1) انظر: المقتطف من عيون التفاسير: 2/395.

فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف, إنهم مؤمنون صادقون, يؤدُّون الصلاة على وجه الكمال, بخشوعها وأركانها وآدابها, ويؤدُّون الزكاة إلى مستحقِّيها من الفقراء والمساكين, ويطيعون الله سبحانه في كلِّ أمرٍ ونهي, هؤلاء الصادقون في إيمانهم, سينالون رحمة الله تعالى, فيدخلهم في جنَّته, ويفيض عليهم جلائل نعمته, لأنه سبحانه (عزيز) أي قويٌّ قادر على إعزاز أوليائه, وقهر أعدائه, (حكيم) أي يضع كلَّ شيء في موضعه, ولا يشرع إلا ما فيه مصلحة.

(**181**) {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [التوبة: 72].

أي وعدهم ربُّهم جلَّ وعلا على إيمانهم بجنات وارفة الظلال, يانعة الثمار, تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنَّة, ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية, لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد, ولهم فيها مساكن طيبة, يطيب فيها العيش, في أعلى جنان الخُلد, وهي (جنَّات عدن) أي بساتين وحدائق الإقامة الدائمة, ولهم مع هذا النعيم الدائم أعظمُ كرامة, وهي: رضوان الله تعالى عليهم, وهو أفضل نعيم أُعطيَه أهل الجنَّة, ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} أي هذا هو الظفر بالسعادة الكبرى التي لا سعادة مثلُها.

وفي الحديث: (يقول الله تعالى لأهل الجنَّة: يا أهل الجنَّة, فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسعديك, فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد

أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك؟ فيقول لهم: أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني, فلا أسخط عليكم بعده أبداً) رواه البخاري ومسلم, اللهمَّ لا تحرمنا رضوانك الأكبر.

(**182**) {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 100].

أي والسابقون إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار, والذين آوَوْهم ونصروهم, وهم أهل المدينة المنورة, نالوا قَصَب السبق, فلولا جهادهم لما كان هناك عزٌّ وانتصارٌ لدعوة الإسلام, ثم الذين سلكوا سبيلهم, وهم التابعون وتابعُ التابعين رضي الله تعالى عنهم, ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة, نالوا جميعاً رضوان الله تعالى, فرضي الله تعالى عنهم وأرضاهم, وهيَّأ الله تعالى لهم في الآخرة حدائقَ زاهرة, تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنَّة, مقيمين فيها إلى غير نهاية؛ ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده, وأيُّ سعادة أعظم من الخلود في جنان النعيم؟!.

(**183**) {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: 101].

أي وممَّن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب, منازلهم قريبة من

منازلكم, ومن أهل المدينة منافقون أيضاً, استمروا وثبتوا على النفاق, وبرعوا فيه, لا تعلمهم أنت يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لمهارتهم فيه, بحيث يخفى أمرهم على كثيرين, ولكن نحن نعلمهم جلَّ وعلا, ونخبرك عن أحوالهم؛ سنعذِّبهم في الدنيا بالقتل والأسر, وعند الموت بعذاب القبر, ثم في الآخرة يُردُّون إلى أسوأ العذاب, الذي أعدَّه الله تعالى للمنافقين والكفار.

. وفي المقتطف: {لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} ... هذه الآية أقوى دليل في الردِّ على من يزعم الكشف بمجرَّد صفاء القلب, وتجرُّد النفس عن الشواغل(1).

أقول: إذا أراد الله تعالى أنْ يبيِّنَ له, يبيِّنُ جلَّ وعلا, وأما بالادِّعاء فلا.

(**184**) {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيم} [التوبة: 102]. اللهمَّ تب علينا يا أرحم الراحمين.

أي وأناسٌ آخرون أقرُّوا بذنوبهم, ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة, خلطوا جهادهم السابق بالعمل السيِّئ, وهو تخلُّفهم عن غزوة تبوك, ثم ندموا وتابوا, هؤلاء لعلَّ الله جلَّ وعلا يتوب عليهم, وكلمة (عسى) من الله سبحانه واجبة, أي حقٌّ على الله تعالى أن يتوب عليهم, لأنه سبحانه واسع المغفرة, عظيم الرحمة. اللهمَّ لا تحرمنا من رحمتك.

ـ عن أبي عثمان النَّهْدي رضي الله تعالى عنه قال: ما في القرآن آية

---

(1) انظر: المقتطف من عيون التفاسير: 427/2.

أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية(1).

(185) {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم} [التوبة: 103].

أي خذ من أموال هؤلاء المتخلِّفين, الذين اعترفوا بذنوبهم, صدقةً تطهِّرهم بها من الخطأ الذي ارتكبوه, وتنمِّي بهذه الصدقة حسناتهم, فترفعهم بها إلى مراتب المخلصين, وادعُ لهم بالخير والبركة, فإنَّ دعاءك واستغفارك طمأنينةٌ لهم, تسكن بها نفوسهم, والله تعالى سميع لقولهم, عليم بندامتهم.. اللهمَّ اجعلنا من التوابين.

رُوي أنه لما نزلت توبةُ هؤلاء, جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فوضعوها بين يديه, وقالوا: هذه أموالنا التي خلَّفَتْنا عنك, خذها وتصدَّق بها, وطهِّرنا, فكره صلى الله عليه وسلم أخذها, وقال صلى الله عليه وسلم: ما بذلك أُمرتُ, فنزلت الآية, فقبل بعضها, وردَّ إليهم أكثرها. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره, والبيهقي في دلائل النبوة.

(186) {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم} [التوبة: 104]. اللهمَّ اجعلنا من التوَّابين.

أي ألم يعلم هؤلاءِ سعةَ فضل الله تعالى على العباد, فيتوب على من تاب منهم, ويتقبَّل صدقته وإحسانه؟ وأن الله تعالى هو وحده التائب على العباد, الرحيم بهم؛ والآية ترغيبٌ للعصاة بالتوبة والصدقة.

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 428/2.

(**187**) {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين} [التوبة: 112]. اللهمَّ اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أي هؤلاء المؤمنون الأبرار, الذين باعوا أنفسهم لله تعالى, هم التائبون من الذنوب, العابدون للربِّ المعبود جلَّ وعلا, الحامدون لله سبحانه في السراء والضراء, السائحون في الأرض للعظة والاعتبار, المداومون على الركوع والسجود, الآمرون بالخير والناهون عن الشرِّ, الواقفون عند حدود الله تعالى, هؤلاء هم المؤمنون, بشِّرهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بجنَّات النعيم..

. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كلُّ ما ذُكر في القرآن من السياحة فهو الصيام.

(**188**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِين} [التوبة: 119].

أي خافوا ربكم جلَّ وعلا واخشوا عقابه, وكونوا مع أهل الصدق والإخلاص, في زمرتهم وجماعتهم. اللهمَّ ألحقنا بهم.

أقول: مقتضى إيمانكم أيها المؤمنون أن لا تخالفوا من اتَّبع الرسول عليه الصلاة والسلام.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(189) {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِين} [يونس: 2].

{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ} أي هل كان على كفَّار مكة أمرٌ غريب عجيب أن يرسل الله تعالى إليهم رسولاً من البشر, ليخوِّفهم عذاب الله جلَّ وعلا؟ لا ينبغي أن يتعجَّبوا من هذا, فهي عادة الله تعالى في الأمم السالفة. والآية ردٌّ على المشركين حين قالوا: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً, أمَا وجد الله من يرسلُه, إلَّا يتيمَ أبي طالب؟! لقد استبعدوا ـ لحماقتهم ـ أن يكون الرسولُ صلى الله عليه وسلم من البشر, ولم يستبعدوا أن يكون الإله من الحجر, حيث عبدوا الأصنام والأوثان.

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} أي وبشِّر يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعَك المؤمنين, وأخبرهم بالخبر السارِّ, أنَّ لهم منزلة رفيعة ومكانة سامية عند ربهم جلَّ وعلا, بما قدَّموا من صالح الأعمال!

ثم حكى عن المشركين سفاهتهم أمام هذه الرسالة المحمَّديَّة صلى الله عليه وسلم التي أكرم الله تعالى بها البشرية: {قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِين} أي ومع وضوح صدق الرسول صلى الله عليه وسلم, وإعجاز الكتاب الذي جاءهم به من عند الله تعالى, قال المشركون: إن محمَّداً صلى الله عليه

وسلم ساحرٌ كبير, ظاهرُ السحر لمن تأمَّله, وفي هذا القول اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أموراً خارقة للعادة, أعجزهم معارضتها, فنسبوه إلى السحر, وهو اعتراف من حيث لا يشعرون, بأنَّ ما جاءهم به خارج عن قدرة البشر.

. قال في المقتطف من عيون التفاسير: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ} أي بشِّرهم برحمة الله تعالى ورضوانه لصدقهم وإيمانهم {أَنَّ لَهُمْ} أي بأنَّ لهم {قَدَمَ صِدْقٍ} أي أجراً حسناً بما قدَّموا من الأعمال الصالحة {عِندَ رَبِّهِمْ} إذ بالقدم يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة, وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحقُّقها وثباتها, وللتنبيه على أنَّ مدار نيل ما نالوه هو صدقهم, وأصل القدم: العضو المخصوص, وأُطلقت على السبق مجازاً, لكونها سببه وآلته, وأريد من السبق الفضل والشرف, والتقدُّم المعنوي, فيعبَّر بالصدق عن كلِّ فعل فاضل, ويضاف إليه, كمقعد صدق, ومدخل صدق, إلى غير ذلك. وفسَّره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بالأجر الحسن, وابن مسعود رضي الله تعالى عنه بالعمل الصالح. وقال الزجَّاج رحمه الله تعالى: {قَدَمَ صِدْقٍ} أي: منزلةً رفيعة, والكلُّ متقارب...[1].

أقول: الصدق مهمٌّ, ولذا قال ربُّنا جلَّ وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119], لم يكتف بالأمر بالتقوى, بل أضاف إليها أن يكون مع الصادقين, أمرنا بصحبة الصادقين لنستكسب من

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 448/2.

صدقهم, اللهمَّ اجعلنا منهم.

(190) {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُون} [يونس: 3].

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} أي إنَّ ربَّكم المستحقَّ للعبادة, ومالكَ أمركم الذي ينبغي أن لا تعبدوا غيره, هو ربُّ العزة والجلال, الذي خلق الكائنات في مقدار ستَّة أيام من أيام الدنيا, ولو شاء لخلقها بلمح البصر, ولكنه تعالى أراد أن يعلِّمَ العباد التأنِّي وعدم العجلة؛ ثم استوى على العرش استواءً يليق بكرمه سبحانه, من غير تكييفٍ, ولا تعطيلٍ, ولا تشبيه, كما هو مذهب السلف الصالح. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح, وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل.

أقول: بلا أين وكيف وكم... هذا هو مذهب السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

{يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُون} أي يدبِّر أمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة, لا يشغله شأن عن شأن, ولا يستطيع أحدٌ أن يشفع يوم القيامة لأحد, إلَّا من بعد أن يأذن الله تعالى له في الشفاعة, وهذا ردٌّ لمزاعم المشركين أنَّ أصنامهم وآلهتهم تشفع لهم يوم القيامة؛ ذلكم الإله العظيم الشأن هو ربُّكم وخالقكم,

لا ربَّ لكم سواه, فاعبدوه وحده, ولا تُشركوا معه بشراً ولا حجراً, أفلا تعتبرون وتتَّعظون؟ تعلمون أنه سبحانه المتفرِّد بالخلق والتدبير, ثم تعبدون غيره؟!

(**191**) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: 9].

أي إنَّ المؤمنين الصادقين, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, يهديهم ربُّهم إلى طريق الجنَّة بسبب إيمانهم, تجري من تحت قصورهم ومن تحت أَسِرَّتهم أنهارُ الجنَّة, وهم مقيمون في جنَّات الخلد والنعيم, ولهم مع هذا النعيم الدائم أنواعُ العزِّ والتكريم, فالله تعالى يحيِّيهم {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَاب * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار} [الرعد: 2423]. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**192**) {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين} [يونس: 10].

دعواهم مصدر بمعنى الدعاء, أي دعاؤهم وكلامهم في الجنَّة: التسبيحُ والتقديسُ, يسبِّحون الله تعالى بُكرةً وعشياً, دون جهد ولا تعب, كما جاء في الحديث الشريف: (يُلهَمون التسبيح والتحميد, كما تُلهَمون النَّفَسَ) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى, أي كما يتنفَّس الإنسان دون مشقَّة, ولا عناء, وتحية بعضهم لبعض: (السلام عليكم), كما تحيِّيهم ملائكة الرحمن عليهم السلام, حيث يسلِّمون عليهم تأنيساً وتكريماً, وآخر دعاء أهل الجنَّة,

أن يقولوا: الحمد لله ربِّ العالمين, يحمدونه على فضله وإنعامه عليهم. هذا شغل أهل الجنَّة, حمدُ الربِّ الجليل على ما أفاض عليهم من صنوف النعم. اللهمَّ احشرنا معهم.

(**193**) {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون} [يونس: 14].

أي ثم استخلفناكم في الأرض من بعد هلاك الطغاة المجرمين, الذين تسمعون أخبارهم, وتشاهدون آثارهم, لنرى صنيعكم في هذه الحياة, هل تسلكون سبيلهم في الكفر والعدوان, أم تسلكون سبيل أهل الخير والإحسان؟ فالدنيا ميدانُ امتحان {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك: 2].

وفي الحديث: (إنَّ الدنيا حُلوةٌ خَضِرة, وإنَّ الله تعالى مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون, فاتقوا الدُّنيا, واتقوا النساء, فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**194**) {فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [يونس: 23].

أي فلما أنقذهم وخلَّصهم من الهلاك إذا هم يعملون في الأرض بالمعاصي, ويتمادَوْن في الكفر والطغيان؛ يا أيُّها الناس إنَّما وبالُ بَغْيكم عائدٌ عليكم, لا يجني ثمرته إلا أنتم, تتمتعون في هذه الحياة الدنيا بالشهوات الفانية, التي تعقبها الحسرات الباقية, فالبغيُ نهايته وخيمة, والظلم ظلمات

يوم القيامة, ثم مرجعكم بعد الموت إلى الحَكَم العدل, ربِّ العزَّة والجلال, فيجازيكم على أعمالكم. اللهمَّ خلِّصنا.

(**195**) {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} [يونس: 25].

أي والله جلَّ وعلا يدعو إلى الجنَّة دار السلام, التي يسلمُ فيها الإنسان من كلِّ مكروه وآفة, ويهدي من يشاء هدايته إلى سلوك طريقها المستقيم, وطريقُها هو الإسلامُ دينُ خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم؛ سمِّيت الجنَّة دارَ السلام لأنَّ مَنْ يدخلُها يسلم من الأكدار والأحزان, فليس فيها تعبٌ ولا نَصَبٌ ولا سَقَمٌ ولا مرض ولا جوعٌ ولا عطش, ولا شيءٌ مما يكدِّر الفكر والبال, وقد جاء التمثيل للدار بالإسلام في حديث بديع, ولفظه: (مَثَلي ومَثَلُ ما جئتُ به, كمثل سيِّد ـ أي مَلِك ـ بنى داراً, ثم صنع مأدُبة, وأرسل داعياً, فمن أجاب الداعي دخل الدار, وأكل من المأدُبة, ورضي عنه السيد, ومن لم يجب الداعي, لم يدخل الدار, ولم يأكل من المأدُبة, فالله تبارك وتعالى هو السيِّدُ ـ أي الملك ـ, والدار: الإسلامُ, والمأدُبة: الجنَّة, والداعي محمَّد صلى الله عليه وسلم) رواه ابن جرير والبيهقي رحمهما الله تعالى.

(**196**) {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِين} [يونس: 61].

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} بيانٌ لسعة علم الله تعالى الشامل, أي ما تكون يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر من الأمور, وما تقرأ شيئاً من القرآن تتقرَّب فيه إلى ربِّك جلَّ وعلا, ولا تعملون أيها الناس من خير أو شرٍّ, في نهاركم أو ليلكم, إلَّا كنَّا شاهدين مطَّلعين عليه حين تعملونه وتخوضون فيه.

{وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي لا يغيب ولا يخفى على الله تعالى وزن ذرَّة في الكائنات والوجود, ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها, إلَّا وهو معلوم عند الله سبحانه, ومسجَّل في اللوح المحفوظ, فكيف تخفى عليه أعمال العباد؟ اللهمَّ اجعلنا من المستحيين.

(**197**) {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون} [يونس: 62].

أي انتبهوا أيها الناس, واعلموا أنَّ أحباب الله تعالى وأولياءه, لا خوف عليهم في الآخرة, ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

. فهم المنخلعون عن لوازم البشرية بالكليَّة, المنسلخون عن مقتضيات أهوية نفوسهم رأساً, إذ الخوف والحزن إنما هو من لوازم الطبيعة ومن ارتكاب مقتضياتها. الجيلاني قدِّس سرُّه.

(**198**) {الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُون} [يونس: 63].

وهم كلُّ مؤمنٍ مُتَّقٍ لله سبحانه, كما قال صلى الله عليه وسلم: (آل

محمَّد كلُّ تقيٍّ) أخرجه الإمام الطبراني والبيهقي رحمهما الله تعالى, فمن كان في حياته تقياً, كان لله جلَّ وعلا ولياً.

(**199**) {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِين} [يونس: 99].

أي لو شاء الله تعالى لما كفر كافر, ولا جحد جاحد, ولآمن جميع الخلق, ولكنَّه سبحانه لم يشأ ذلك, لكونه مخالفاً للحكمة الإلهية, وهي ترك أمر الإيمان إلى اختيار البشر, ليترتب على ذلك قانون الثواب والعقاب (**أقول**: لو اختاروا الإيمان لهداهم جلَّ وعلا)؛ أفأنت يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم تُكرِه الناس على الإيمان, وتضطرهم إلى الدخول في الإسلام؟ ليس ذلك إليك؛ والآية صريحة في أنَّ الإيمان لا يكون بالإكراه {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 265]؛ ثم جاءت الآية بعدها تؤكِّد هذا الأمر, فقال سبحانه:

(**200**) {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ ...} [يونس: 100].

أي وما كان لأحدٍ من الخلق أن يؤمن إلَّا بإرادته سبحانه وتوفيقه. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس, فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في علم الله تعالى, ولا يكفر إلا من سبقت عليه الشقاوة في الذكر الأول).

(**201**) {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم} [يونس:

.[107

أي إنْ مسَّك ضرٌّ فلا يكشفه ويدفعه عنك إلا ربُّ العزة والجلال, وإنْ أراد الله تعالى لك النفع والخير فلا يمنعه عنك مانع, فالكلُّ بإرادته ومشيئته جلَّ وعلا, يُعزُّ ويُذلُّ, ويَرفع ويَخفض, ويُغني ويُفقر, ولا سلطان لأحد غير الله تعالى! نزلت الآية لما خوَّف المشركون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ أنْ تمسَّه آلهتهم بسوء, وتوعَّدوه بالفتك والبطش به إن تعرَّض لسبِّ آلهتهم, فأخبره الله تعالى أنَّ الأمر ليس بيدهم, إنما هو بمشيئة الله جلَّ وعلا وحده, إنْ أراد له الخير أتاه به, وإن أراد به السوء والشرَّ فلا يملك أحدٌ رفعَه.

(**202**) {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيل} [يونس: 108].

أي قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم للناس جميعاً: لقد جاءكم القرآن بالشرع المبين الساطع المنير, فيه الهدى والشفاء, والنور والضياء, فمن آمن به فقد نفع نفسه, ومن زاغ عنه فقد ضرَّ نفسه؛ ولستُ مكلَّفاً بحفظ أعمالكم, إنما الله جلَّ وعلا يحاسبكم ويجازيكم عليها.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(203) {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [هود: 6].

المراد بالدابَّة: كلُّ ما يَدِبُّ على ظهر الأرض, من إنسان وحيوان, ومن ماش وزاحف, أي ما من مخلوق, إنساناً كان أو حيواناً, إلَّا تكفَّل الله تعالى برزقه, تفضلاً منه تعالى وكرماً؛ ويعلم مستقرها الذي تأوي إليه من الأرض, ومستودعها الذي تموت فيه وتُدفن, كلُّ ذلك مسطَّر في اللوح المحفوظ, وإذا لم يُغفل الله تعالى أضعف خلقه, وهي البهائم والهوامُّ, فكيف يَغْفَل عن أشرفها وهم البشر؟

أقول: {فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي في اللوح المحفوظ, أو في علم الله تعالى, كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم.

(204) {وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...} [هود: 7].

أي هو جلَّ وعلا الذي خلق الكون كلَّه, سماءه وأرضه, في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا, وخلق العرش قبل تلك المخلوقات, ليدلَّ على عظمته وسلطانه, وقد جعل حياة البشر وأرزاقهم ابتلاءً لهم, ليظهر المحسن من المسيء, والشاكرُ من الكافر, فالدنيا دار الابتلاء, والآخرة دار الجزاء, وفي الحديث الشريف: (كان الله تعالى ولم يكن شيءٌ غيره, وكان عرشه على الماء, ثم خلق السموات والأرض, وكتب في الذكر كلَّ شيء) رواه الإمام

البخاري رحمه الله تعالى.

(205) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [هود: 23].

أي أمَّا المؤمنون الصادقون, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, والخوف من الله تعالى, والخضوع والخشوع لعظمته وجلاله, فهم منعَّمون في جنان الخلد, لا يخرجون منها أبداً.

أقول: كما أنَّ الغفلة لا تضرُّ الإيمان, كذلك إذا كان إيمانه صحيحاً, وأصابه بعض الأحوال مثل الغيبوبة, أو يضع عقله, أو يذهب عقله لكبر سنِّه فيردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً... فإنَّ هذا لا يضرُّ إيمانه, ما دام إيمانه قبل هذه الحالة كان صحيحاً, فإنه يحكم له بالإيمان, وتجري عليه أحكام الإيمان, كما قال علماء العقيدة الإسلامية, ومنهم الإمام الباجوري رحمه الله تعالى على شرح جوهرة التوحيد.

(206) {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُون} [هود: 24].

مثلُ الفريقين: الضالين والمهتدين, كمثل من جمع بين العمى والصمم, فهذا حال الكافر, ومن جمع بين السمع والبصر, وهذا وصف المؤمن, هل يستويان في الوصف والشكل؟ لا يستويان أبداً, فليس حال من يتخبط في ظلمات الجهالة والضلالة, كحال من يبصر الحقَّ ويستضيء بضيائه.. شبَّه تعالى أهل الشقاوة والضلال بالأعمى والأصم, وشبَّه أهل السعادة والإيمان

بالسميع والبصير, وختم الآية بقوله: {أَفَلاَ تَذَكَّرُون} أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وحقاً إنه مَثَل من أروع الأمثال, يدركه العالم والجاهل, والذكيُّ والغبيُّ.

(**207**) {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} [هود: 56].

أي إني التجأت إلى الله تعالى, وفوَّضت أمري إليه, خالقي وخالقكم؛ ما من نسمةٍ تدبُّ على وجه الأرض, إلَّا هي في قبضته تعالى, وتحت قهره وسلطانه؛ إن ربي جلَّ وعلا عادل في حكمه, لا يفوته ظالم, ولا يضيع عنده إحسان المحسن. وهذا من كلام سيِّدنا هود عليه السلام.

أقول: وهو جلَّ وعلا الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه, فإنه على صراط مستقيم في جميع شؤونه لا عوج له أصلاً, كما قال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم.

(**208**) {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذ} [هود: 108].

أي وأما السعداء الأبرار فهم مخلَّدون في الجنَّة, لا يُخرجون منها أبداً, دائمون فيها دوام السموات والأرض, وقد شاء ربك جلَّ وعلا لهم الخلود, عطاءً من الله سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع. قال الطبري رحمه الله تعالى: (إن العرب إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً, قالت: هذا دائمٌ دوام السموات والأرض, بمعنى أنه دائم أبداً, فخاطبهم الله تعالى بما يتعارفونه

بينهم).

وقال بعض المفسرين: إن المراد بالسموات والأرض هنا: سموات الجنَّة وأرض الجنَّة, وسموات النار وأرض النار, وليس المراد سموات الدنيا وأرضها, فإنها تزول {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: 48], ولما كانت الجنَّة والنار باقيتيْن, فدوامهم فيها كذلك دائم لا ينقطع.

(**209**) {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود: 112].

أي استقم يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم على أمر الله تعالى, واثْبت وداوم على الاستقامة كما أمرك ربك جلَّ وعلا, أنت وأتباعك المؤمنون, ولا تجاوزوا حدود الله تعالى بارتكاب المحارم, إنه تعالى مطَّلع على أعمالكم, ومراقب لها, وسيجازيكم عليها.

(**210**) {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} [هود: 113].

الركونُ: الميلُ إلى الشيء والرضا به, أي لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة والحكام, وغيرهم من الفسقة الفجرة, وتتركوا أمر الله تعالى, فتمسَّكم نار جهنَّم, وليس لكم من يمنعكم أو ينصركم من عذابه, ثم لا تجدون لكم ناصراً ولا معيناً.

. قال الإمام الغزالي قُدِّس سرُّه: إن المشي إلى السلاطين الظَّلَمة من غير

ضرورة وإرهاق معصيةٌ كبيرة, فإنه تواضع لهم وإكرام على ظلمهم, وقد أمر الله تعالى بالإعراض عنهم في قوله تعالى: {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُون}[1].

(**211**) {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُون} [هود: 117].

أي ما جرت عادةُ الله تعالى أن يهلك أهل القرى ظلماً, وأهلُها مصلحون في أعمالهم, مستمسكون بدينهم, وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم.

(**212**) {وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون} [هود: 123].

أي الله جلَّ وعلا وحده هو المختصُّ بأمور الغيب, يعلم نهاية العباد, السعداء منهم والأشقياء, ومرجعُ الخلائق جميعهم إلى الله تعالى الحَكَم العدل, فهو الذي يفصل بينهم, فينتقم ممن عصى, ويثيب من أطاع, فاعبد ربك وحده, وفوّض أمرك إليه, وسيجازي ربُّ العالمين كلًّا بعمله, لأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء.

** ** **

---

(1) تفسير الإمام الغزالي قُدِّس سرُّه ص184.

بسم الله الرحمن الرحيم

(**213**) {... وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون} [يوسف: 21].

{وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ} لا يردُّه شيء, يفعل ما يشاء, ويحكم ما يريد {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون} لطائف صنع الله وخفايا لطفه وتدبيره الحكيم.

(**214**) {... نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين} [يوسف: 56].

نخصُّ بهذا الفضل من نشاء من عبادنا, ولا نضيع جزاء المحسن.

(**215**) {... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين} [يوسف: 90].

أي إنه من يَتَّق ربَّه جلَّ وعلا بالاستقامة على الدِّين, ويصبر على البلايا والمِحَن, فإن الله تعالى لا يضيِّعه, بل يحفظه ويرعاه, فيجازيه خير الجزاء, ويكرمه غاية الإكرام, لإحسانه وإيمانه.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(216) {اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَار} [الرعد: 8].

أي الله جلَّ وعلا وحده هو الذي يعلم ما تحمله كلُّ أنثى في بطنها, هل هو ذكرٌ أو أنثى؟ تام أو ناقص؟ حسنٌ أو قبيح؟ يعلم كلَّ شجرة, وكلَّ ثمرة, وكلَّ قطرة تنزل من السماء؛ ويعلم ما تسقطه أرحام الأمهات, فيَلِدُ ميتاً, وما يلد على التمام والكمال؛ وكلُّ شيء بقدر محدود لا يتخطَّاه.

. وفي المقتطف: {اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى} أي ما تحمله كلُّ أنثى في بطنها على أيِّ حال هو، من الأحوال الحاضرة والمترقَّبة {وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} أي وما تنقصه وما تزداده في الجثة، كالخديج (أي الناقص) والتامِّ؛ وفي المدة, كالمولود في أقل مدة الحمل, وفي أكثرها، وفيما بينهما؛ وفي الصفة من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك.

{وَكُلُّ شَيْءٍ} من الأشياء {عِندَهُ} سبحانه {بِمِقْدَار} بقدر لا يجاوزه، ولا ينقص عنه, كقوله سبحانه: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَر} [القمر: 49], فإنه تعالى خصَّ كلَّ حادث بوقت، وحال معيَّنين، وهيأ له أسباباً تقتضي ذلك[1].

(217) {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال} [الرعد: 9].

وهو سبحانه يعلم ما غاب عن الأنظار, وما ظهر للبشر, وهو العظيم

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 12/3.

المتعالي على كلِّ شيء, وهذا بيانٌ لكمال علمه سبحانه, وكمال قدرته.

. وفي المقتطف: {عَالِمُ الْغَيْبِ} الغائب عن الحق {وَالشَّهَادَةِ} الحاضر له، عبَّر عنهما بها مبالغة، وقيل: أُريد بالغيب المعدوم, وبالشهادة الموجود، وهذا كالدليل لما قبله من قوله تعالى: {اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى}.

{الْكَبِيرُ} العظيم الشأن الذي كلُّ شيء دونه {الْمُتَعَال} المستعلي على كلِّ شيء بقدرته بذاته، وسائر صفاته سبحانه، والمنزَّه عن نعوت المخلوقات(1).

(218) {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَار} [الرعد: 10].

أي يستوي في علمه تعالى, ما أضمرته القلوب, وما نطقت به الألسنة, يعلم من هَمَسَ بالكلام سرّاً, أو نطق به جهراً, ويستوي في علمه من هو مستتر في ظلام الليل يعمل القبائح, ومن يأتي بها في وضح النهار, لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد.

. وفي المقتطف: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ} أخفاه في نفسه ولم يتلفَّظ به {وَمَن جَهَرَ بِهِ} أظهره لغيره {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ} مبالغ في الاختفاء كأنَّه مختف {بِاللَّيْلِ} وطالب للزيادة {وَسَارِبٌ بِالنَّهَار} أي ظاهر فيه، من سرب سروباً, من باب قعد, ذهب في النهار، وقيل: إنه حقيقة في الظاهر(2).

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 12/3.

(2) المقتطف من عيون التفاسير: 13-12/3.

(219) {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَال} [الرعد: 11].

أي للإنسان ملائكة تتعاقب في حفظه, كالحَرَس في الدوائر الحكومية, يحفظونه من الأخطار والمضارّ, في الليل والنهار, بأمره تعالى وتدبيره, وفي الحديث الشريف: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل, وملائكة بالنهار, ويجتمعون في صلاة الصبح, وصلاة العصر...) الحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: (ما من عبد إلَّا ومَلَكٌ موكَّلٌ به, يحفظه في نومه, ويقظته, من الجن والإنس والهوامِّ). إنَّ الله تعالى لا يزيل نعمته عن قوم, ولا يسلبهم إيَّاها, إلَّا إذا انتهكوا محارمه, وبدَّلوا الشكر بالعصيان؛ وإذا أراد الله جلَّ وعلا هلاك قوم أو عذابهم, فلا يقدر أحدٌ على ردِّه, وليس لهم غيرُ الله تعالى من يدفع عنهم العذاب والبلاء.

ـ وفي المقتطف: {لَهُ} أي للإنسان لكلٍّ ممَّن أسرَّ أو جهر {مُعَقِّبَاتٌ} ملائكة تعتقب في حفظه، وكلاءته، يقال: عقَّبه، إذا جاء على عقبه، كأنَّ بعضهم يعقب بعضاً، بعضهم بالليل، وبعضهم بالنهار، يتعاقبون في حفظه، والتاء في المعقبة للمبالغة كالعلامة، لأن الملائكة غير مؤنَّثين، فمعنى معقِّبات جماعات, كلُّ جماعة منها معقبة {مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} أي محيطة به من جوانبه، من أمام الإنسان ومن ورائه {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي يحفظونه من

المضارِّ والأخطار بأمره تعالى، ويراقبون أحواله، وقيل: (مِنْ) هنا بمعنى (الباء) أي بأمر الله تعالى، وفي الصحيح: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر... الحديث) أخرجه البخاري ومسلم، وذكروا أنَّ مع العبد، غير الملائكة الكرام الكاتبين، ملائكة حفظة.

واستشكل أمر الحفظ بأن المقدَّر لا بدَّ أن يكون، فالحفظ لأيِّ شيء؟

وأجيب: بأن من القضاء والقدر ما هو معلَّق، فيكون الحفظ منه، يقال: إنه جلَّت عظمته جعل أولئك الحفظة أسباباً للحفظ، كما جعل الجفن للعين سبباً لحفظها.

أقول: أي من الغبار وغيره، فعليكم أيها المؤمنون أن تحفظوا قلوبكم من الأغيار كما تحفظون أعينكم من الغبار.

والعلمُ بأنَّ أفعاله تعالى لا تخلو عن الحِكَم والمصالح على الإجمال مما يكفي المؤمن، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم موجودون بالنص، وقد جعلهم تعالى حفظةً لأعمال العبد، ونحن نؤمن بذلك، وإن لم نعلم ما قلمهم؟ وما مدادُهم؟ وما قرطاسهم؟ وكيف كتابتهم؟ وما حكمة ذلك؟ مع أنَّ علمه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب.

ثم إنه سبحانه بعد أنْ ذكر إحاطة علمه بالعباد، وأنَّ لهم معقِّبات، نبَّه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ} من النعمة والعافية {حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة،

ومن الأعمال الصالحة والملكات التي فطر الناس عليها[1] إلى أضدادها, لا مجرد تركها.

واستشكل ظاهر الآية بما قررته الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة, ومنه قوله سبحانه: {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: 25], وقوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده, يوشك أن يعمَّهم الله سبحانه بعقاب) أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه رحمهما الله تعالى.

والحقُّ أنَّ المراد أنَّ ذلك عادة الله تعالى الجارية في الأكثر، لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدُّم ذنب منهم.

{وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ} فلا ردَّ له، والسوء يجمع كلَّ ما يسوء الإنسان من مرض، وفقر، وغيرهما من أنواع البلاء {وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ} سبحانه {مِن وَال} ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء، وفيه إيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيَّروا ما بأنفسهم من الفطرة، فاستحقُّوا حلول غضب الله تعالى وعذابه[2].

(**220**) {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَاب} [الرعد: 19].

---

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلُّ مولود يولد على الفطرة...) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى. وفي رواية الإمام الطبراني رحمه الله تعالى: (ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام...)

(2) المقتطف من عيون التفاسير: 3/13-14.

أي هل يستوي من آمن بالقرآن الذي جئت به يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى, وصدَّق برسالتك, كمن هو أعمى البصيرة, يتخبَّط في ظلمات الضلال؟ لا يستوون عند الله تعالى, إنما يتَّعظ ويعتبر بآيات الله تعالى ذوو العقول السليمة, الذين تمسَّكوا بحصن الإيمان. ثم شرع في بيان أوصاف السعداء, فقال سبحانه:

(221) {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاق} [الرعد: 20].

أي هؤلاء السعداء, هم الذين يؤدُّون حقوق الله تعالى . وهي أوامره ونواهيه التي وصَّى بها عباده . ولا ينقضون العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم.

(222) {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَاب} [الرعد: 21].

فهذا هو الوصف الثاني, أي يصلون الأرحام التي أمر الله تعالى بصلتها, ويهابون ربهم جلَّ وعلا فيخافون عذابه, ويخافون العذاب المهين الذي أعدَّه الله تعالى للفجار, فهم لخوفهم من الله تعالى جادُّون في طاعته. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(223) {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار} [الرعد: 22].

هذا هو الوصف الثالث, والمعنى: والذين صبروا على المكاره والشدائد

في الجهاد وغيره, طلباً لمرضاة الله تعالى , وأدوا الصلاة المفروضة خير أداء, وأنفقوا في سبيل الله تعالى في الخفاء والعلانية, ويدفعون السَّفاهة بالحلم, والأذى بالصبر, والعمل السيِّئ بالعمل الصالح, هؤلاء لهم العاقبةُ المحمودة في الآخرة, وهي الجنَّة دار السرور والحبور. ثم فسَّرها تعالى بقوله:

(**224**) {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَاب} [الرعد: 23].

أي هي جنَّات إقامةٍ خالدة, يدخلها أولئك الأبرار, ويدخلها الصالحون من آبائهم, ونسائهم, وأولادهم, ليأنسوا بلقائهم, ويتمَّ بهم سرورهم, زيادة في تكريمهم, وملائكة الرحمن عليهم السلام يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنَّة, يهنئونهم ويسلِّمون عليهم.

(**225**) {سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار} [الرعد: 24].

يقولون لهم: سلامٌ عليكم بصبركم على المكاره والشدائد, فنعمتْ هذه العاقبة المحمودة عاقبة لكم, ونعمت الجنَّة دارُ السلام دارَكم! اللهمَّ ارزقنا مع أهل الجنَّة يا ربَّ العالمين.

(**226**) {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب} [الرعد: 28].

أي المؤمنون السعداء الذين يهديهم الله تعالى, هم الذين تأنس وتسكن قلوبهم بذكر الله تعالى, ويجدون حلاوة في ذكر ربهم جلَّ وعلا.

أقول: وبهذا يُفتح على المؤمنين في الطريق.

(**227**) {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب} [الرعد: 29].

وهؤلاء لهم الفرح والسرورُ, وما تقرُّ به أعينهم من النعيم في الآخرة.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**228**) {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} [إبراهيم: 38].

أي يا ربَّنا إنك تعلم سرَّنا وجهرنا, وأنت العالم بما في الضمائر, لا يخفى عليك شيء في هذا الكون, لا في الأرض, ولا في السماء؛ وغرض إبراهيم عليه السلام أن يرزقه الله تعالى الإخلاص والقبول, ويجعل باطنه خيراً من ظاهره.

(**229**) {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار} [إبراهيم: 48].

أي يوم تتبدَّل الأرض والسموات, فتتبدَّل هذه الأرض بأرض أخرى, وتتبدَّل السموات بسموات أخرى, وخرجت الخلائق جميعها من قبورهم فزعين, ومَثُلُوا بين يدي أحكم الحاكمين, الواحد القهَّار, الذي قهر الملوك والجبابرة والناس جميعاً, فأتوا ربهم جلَّ وعلا ذليلين خاضعين.

(**230**) {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَاد} [إبراهيم: 49].

أي وفي ذلك اليوم الرهيب, تبصر المجرمين مربوطين بالسلاسل والأغلال.

(**231**) {سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّار} [إبراهيم: 50].

أي ثيابهم التي يلبسونها من الزِّفت الأسود, المنتن الريح, الذي يحرق الجلود بحرِّه وشدَّته, وتغطِّي وتجلِّل وجوهَهم نارُ جهنَّم, مع الخزي والكآبة,

وجزاء المكر والاستكبار.

(**232**) {لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم: 51].

أي ليجازي الله تعالى كلَّ إنسان على عمله, يجازي المحسن بإحسانه, والمسيء بإساءته؛ إن حساب الله تعالى سريع, يحاسب جميع البشر في زمن قصير, لأنه لا يشغله شأن عن شأن.

(**233**) {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [إبراهيم: 52].

أي هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق, وليخوَّفوا بما فيه من الإنذار, وليتحقَّقوا بصدق أقواله, وليتَّعظ أصحاب العقول السليمة بآي الذكر الحكيم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**234**) {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: 61].

أي لو يؤاخذهم اللهُ تعالى بكفرهم ومعاصيهم, ويعاجلهم بالعقوبة, ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسان وحيوان, ولكنه تعالى رحيم بالعباد, يؤخرهم إلى وقت معيَّن تقتضيه الحكمة, (أو يرزقهم التوبة), فإذا جاء الوقتُ المحدَّد لهلاكهم لا يتأخرون بُرهة يسيرة من الزمن, ولا يتقدَّمون عليها, كما قال سبحانه: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [الكهف: 59].

(**235**) {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} [النحل: 66].

أي وإنَّ لكم في هذه الأنعام لعبرة وأيُّ عبرة, ففي تسخيرها ولبنها وما تأكلون من لحومها أعظمُ النِّعم والعبر, حيث نخرج لكم من بطون هذه الأنعام اللبن الخالص والنافع, من بين الروث ـ فضلات الطعام ـ والدم, هذا اللبن اللذيذ السائغ في الحلق, دون أن يغصَّ الإنسان بشربه, فكيف خرج هذا اللبن من بين الفضلات والدم دون أن يختلط بها, فسبحان الله ما أعظم قدرته, وألطف حكمته!.

(**236**) {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ

وَمِمَّا يَعْرِشُون} [النحل: 68].

أي وأوحى ربُّك إلى النحل (وحي إلهام), حيث أرشدها بالفطرة إلى طريقة صنع العسل, وجعل بيوتها هذه المواطن الثلاثة: في الجبال وكُواها, أو في بطون الأشجار, أو الأكوار التي يبنيها لها البشر.

(**237**) {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون} [النحل: 69].

ثم ألهمها أن تأكل من جميع الأزهار والثمار التي تشتهيها, لتخرج هذا العسل اللذيذ, المتنوِّع اللون والشكل, فمنه الأبيض والأحمرُ والأصفرُ؛ وفي هذا العسل شفاء لكثير من الأمراض الجلدية والباطنية, وفيها عبرة لقوم يتفكرون في عظيم قدرة الله تعالى؛ ومن نظر إلى النحل, وهي حشرات صغيرة تشبه الذباب, ورأى طريق صنع العسل, تأخذه الدهشةُ لهذه العجائب الغريبة, إذ كيف نظمت هذه البيوت؟ وكيف رتبت العمل فيها؟ هذه طائفة للبناء, وأخرى للتهوية, وثالثة لامتصاص رحيق الأزهار, وهناك حرس وجند للحماية والدفاع, وكأننا في ثكنة عسكرية, كل جندي فيها له عمل مخصوص, ثم بناء البيوت بشكل المسدس بطريقة هندسية عجيبة, لو اجتمع عليها مهندسو العالم لحارت أفكارهم في صنعها, فسبحان من فطرها على صنع ذلك كله, وإخراج العسل الذي هو دواء وعلاج لكثير من الأمراض!.

أقول: {فَاسْلُكِي} عبر بالتأنيث للتغليب, لأن اليعسوب . وهو ذكر

النحل. أقل, والله تبارك وتعالى أعلم.

(**238**) {وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِير} [النحل: 70].

تذكيرٌ بنعمة الخلق, أي والله جلَّ وعلا بقدرته, خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً, ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم, ومنكم من يعود إلى الهَرَم والخَرَف, حتى يصبح كالطفل في نقصان القوة والعقل؛ وهو تعالى العالم بتدبير الخلق, القادر على ما يشاء.

والمراد بأرذل العمر: الهرمُ, والشيخوخة, وما يرافقها من ضعف القوة, والنسيان, وسوء الحفظ, وقلة الفهم والإدراك, والبلاهة, ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله تعالى من الردِّ إلى أرذل العمر فيقول: (أعوذ بك من البخل, والكسل, وأرذل العمر, وعذاب القبر, وفتنة الدَّجال, وفتنة المحيا والممات) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**239**) {وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُون} [النحل: 71].

أي فاوت سبحانه بينكم في الأرزاق, هذا غني, وذاك فقير, وهذا سيِّد, وذاك مملوك, وليس الأغنياء يشاركون عبيدهم في ثروتهم ومالهم, حتى يصبحوا في الغنى والثراء سواء. وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في

أموالهم ونسائهم, فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟! أيشركون معه غيره ويجحدون فضل الله تعالى عليهم؟

(**240**) {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [النحل: 76].

هذا المثل للتفريق بين الإله الحق, وبين الصنم المعبود بالباطل, شبَّه تعالى الأصنامَ التي يعبدونها برجل أخرس أبكم, لا يتكلم ولا ينطق بخير, ولا يقدر على شيء بالكلية, أينما أرسلته لا يأتيك بخير, ولا يقضي لك حاجة.

{وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ} أي وهو ثقيلٌ عالةٌ على وليه وسيِّده, وحيثما أرسله سيِّدُه لم ينجح في مسعاه, لأنه أخرس بليد الذهن ضعيفٌ, هل يستوي هذا الأخرس, مع الرجل البليغ, المتكلم بأفصح لسان, المستنير بنور القرآن, وهو يأمر بالفضل, ويحكم بالعدل, ويسير على طريق مستقيم؟

وإذا كان العاقل لا يسوِّي بين هذين الرجلين, فكيف يمكن التسوية بين الإله الحق القدير, الحي العالم المتكلم, الهادي إلى الصراط المستقيم, وبين الصنم العاجز الذي لا ينطق ولا يقدر على جلب خير أصلاً؟ وهو مثلٌ في منتهى الإبداع والجمال.

(0) { وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل: 78].

تذكير بنعمة الحواسِّ, من (العقل والسمع والبصر), أي هو تعالى الذي

أخرجكم من أرحام أمَّهاتكم, وأنتم خلق ضعيف, لا تعرفون شيئاً أصلاً, فخلق لكم الحواسَّ التي بها تسمعون وتبصرون, وتعقلون, لتشكروه على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليكم, فالإنسان بأصل نشأته ضعيف, وقد أفاض عليه القويُّ العزيز, من فيوضات رحمته وعلمه, ما يجعله خليقاً بعمارة هذا الكون, من قوةٍ وقدرةٍ وعلم وذكاء, ولم يجعله كالحيوان, لا يدرك إلا شهوة المأكل والمشرب, أفلا يستحقُّ هذا الإله تبارك وتعالى أن يُعبد ويُشكر؟!

(241) {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

هذه من الآيات الجامعة المانعة, التي جمعت أصول الدِّين, والأخلاق, والآداب, والمعاملات, والتربية, والإصلاح, حتى قال عنها ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: (هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن, لخيرٍ يُمتثَل, ولشرٍّ يُجتنب, حيث تناولت جميع الفضائل والمكارم).

والمعنى: إنَّ الله تعالى يأمركم أيها الناس, بالعدل بين الخلق, والإحسان إلى جميع البشر, ويأمركم بمواساة الأقارب, وعون الضعفاء, والعطف على الفقراء والمساكين, وينهاكم ربكم جلَّ وعلا عن كلِّ قبيح من قول وعمل, وعن جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن, وعن سائر المنكرات المخلَّة بالمروءة والشهامة؛ يعظكم ربكم جلَّ وعلا ويؤدِّبكم بما شرعه لكم في القرآن العظيم, لتقفوا عند حدوده, وتجتنبوا ما حرَّم عليكم من الظلم والطغيان.

. وفي المقتطف: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ} فيما نزَّله تبياناً لكلِّ شيء {بِالْعَدْلِ}

بمراعاة التوسُّط بين طرفي الإفراط والتفريط, وهو رأس الفضائل كلِّها, ويندرج تحتها فضيلة الاعتقاد, كالتوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك, وفضيلة الأخلاق, كالجود المتوسِّط بين البخل والتبذير, والشجاعة المتوسِّطة بين التهوُّر والجبن, وفضيلة العمل, كأداء الواجبات المتوسِّطة بين البطالة والترهب, فظهر بهذه الأمثلة أنَّ العدلَ واجبُ الرعاية في جميع الأمور[1], ومن الكلمات المشهورة: (بالعدل قامت السموات والأرض), والعدل في الحقوق بالتسوية في الخصومة, وترك الظلم, وإيصال كلِّ ذي حقٍّ إلى حقِّه[2].

{وَالإِحْسَانِ} الإتيان بما أمر به على الوجه اللائق, وهو ما بحسب الكميَّة كالتطوُّع بالنوافل, أو بحسب الكيفية كما يشير إليه قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه, فإن لم تكن تراه, فإن الله يراك).

---

(1) العدل بين العبد وبين الله تعالى: إيثار حقِّ الله تعالى على حقِّ نفسه, بملازمة جميع الأوامر, والاجتناب عما نهى الله تعالى عنه؛ والعدل بينه وبين نفسه: منعها مما فيه هلاكها وإذلالها؛ والعدلُ بينه وبين الخلق: بذل النصيحة إليهم, وترك الخيانة معهم.

(2) روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما, أنَّ النبي صلَّى الله تعالى عليه وسلم قال: (إنَّ المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور, الذين يعدلون في حكمهم, وأهليهم, وما وُلُّوا) انتهى.

والإحسان في المكافأة أن تحسن إلى من أساء إليك؛ ومن الإحسان الشفقة على خلق الله, وأجلُّها صلةُ الرحم, ولذا أفرده بالذكر فقال: {وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} وهو تخصيص بعد التعميم اهتماماً بشأنه.

{وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء} عن الإفراط في متابعة القوة الشهوانية, كالزنى, فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها.

وقيل: الفحشاء ما قَبُحَ من الفعل, والقول, فيدخل فيه جميع الأفعال القبيحة, والأقوال المذمومة.

{وَالْمُنكَرِ} ما يُنكر شرعاً وعقلاً على متعاطيه في إثارة القوة الغضبيَّة.

{وَالْبَغْيِ} الاستعلاء والاستيلاء على الناس, والتجبُّر عليهم, وهو من آثار القوة الوهميَّة الشيطانيَّة, التي هي حاصلة من القوَّتين: الشهوانيَّة والغضبيَّة, وليس في البشر شرٌّ إلا وهو مندرجٌ في هذه الأقسام الثلاثة, ولذلك قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: (هي أجمع آية في القرآن, للخير والشر, ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة, لكفت في كونه تبياناً لكلِّ شيء).

{يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} بما يأمر وينهى {ژ ژ} طلباً لأن تتعظوا بذلك[1].

(**242**) {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 102]. اللهمَّ اجعلنا منهم يا ربَّ

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 151.150/3.

العالمين, بشفاعة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء السفهاء: إنما نزَّله روح القُدُس (جبريل الأمين عليه السلام) لتثبيت المؤمنين على الإيمان بأنه كلام الرحمن جلَّ وعلا, فالمؤمن يزيد إيمانه, والكافر يزيد كفره وضلاله.

(**243**) {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل: 110]. اللهمَّ اجعلنا من المرحومين.

أي ثم إنَّ ربَّك للذين هاجروا في سبيل الله تعالى بعدما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بأنواع العذاب, وصبروا على مشاقِّ الجهاد, محتسبين للأجر والثواب, فهؤلاء بشِّرهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنَّ الله تعالى سيغفر لهم ويرحمهم. اللهمَّ ارزقنا التوبة.

(**244**) {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [النحل: 111].

أي ذكِّرهم ذلك اليوم العصيب الرهيب, الذي لا ينفع فيه حسبٌ ولا نسب, ويأتي كلُّ إنسان وحيداً فريداً يجادل عن نفسه, سعياً في خلاصها من العذاب, وتعطى كل نفس جزاء ما عملت من صالح أو طالح, من غير بخس ولا نقصان, والتعبيرُ يوحي بشدة الهول في ذلك اليوم العسير, الذي يشغل فيه كلُّ إنسان بنفسه {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه} [عبس: 37].

(**245**) {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

تَعْبُدُون} [النحل: 114].

أي فكلوا يا معشر المؤمنين من نعم الله تعالى التي أباحها الله تعالى لكم, حال كونه حلالاً طيباً, ولذيذاً تحبه النفوس, واشكروا ربَّكم جلَّ وعلا على نعمه الجليلة, إن كنتم تعبدون ربكم سبحانه, لا تعبدون أحداً سواه. (إن لم تكونوا تعبدونه يهيئ لكم نار جهنَّم).

(**246**) {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُون} [النحل: 116].

أي لا تقولوا أيها المشركون: هذا حلال, وهذا حرام, لما تصفه ألسنتكم وتنطق به, بمجرد الرأي والهوى دون مستند شرعي, فإن التحليل والتحريم لله تعالى وحده, دون سائر الخلق, فمن حلَّل أو حرَّم شيئاً من تلقاء نفسه فقد كذب على الله تعالى, ومن كذب على الله تعالى فلن ينجح ولن يفلح.

أقول: وفي الآية تنبيه للمسلمين كي لا يقولوا قولاً مخالفاً للشريعة.

(**247**) {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيم} [النحل: 119].

أي ثم إن ربك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, للذين ارتكبوا القبائح عن جهل وسفه, ثم رجعوا إلى ربهم سبحانه وأنابوا, وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل, فإنه تعالى سيغفر لهم ويرحمهم.

والآية تأنيس لجميع العصاة (بسبب الطبيعة البشرية), وفتح لباب التوبة

أمام جميع الناس. قال بعض السلف: (كلُّ من عصى الله تعالى فهو جاهل).

وقال سفيان الثوريُّ رحمه الله تعالى: (جهالتُه أن يلتذَّ بهواه, ولا يبالي بمعصية مولاه), وهذا معنى قوله سبحانه: {عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} أي جاهلين غير عارفين بالله تعالى وبعقابه (وبعظمته), وغير متدبرين لسوء العاقبة. اللهمَّ ارزقنا التوبة. تبت عما صدر منا مخالفاً لرضاك بسبب الطبيعة البشرية, ونطلب من رحمتك العفو.

(**248**) {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: 128].

أي إن الله جلَّ وعلا مع المؤمنين المتقين بعونه ونصره, ومع المحسنين بحفظه ورعايته, ومن كان الله تعالى معه فلن يضرَّه كيدُ الكائدين!

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**249**) {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} [الإسراء: 13].

أي كلُّ إنسان محبوسٌ بعمله ومجزيٌّ به, وعمله ملازمٌ له كالطوق في العنق, لا ينفك عنه, ويوم القيامة نخرج له كتاب أعماله, فيرى فيه حسناته وسيئاته.

(**250**) {اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: 14].

ويقال له: اقرأ كتاب أعمالك, كفى بك اليوم أن تكون شاهداً على نفسك, لا تحتاج إلى من يشهد عليك.

(**251**) {مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء: 15].

أي من اهتدى باتباع المرسلين عليهم السلام, فثواب اهتدائه له, هو الذي يقطف عاقبته الحميدة, ومن ضلَّ عن الحق, وزاغ عن سبيل الرشاد, فإنما يجني على نفسه, ولا يضر غيره, ولا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ, وما كنا معذِّبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل عليهم الصلاة والسلام مذكِّرين ومنذرين, فتقوم عليهم الحجة.

أقول: فلا يبقى للبشر عذر {قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149].

(**252**) {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: 36].

أي لا تتبع وتسلك ما لا علم لك به من قول أو فعل, كمن يسلك طريقاً لا يدري أين يوصله؟ فإن هذه الجوارح من سمع, وبصر, وقلب, ستسأل عنها يوم القيامة, لأنها أمانة استودعها الله تعالى عندك!

قال قتادة رحمه الله تعالى: (لا تقل رأيت ولم تر, وسمعت ولم تسمع, وعلمت ولم تعلم, فإن الله جلَّ وعلا سائلك عن ذلك كله). وفي الآية التحذير من إساءة الظن بالمسلمين, وعدم التسرُّع بالحكم على إنسان أو اتهامه قبل أن تتثبت من الأمر, وفي الحديث: (إياكم والظنَّ, فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

أقول: يمكن رأيت أو سمعت منه مخالفاً, وبعد برهة من الزمان تاب, وإذا تاب لم يبق شيء!

(**253**) {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} [الإسراء: 37].

أي لا تمشِ في الأرض مشية المختال المتكبِّر, المعجب بنفسه, فإنك أيها الإنسان ضعيف هزيل, لا يليق بك الكبرياء, فلن تستطيع بمشيتك أن تخرق الأرض فتقهرها وتشعرها بعظمتك, ولا أن تتطاول على الجبال فتصل إلى قممها وذراها, وفي الآية تهكُّم لاذع, وسخرية رائعة بالمتكبرين, وما أجمل قول القائل:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قومٌ همو منك أرفع؟

(**254**) {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [الإسراء: 38].

كلُّ ذلك المذكور الذي نهى الله تعالى عنه, كان عمله قبيحاً ومحرَّماً عند الله تعالى, فلا ظلم ولا عدوان, ولا تكبُّر ولا تجبُّر, ولا سلب لمال اليتيم المسكين.

(**255**) {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا} [الإسراء: 53].

أي وقل لعبادي المؤمنين يختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه, ويتركوا الكلام الفظَّ الغليظ الذي يوغر الصدور ويشعل نار الفتنة, فإن الشيطان اللعين يفسد الودَّ, ويهيِّج الشرَّ بينهم بالكلمة الخشنة التي يُفلت بها اللسان, وعداوته ظاهرة للإنسان من قديم الزمان, فليحذروا شرَّه ومكره وكيده.

(**256**) {... إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ...} [الإسراء: 60].

إنَّ ربَّك جلَّ وعلا أحاط علمه وقدرته بالناس, فهم في قبضته, وتحت قهره وسلطانه, فامضِ لأمر الله تعالى ولا تخف أحداً.

(**257**) {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً} [الإسراء: 86].

. قال في المقتطف: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} من القرآنِ الذي هو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين, ومنبع للعلوم, واللام الأولى موطئة للقسَم, و{لَنَذْهَبَنَّ} جوابه النائب مناب جزاء الشرط, فالمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن, ومحوناه من الصدور والمصاحف, وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة, إلا أنَّه تعالى قادرٌ عليه {ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ} أي بالقرآن {عَلَيْنَا وَكِيلاً} أي

من يتوكَّل استرداده مسطوراً محفوظاً(1).

(258) {إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} [الإسراء: 87].

. قال في المقتطف: {إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} أي إلا أن يرحمك ربُّك فيردَّه عليك, ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً, بمعنى: ولكن رحمةً من ربِّك تركتُه غير مذهوب به, فيكون امتناناً على رسوله صلى الله عليه وسلم, بإبقائه في صدره بعد المنَّة بتنزيله, وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه {إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} بجعلك رسولاً, وإنزال الكتاب عليك, وإبقائه في حفظك, وجعلك سيدَ ولد آدم عليه السلام, وختم النبيِّين بك, وإعطائك المقامَ المحمود, فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك بإبقاء العلم في صدرك, وإنزال القرآن عليك(2).

(259) {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء: 105].

. قال في المقتطف: {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} أي وما أنزلنا القرآنَ إلا ملتبساً بالحقِّ المقتضي لإنزاله, وما نزل إلا ملتبساً بالحقِّ الذي اشتمل عليه, ولعلَّ المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا} للمطيع بالثواب {وَنَذِيرًا} للعاصين بالعقاب(3).

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 222/3.

(2) المقتطف من عيون التفاسير: 222/3-223.

(3) المقتطف من عيون التفاسير: 232/3.

(**260**) {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً} [الإسراء: 106].

. قال في المقتطف: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ} أي نزّلناه مفرَّقاً ومنجَّماً دلالة على كثرة آياته {لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} على مهلٍ وتُؤدة, فإنَّه أيسر للحفظ وأعون على الفهم.

{وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً} حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة, وعلى حسب الحوادث, نزل به جبريل الأمين, على قلب خاتم المرسلين, وفيه الهدى والشفاء.

قال الراوي: اشتكى محمد بن السِّماك, فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب, فاستقبلَنا رجل حسن الوجه, طيب الرائحة, نقيُّ الثوب, فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب, نريه ماء ابن السِّماك, فقال: سبحان الله, تستعينون على وليِّ الله بعدوٍّ؟ ارجعوا إلى ابن السِّماك وقولوا له: ضعْ يدكَ على موضع الوجع, وقل: {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}, ثم غاب فلم نره, فرجعنا إلى ابن السِّماك فأخبرناه بذلك, فوضع يده على موضع الوجع, فقال ما قال الرجل, وعوفي في الوقت(1).

أقول: ليس في الدُّنيا مرشدٌ أفضل من القرآن, ما دام ليس في الدنيا من المخلوقات مرشد أفضل من القرآن, فعلينا جميعاً أن نقرأ القرآن بالتدبُّر, وأن نعمل بأحكام القرآن, ونتخلَّق بأخلاقه, ونتأدَّب بآدابه, ونتَّعظ بمواعظه,

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 232/3.

ونستشـفي بـه لقلوبنـا وأبـداننا {وَنُنَـزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاءِ وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: 82].

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**261**) {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} [الكهف: 1].

ـ قال في المقتطف: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} وفي وصفه تعالى بالموصول {الَّذِي أَنزَلَ} إيذان بعِظَم التنزيل الجليل, إذ عليه يدور فلَك سعادة الدارَين, وفي التعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبد, تشريفٌ له وتكريم, لأنه أعلى مراتب الفخار {وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} أي شيئاً من العِوَج؛ والعَوَج ـ بفتحتين ـ في الأجساد, خلاف الاعتدال, والعِوَج ـ بالكسر ـ في المعاني؛ والشخص يجب أن يكون كاملاً في ذاته, ثم يكون مكمِّلاً لغيره. وفي قوله تعالى: {وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} إشارة إلى كمال في نفسه(1).

(**262**) {قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف: 2].

ـ قال في المقتطف: {قَيِّمًا} إشارة إلى الثاني؛ لأنَّ القيِّم عبارة عن القائم بمصالح الغير, فالأرواح البشريَّة كالأطفال, والقرآن الكريم كالقيِّم الشفيق, أي قيِّماً بالمصالح الدينيَّة والدنيويَّة للعباد, على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير, فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال {لِّيُنذِرَ} أي لينذر الذين كفروا به {بَأْسًا} أي عذاباً {شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ} أي نازلاً من قِبَله

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 237/3.

تعالى, بمقابلة كفرهم {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ} أي المصدِّقين {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} التي بُيِّنت في تضاعيفه {أَنَّ لَهُمْ} أي بأنَّ لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة {أَجْرًا حَسَنًا} هو الجنَّة وما فيها من النعيم الخالد(1).

(**263**) {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الكهف: 7].

أي لقد جعلنا ما على وجه الأرض من زخارف ورياش وذهب وفضة ومعادن ومتاع, زينةً للأرض, كما زينا السماء بالكواكب, لنختبر الخلق أيهم أطوع لله تعالى, وأحسن عملاً وأزكى.

. قال في المقتطف: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ} أي إنَّا جعلنا ما عليها من الزخارف, والرياش, والذهب, والفضة, والنبات, والمعدِن {زِينَةً لَّهَا} ولأهلها, أي ليتمتَّع بها الناظرون, وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً, كما زيَّنَّا السماء الدنيا بالكواكب, فكلُّ ما على سطح الأرض من حيوان, ونبات, ومعدِن, هو زينة لها وابتلاء, كما أنَّ الأموال والأولاد زينةٌ أيضاً, كما قال سبحانه: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: 46].

{لِنَبْلُوَهُمْ} أي لنعاملهم معاملة مَنْ يختبرهم {أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} فنجازيهم بالثواب والعقاب حسب امتياز مراتبهم, علماً وعملاً, وحُسْنُ العمل: الزهد فيها, وعدم الاغترار بها, والقناعة باليسير منها, والتأمُّل في شأنها, وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها, والتمتُّع بها حسبما أذِنَ به الشرعُ, لا

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 3/237-238.

اتِّخاذها وسيلةً إلى الشهوات, والأغراض الفاسدة, كما يفعله الكفرة والفسقة[1].

(**264**) {... رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف: 10].

يا ربَّنا أعطنا من خزائن فضلك ورحمتك ما تثبت به قلوبنا أمام هذا الملك الغاشم, واجعلنا من المهتدين الراشدين.

(**265**) {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: 47].

أي اذكر حين نقلع الجبال من أماكنها, وترى الأرض مكشوفة ليس عليها ما يسترها من شجر أو بنيان, وجمعنا الخلائق كلهم للحساب والجزاء, فلم نترك أحداً منهم, فالكل في أرض المحشر بين يدي أحكم الحاكمين سبحانه.

(**266**) {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا} [الكهف: 48].

أي عُرضوا على ربِّ العزة والجلال صفوفاً, صفاً بعد صف, لا يحجبهم شيء, ويقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة, لا شيء معكم من الأموال والأولاد والأتباع, بل زعمتم يا معشر الكفار أن لا بعث ولا حساب, ولا جنة ولا نار. نعوذ بالله تعالى.

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 239/3.

(**267**) {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49].

أي وضعت صحائف أعمال البشر, وعرضت عليهم ليروا ما فيها, فترى حينئذ المجرمين خائفين مما فيها من الجرائم والذنوب, ويقولون متحسِّرين نادمين: يا هلاكنا وخيبتنا! ما شأن هذا الكتاب, لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها وضبطها علينا؟! وهذه مقالة المجرم الخائف من سوء العاقبة, ووجدوا ما فعلوه مكتوباً مثبتاً في الكتاب, ولا يظلم ربُّ العزة والجلال أحداً من خلقه.

. {يَا وَيْلَتَنَا}: ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله (أي الهلاك) كأنَّه قيل: يا هلاك أقبل[1].

(**268**) {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

أي قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لأولئك المشركين المكذبين لرسالتك: أنا لستُ بإلهٍ ولا بملِكٍ, وإنما أنا بشرٌ مثلكم, أوحى اللهُ تعالى إليَّ بهذا القرآن, لأبلِّغكم أن إلهكم إله واحد, فمن كان يرجو ثواب الله تعالى, ويخشى عقابه, فلْيخلص العبادة لله جلَّ وعلا وحده, ولا يرائي بعمله, فإن

---

(1) تفسير الألوسي: 291/15.

الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبيَّ الله! إني لأقف المواقف أبتغي وجهَ الله تعالى, وأحبُّ أن يرى الناسُ موطني, فسكت صلى الله عليه وسلم ولم يردَّ عليه شيئاً, حتى نزلت هذه الآية: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} رواه الحاكم ...

وجاء في الحديث الشريف: (إذا جمع الله تعالى الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه, نادى منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عَمِلَه لله تعالى أحداً, فليطلب ثوابه من عند غير الله, فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك) رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**269**) {... وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم: 31].

وأوصاني بالمحافظة على الصلاة, وأداء الزكاة, مدة حياتي.

(**270**) {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65].

أي هذا الإله العظيم الجليل, هو المالك لجميع ما في السموات والأرض, فاعبده يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, واصبر على مشقة العبادة وتكاليف الدعوة, ولا تحزن لتكذيبهم لك, هل تعلم لربك شبيهاً أو نظيراً؟ أي ليس له تعالى من يشابهه ويماثله في العظمة والألوهية والخلق.

أقول: وكذا ليس له جلَّ وعلا من يشابهه في الوحدة والوحدانية... {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير} [الشورى: 11].

(**271**) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: 96].

أي سيغرس لهم في قلوب عباده المودة والمحبة, يُحبِّبُهم إلى الناس, ويُحبِّب الناس إلى قلوبهم, فيجعل قلوب الخلق تميل إليهم, وفي لفظ الوُدِّ ما يشير إلى اللطف والأنس والحنان, روى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى, عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: يا جبريلُ إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه, فيحبُّه جبريل, ثم ينادي جبريل عليه السلام في أهل السماء: إن الله تعالى يحبُّ فلاناً فأحبُّوه, فيحبُّه

أهل السماء, ثم يوضع له القبول في الأرض. وإنَّ الله تعالى إذا أبغض عبداً, دعا جبريل عليه السلام فقال: يا جبريل إني أبغضُ فلاناً فأبغضه, فيبغضه جبريل عليه السلام , ثم ينادي في أهل السماء: إن الله تعالى يُبغض فلاناً فأبغضوه, فيبغضه أهل السماء, ثم يُوضع له البغضاء في الأرض).

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**272**) {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].

. على عروش الذرائر, بحيث لا يخرج عن حيطة علمه ذرة من الذرات.

الجيلاني قُدِّسَ سِرُّه.

هذا الخالق العظيم جلَّ وعلا, هو الذي استوى على العرش استواءً يليق بجلاله, من غير تشبيه, ولا تمثيل, ولا تعطيل, كما هو مذهب السلف الصالح.

أقول: أي بلا أين ولا كيف ولا كم... هذا هو مذهب السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

(**273**) {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [طه: 6].

أي له جلَّ وعلا ملكُ ما في الوجود, السموات السبعُ, والأرضون, وما بينهما من المخلوقات الكائنة في الجو, كالهواء, والسحاب, والطير, والمطر, وما تحت التراب من معادن, وكنوز, ومكنونات, الكلُّ ملكُه, وتحت تصرُّفه وقهره وسلطانه, فكيف يكون شأنُ هذا الخالق العظيم؟

(**274**) {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: 7].

أي وسواء جهرتَ بدعائك, أو أخفيته في نفسك, فهو عند الله تعالى واحد, يستوي عنده تعالى السرُّ والجهرُ, بل ما هو أبلغ من ذلك, يعلم الخاطر والهاجسَ الذي يدور في نفسك.

(275) {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [طه: 8].

ذلك الربُّ العظيمُ الجليل هو الله جلَّ وعلا الذي لا معبود بحق سواه, ذو الأسماء الحسنة, التي هي في غاية الحسن والكمال. والمقصود من الآية طمأنينةُ قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بأن ربَّه جلَّ وعلا معه يسمعه, ولن يتركه وحيداً يقاسي الأهوالَ في مجابهة أهل الكفر والطغيان, والقلبُ الذي يستشعر قرب الله تعالى منه, وعلمه بسرِّه ونجواه, يطمئنُّ ويرضى, ويأنس بهذا القرب الكريم.

() {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [طه: 75].

{وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا} به تعالى, وبما جاء من عنده من المعجزات {قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ} في الدنيا {فَأُوْلَئِكَ} أي فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات {لَهُمُ} بسبب إيمانهم وأعمالهم {الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} أي المنازل الرفيعة, وليس فيه ما يدلُّ على عدم اعتبار الإيمان, المجرَّد عن العمل الصالح, في استتباع الثواب؛ لأنَّ ما نيطَ بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوزُ بالدرجات العلى, لا بالثواب مطلقاً, وهل التَّشاجُرُ إلا فيه, فسائر الدرجات لا بدَّ أن تكون لغيرهم من أهل الإيمان[1].

() {جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى} [طه: 76].

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 349/3.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ} بدل من الدرجات {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي ماكثين في الجنان على الدوام {وَذَلِكَ} إشارة إلى ما أوتي لهم {جَزَاء مَن تَزَكَّى} أي تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي, بالإيمان والأعمال الصالحة, وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى(1).

أقول: لا بدَّ للمؤمن أن لا يخلو وقتُه من التوبة والاستغفار.

(**276**) {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: 82].

أي وإني لواسع المغفرة لمن تاب من ذنبه, وآمن بربه, وحَسُن إيمانُه وعملُه, ثم استقام على الهدى والصلاح. اللهمَّ ارزقنا.

(**277**) {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا} [طه: 108].

أي في ذلك اليوم الرهيب العصيب, يتَّبع الناسُ الداعيَ لهم إلى المحشر, وهو (إسرافيل) عليه السلام, حين ينادي أهل القبور للخروج منها فيقول: أيتها العظامُ النَّخرةُ, والأوصالُ المتفرِّقةُ, واللحوم المتمزِّقة, إن الله تعالى يأمركنَّ أن تجتمعن للحساب والجزاء, فتأتي سريعاً لا تزيغُ ولا تنحرف, وذلَّت وسكنتْ أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جلَّ وعلا, فلا تسمع إلَّا صوتاً خفياً يتهامسُ الناسُ به, لا يكاد يسمع!!

(**278**) {يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} [طه: 109].

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 350/3.

أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعةُ أحداً, إلّا لمن أذن الرحمنُ أن يُشفع له, وهو المؤمن الذي مات على الإيمان, وكان في الدنيا من أهل التوحيد, أمَّا الكافر فلا تُقبل فيه شفاعة, كما قال سبحانه: {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: 48].

(**279**) {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا} [طه: 112].

أمَّا من قدَّم الأعمال الصالحة طلباً لرضا الله تعالى, بشرط الإيمان, فلا يخاف ظلماً يقع عليه, ولا يُنقص شيئاً من حسناته, بل يأخذ جزاءه وافياً كاملاً شافياً. والظلمُ أن يعاقب بدون جريمة, والهضمُ أن يُنقص شيئاً من حسناته وثوابه. شرط تعالى لنجاة العبد يوم القيامة, شرطين أساسيين: **الأول**: الإيمان, وهو التصديقُ بكلِّ ما جاء في القرآن, **والثاني**: العمل الصالح الذي يكون خالصاً لوجه الله تعالى.

(**280**) {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132].

أي وأمر أهل بيتك بالمحافظة على الصلاة, واصبر أنت على أدائها بخشوعها, وأركانها, وآدابها؛ لا نسألك أن ترزق أحداً, بل نحن متكفِّلون برزقك ورزق الخلق؛ والعاقبة الحميدة لأهل التقوى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**281**) {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُون} [الأنبياء: 10].

أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب, كتاباً عظيماً نيِّر البرهان, فيه شرفُكم وعزُّكم ومجدكم, أفلا تدركون هذه النعمة, وتعقلون أن هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يأتي به رجل أميٌّ كمحمَّد صلى الله عليه وسلم, إنما هو تنزيلٌ من الرحمن الرحيم؟! وفيه توبيخٌ لهم على عدم التدبر.

(**282**) {... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُون} [الأنبياء: 35].

ونختبركم أيها الناس بالخير والشر, والشدة والرخاء, والفقر والغنى, والصحة والمرض, ليظهر الشاكر من الكافر, والبَرُّ من الفاجر, وإلينا مرجع جميع الخلائق للحساب والجزاء.

(**283**) {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين} [الأنبياء: 47].

أي ويوم القيامة نقيم الموازين العادلة, فلا يُظلم أحدٌ شيئاً من عمله, ولو كان العمل في غاية القِلَّة والحقارة بمقدار حبَّة الخردل, وكفى بربِّك أنْ يكون مُحصياً على عباده أعمالهم, مجازياً لهم عليها, والغرضُ التحذيرُ من الظلم والعصيان, فإن المحاسب بصير, والجزاء عسير.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**284**) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيم} [الحج: 1].

خطابٌ لجميع البشر إلى يوم القيامة. أي احذروا يا معشر الخلائق عقاب الله تعالى, واتقوا ربكم بامتثال أوامره, واجتناب نواهيه, فإن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة شيء مفزعٌ مخيف, لا يكاد أحدٌ يتصوَّر شدَّته وهولَه.

(**285**) {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيد} [الحج: 2].

أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي تكون فيه الزلزلة, تغفل وتنسى الأم المرضعةُ ولدها, وهو أعزُّ مخلوق لديها, وتُسقط كلُّ امرأةٍ حامل ما في بطنها من حمل من شدة الرعب والفزع, وترى الناس يومئذٍ سُكارى, يترنحون ترنُّح السكران, وما هم بسكارى من الخمر, ولكنه هولُ العذاب الذي ينزل بهم, مما يشيب له الولدان, وتطير له القلوب, هَلعاً وفزعاً.

رُوي أن الله عزَّ وجل يقول لآدمَ عليه السلام يوم القيامة: (يا آدمُ أخرجْ بعثَ النار من ذريتك, قال يا رب: وما بعثُ النار؟ . أي كم عدده ومقداره . قال: من كلِّ ألفٍ تسع مئة وتسعة وتسعون, فحينئذ تضع الحامل حملها, ويشيب الوليد {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ

شَدِيد} فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوههم, فقال لهم صلى الله عليه وسلم: من يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعة وتسعون, ومنكم واحد, ما أنتم في الناس, إلَّا كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود) رواه البخاري ومسلم.

أقول: السكارى على ثلاثة أقسام:

الأول: السكارى بحبِّ الدنيا, وهؤلاء عليهم أن يتركوا الحرص ويأخذوا بالأسباب ويتوكَّلوا على الله تعالى.

الثاني: السكارى بشرب الخمر, لا بدَّ أن يتوبوا ويستغفروا ويرجعوا إلى ربِّهم, ونرجو الله تعالى أن يعفو عنهم.

الثالث: السكارى بمحبة الله جلَّ وعلا, وهؤلاء لا بدَّ أن يقرؤوا القرآن الكريم بالتدبُّر, مع كثرة الذكر, ويتجنَّبوا عن المخالفات الشرعية.

(**286**) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: 5].

أي إن كنتم تشكُّون في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم, فانظروا في أصل خلقتكم ومبدأ نشأتكم, فقد خلقناكم من التراب, في ضمن خلق

أبيكم (آدم عليه السلام), ثم من النطفة وهي المنيُّ الذي يحصل من الغذاء, وهو ماء مهين, ثم من العلقة وهي شيء متجمدٌ من المنيِّ يعلق بجدار الرحم, ثم من المضغة وهي قطعة من اللحم صغيرة بمقدار اللقمة التي يمضغها الإنسان, هذه المضغة إمَّا أن تصبح مستبينة الخلق, يظهر فيها بعضُ الأعضاء, كالرأس, واليد, والرجل, أو غير مخلَّقة أي لم يسْتَبِن خلقُها, خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبيِّن لكم عظمة قدرتنا, وأنَّ من قدر على خلق الإنسان من التراب, وهو جمادٌ لا روحَ فيه, قادرٌ على إعادة الإنسان بعد فنائه, ثم بعد هذه الأطوار (النطفة, العلقة, المضغة) نثبت في أرحام الأمهات من نريد إحياءه وإيجاده, إلى أن يستكمل مدته, إلى وقت الوضع, وهو تسعة شهور, ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً.

{ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} أي ثم لتبلغوا كمال قوتكم ورشدكم, ومنكم من يموت في ريعان شبابه, ومنكم من يُعَمَّر حتى يصل إلى سنِّ الشيخوخة والهرم, فيضعف عقلُه, وتذهب قوتُه, وربما وصل إلى درجة الخَرَف, فعاد كما كان في إبَّان الطفولة, ضعيفاً في بدنه, وسمعه, وبصره, وسائر حواسه, فينسى ما عَلِمَه, وينكر ما عرفه, ويعجز عمَّا كان يقدر عليه, كما قال سبحانه: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُون} [يس: 68]؟ هذا هو حال الإنسان, يمرُّ في أدوار وأطوار, أفيعجز الذي خلقه في هذه الأطوار أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد مماته؟

أمَّا البرهان الثاني على إمكان البعث فهو النبات, وإليه الإشارة بقوله تعالى: {وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي وترى أيها المخاطب الأرض ميِّتة يابسة, لا زرع فيها ولا نبات, فإذا أنزلنا عليها المطر, دبَّتْ فيها الحياة, فانتفخت وزادت, وظهر فيها النبات والثمر, وأخرجت من كل صنفٍ عجيب, ما يسرُّ الناظر ببهائه, وحسن منظره, مع اختلاف الأشكال, والطعوم, والروائح, بعد أن كانت ميتة, فمن الذي أحياها بعد الموت؟

(**287**) {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظ} [الحج: 15].

أي من كان يزعجه ظهورُ دين محمَّد صلى الله عليه وسلم, من الكفار والفجار, ويعتقد بأن الله تعالى لن ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة, فليربطْ حبلاً في سقف بيته, ولْيقتلْ نفسه شنقاً, فلْينظر بعد ذلك هل يذهب ما في صدره من الغيظ والحقدِ على محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم, وهذا أسلوب سخريةٍ وتهكم بأعداء الإسلام, فإن الأحمق هو الذي يتشفَّى من عدوِّه بقتل نفسه, وذلك نهاية السَّفه والجهل!! والآيةُ أشارت إلى (الشَّنْق) الذي تستعمله بعضُ الدول بالمجرمين الكبار, وهي موتةٌ فظيعة شنيعة, لأن الروح تُزهق بالخنق شيئاً فشيئاً, ويبقى عنقه معلَّقاً بالحبل, وجسده يترنح فوق الأرض, جنَّبنا الله تعالى وإيَّاكم موتة السَّوء.

(**288**) {... وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِين} [الحج: 34].

وبشر الخاشعين الخاضعين لله جلَّ وعلا, بالفوز بالرضا وجنَّات النعيم.
ثم وضَّح تعالى صفات هؤلاء الخاشعين, المتواضعين لله تعالى, فقال:

(**289**) {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون} [الحج: 35].

أي هؤلاء المؤمنون الخاشعون لربهم سبحانه, هم الذين إذا سمعوا اسم الله تعالى الجليل خافت وفزعت قلوبهم, لإشراق نور جلاله عليها؛ والصابرين على المصائب والبلايا, ومشاقِّ التكاليف الشرعية, من صلاة وصيام وبُعدٍ عن المحرمات, والمحافظين على إقامة الصلاة, وينفقون بعضَ أموالهم, ابتغاء مرضاة الله تعالى.

(**290**) {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِين} [الحج: 37].

وبشِّر المحسنين بالسعادة الدائمة في جنان النعيم..

. {وَبَشِّرِ} يا أكمل الرسل عليه الصلاة والسلام {الْمُحْسِنِين} منهم, وهم الذين يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه, ويحسنون الأدب معه, كأنهم ينظرون إليه سبحانه وتعالى. جيلاني قُدِّس سرُّه.

(**291**) {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور} [الحج: 41].

أي هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله تعالى, هم الذين إن جعلنا لهم تملكاً واستعلاءً على المشركين في الأرض أقاموا شرعَ الله تعالى, فأدَّوا الصلاة على الوجه الذي يرضي الله تعالى, ودفعوا زكاة أموالهم للفقراء والمساكين,

وأَمروا بالخير, ونَهَوْا عن الشرِّ, فمنعوا المفاسد والمظالم الاجتماعية, ومرجعُ الأمور كلِّها إلى الكبير المتعال, ربِّ العزة والجلال.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**292**) {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون} [المؤمنون: 1].

الفلاحُ: هو الفوز بالمحبوب والمطلوب, أي لقد فاز المؤمنون بكلِّ خير, ونالوا مبتغاهم الذي يحبُّونه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

(**293**) {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُون} [المؤمنون: 2].

وهم الخائفون المتذلِّلون لربهم في صلاتهم.

(**294**) {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون} [المؤمنون: 3].

المعرضون عن الكذب والباطل وكلِّ ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

(**295**) {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُون} [المؤمنون: 4].

أي والذين يدفعون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين عن طيب نفسٍ منهم, طلباً لرضا ربهم.

(**296**) {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون} [المؤمنون: 5].

والذين يحفظون فروجهم وعوراتهم, عن الكشف والتعري, وعن الزنى والفواحش.

(**297**) {إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين} [المؤمنون: 6].

إلَّا عن طريق شريف أحلَّه الله تعالى, وهو (الزواج), أو (ملك اليمين), فإنهم في هذه الحالة غير مؤاخذين ولا ملومين.

(**298**) {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُون} [المؤمنون: 7].

أي فمن طلب غير ما أباح الله تعالى له من الزوجات أو المملوكات, فقد جاوز الحدَّ في الإجرام والعصيان, وقد استدل فقهاء أهل السنَّة بهذه الآية الكريمة على حرمة (نكاح المتعة), فإن المنكوحة بالمتعة ليست بزوجة, لأنها لا ترث ولا تورث, وليست مملوكة (ملك اليمين), وصاحب هذا الزواج من المعتدين بالنص القرآني, وقد حرَّمها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة خيبر, ويوم الفتح الأكبر (فتح مكة).

(**299**) {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون} [المؤمنون: 8].

أي إنهم يحافظون على الأمانات, ويرعون العهود, فإذا ائتمنوا لم يخونوا, وإذا عاهدوا أوفوا بالعهد, واللفظ يشتمل جميع الأمانات, سواء كانت مع الخالق أو المخلوق, فالصلاة أمانة, والزكاة أمانة, وكذلك سائر التكاليف الشرعية, والعهد مع الناس أمانة, والكفُّ عن عورات المسلمين أمانة, وردُّ الحقوق إلى أربابها أمانة.

(**300**) {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُون} [المؤمنون: 9].

مدح تعالى المحافظين على الصلاة, وليس في الآيات تكرار, لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها, وذكر هنا المحافظة عليها, وهما مختلفان, ثم قال تعالى:

(**301**) {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُون} [المؤمنون: 10].

أي هؤلاء الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة, هم الجديرون بوراثة جنَّات النعيم.

(**302**) {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُون} [المؤمنون: 11].

والفردوسُ أعلى منازل الجنَّة درجة, وفي الحديث: (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس, فإنه أعلى الجنَّة, ومنه تفجَّر أنهارُ الجنَّة) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى, وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحيُ, يُسمع عند وجهه كدويِّ النحل, فلبثنا ذات يوم ساعةً, فاستقبل صلى الله عليه وسلم القبلةَ ورفع يديه, وقال: (اللهمَّ زدنا ولا تنقصنا, وأكرمنا ولا تُهنَّا, وأعطنا ولا تحرمنا, وآثرنا ولا تؤثر علينا, وأرضنا وارضَ عنَّا) ثم قال صلى الله عليه وسلم: (لقد أنزل اللهُ تعالى عليَّ عشر آيات, من أقامهنَّ دخل الجنَّة) . أي من عمل بهنَّ . ثم قرأ: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون} حتى ختم العشر) رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى.

(**303**) {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِين} [المؤمنون: 12].

ذكر تعالى الأدلة والبراهين, على القدرة والوحدانية, فقال عزَّ شأنه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِين} السُّلالة: الخلاصةُ من الشيء, وهي ما يُستلُّ من الشيء ويُستخرج منه, والمعنى: واللهِ لقد خلقنا أباكم آدم عليه السلام من صفوة وخلاصة, استُلَّت من طين لا عَكَر فيه ولا كَدَر.

(**304**) {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِين} [المؤمنون: 13].

ثم جعلنا نسله نُطَفاً من أصلاب الآباء . وهو المنيُّ . يقذف به الرجل فيصير في حصن حصين (رحم الأم) مسكن الطفل ومستقره, إلى أن يخرج

إلى هذه الدنيا.

(305) {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: 14].

أي ثم صيَّرنا هذه النطفة (علقةً) تعلق بجدار الرحم, تشبه الدودة الصغيرة (علقة الماء), ثم صيَّرنا هذه العلقة (مُضْغة) أي قطعة لحم بمقدار ما يُمضغ في الفم, ثم صيَّرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة, لتصبح عموداً للبدن يرتكز عليها الجسم, وسترنا تلك العظام باللحم, وجعلناه كالكسوة لها, وشكَّلناها أشكالاً, ذات رأس, ويدين, ورجلين, وبطن, وشددناها بالعصب والعروق.

ثم بعد اكتمال أربعة شهور نفخنا فيها الروح, فجعلناه خلقاً آخر مختلفاً عن الخلق الأول, حيث صار إنساناً وكان جماداً, وناطقاً وكان أبكم, وبصيراً وكان أعمى, وسميعاً وكان أصمَّ, فتقدَّس وتنزَّه وتمجَّد ربُّ العزَّةِ والجلال, أحسنُ الخالقين خلقاً, وأعظم الصانعين صنعاً.

من نقطة صغيرةٍ من المنيِّ, ينطلق هذا الجيش الجرار من الأبطال الأشاوس (الحيوانات المنوية), واحدٌ منها لا يُرى بالعين, يلتقي مع رفيق حياته (البويضة), فيتكوَّن منه هذا الإنسان السميع البصير, فما أعظم قدرة الله تعالى, وما أبدع تدبيره! كيف انقلبت هذه النقطة من ماء مهين إلى إنسان عظيم كبير يتحرك ويتكلم ويقوم ويقعد ويتحدث ويخطب؟! ولو أن

إنساناً قال لك: رأيت نقطة ماء خرجت من بحر, ووقفت تخاطب الجماهير, بلسان صحيح فصيح, لقلتَ إنه مجنون! وهذه هي الحقيقة في خلق الإنسان, إنه من نقطةٍ من ماءٍ كريهٍ تشمئزُّ منه النفس {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِين * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِين * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُوم * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُون} [المرسلات: 23.20].

وهنا ندرك سرَّ عظمة الحديث القدسي, الذي يصوِّر لنا هذه الحقيقة جليَّة ناصعة, فقد كان صلى الله عليه وسلم ذات يوم مع أصحابه, فبسط كفَّه ثم بصق فيها, ثم وضع أصبعه عليها ثم قال: (يقول الله عزَّ وجل: ابنَ آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوَّيتك وعدلتك مشيتَ بين بُرْدَيْنِ وللأرض منك وئيد (أي ثِقَلٌ وصوت), فجمعتَ ومنعتَ, حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: أتصدَّقُ, وأنَّى أوانُ الصدقة) رواه الإمام أحمد وابن ماجه رحمهما الله تعالى.

ثم بعد هذه النشأة العجيبة تأتي المرحلة الأخيرة لنهاية الإنسان, فيقول سبحانه:

(**306**) {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون} [المؤمنون: 15].

أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة العجيبة في الخلق والتكوين, سائرون إلى الموت لا محالة.

(**307**) {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُون} [المؤمنون: 16].

ثم بعد النفخة الثانية تُبعثون من قبوركم للحساب والجزاء, والثواب

والعقاب..

(**308**) {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِين} [المؤمنون: 17].

أي خلقنا فوقكم أيها الناسُ سبع سموات, وما كنَّا مهملين أمر الخلق, بل نحفظهم وندبِّر أمرهم, وسميت السموات (طرائق) لأن بعضها فوق بعض, ولأن الملائكة تسلك طرقاتها.

(**309**) {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم} [المؤمنون: 51].

أي وقلنا للرسل: يا أيها الرسل كلوا من الحلال الطيِّب الذي خلقه الله تعالى لكم, وتقرَّبوا إلى الله تعالى بالعمل الصالح, مع إخلاص النيّة, فإني رقيب عليكم, مطَّلع على جميع أعمالكم.

. قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدِّين, وعليه نبَّه ربُّ العالمين, بقوله وهو أصدق القائلين: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}, فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل, ويقوى به على التقوى, فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدى, يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى؛ فإنَّ ما هو ذريعة إلى الدِّين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر أنوار الدِّين عليه. أمر بالأكل من الطيبات, وقيل: إن المراد به الحلال, والحرام خبيث وليس بطيب, فقد قرن عزَّ وجل أكل الطيبات بالعبادات[1].

(1) تفسير الإمام الغزالي قدس سره ص233.

(**310**) {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُون} [المؤمنون: 57].

بيانٌ لصفات أهل التقوى الذين هم من جلال الله تعالى وعظمته خائفون, ومن خوف عذابه وعقابه حذرون.

. قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُون} والمعنى: الذين هم من خشية ربِّهم دائمون في طاعته, جادُّون في طلب مرضاته, والتحقيق أنَّ من بلغ في الخشية إلى حدِّ الإشفاق, وهو كمال الخشية, كان في نهاية الخوف من سخط الله تعالى عاجلاً, ومن عقابه جلَّ وعلا آجلاً, فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي(1).

(**311**) {وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُون} [المؤمنون: 58].

والذين هم بآيات الرحمن يصدِّقون.

(**312**) {وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُون} [المؤمنون: 59].

والذين لا يراؤون في أعمالهم, بل يخلصون العمل والعبادة لوجه الله تعالى, وطلباً لرضوانه جلَّ وعلا. ولا يراد بالشرك هنا: نفي الشريك عن الله تعالى, لأن هذا داخل في الإيمان, ولكن يراد بالشرك هنا عدم النفاق والرياء.

(**313**) {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون} [المؤمنون: 60].

أي والذين يعطون العطاء, من صدقات وإحسان, ويتقرَّبون إلى الله تعالى بأنواع القربات والخيرات, وهم خائفون مشفقون أن لا يتقبَّل الله تعالى

---

(1) تفسير الفخر الرازي: 107/23.

منهم, لأنهم يؤمنون بلقاء ربِّ العزة والجلال, المحاسب والمجازي على الأعمال.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة . أي خوفاً من الله تعالى ., وإن الكافر جَمَع إساءة وأمناً).

وروى الإمام الترمذي وأحمد عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالت: يا رسول الله أهو الذي يزني, ويسرقُ, ويشرب الخمر, وهو يخاف الله عزَّ وجل؟ فقال لها: (لا يا بنتَ الصدِّيق! ولكنه الذي يصلِّي, ويصوم ويتصدَّق, وهو يخاف الله عزَّ وجل) أي يخاف أن لا يتقبل الله تعالى منه عمله الصالح.

(**314**) {أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُون} [المؤمنون: 61].

هؤلاء هم الفائزون بالجنان ورضا الرحمن, وهم الذين ينالون الكرامة والسعادة.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**315**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون} [النور: 27].

لما حذَّر تعالى من قذف المحصنات, وكان طريق هذا الاتهام هو الخلوة بالنساء, ومخالطة الرجال للنساء, أرشد تعالى المؤمنين إلى عدم دخول البيوت إلا بعد الاستئذان, لئلا تقع العين على حرمات المنزل, فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون} أي لا تدخلوا يا معشر المؤمنين بيوتاً غير بيوتكم, حتى تستأذنوا من أصحابها, وتسلِّموا على أهلها بتحية الإسلام المباركة (السلام عليكم ورحمة الله تعالى), وهذا الاستئذان والتسليمُ خيرٌ لكم من الدخول بغتة, وخيرٌ من تحية الجاهلية؛ يعظكم الله تعالى بهذه المواعظ لتتذكَّروا الآداب وتعملوا بموجبها.

(**316**) {فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم} [النور: 28].

أي فإن لم يكن في البيوت أحد ممن يأذن لكم, فاصبروا ولا تدخلوها, حتى يُسمح لكم بالدخول, لأن للبيوت حرمة, ولا يجوز اقتحامُها بدون إذن أهلها, وإذا اعتذر أهل الدار عن استقبالكم فارجعوا, ولا تلحُّوا في طلب الدخول, فقد يكون أهلُ الدار في شغل شاغل عن التفرغ للضيف, والإثقال

على الغير منافٍ للمروءة, ورجوعكم أطهر وأكرم لنفوسكم, وهو خيرٌ لكم عند الله تعالى وأزكى.

(317) {لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُون} [النور: 29].

أي ليس عليكم إثمٌ ولا حرج, أن تدخلوا بدون استئذان بيوتاً غير مسكونة, كالرباطات, والفنادق, والخانات, فيها منفعة لكم, لأن العلة, وهي الاطلاع على العورات, غير واردة في البيوت غير المسكونة, والإنسان يحتاج إلى الدخول إليها لمصالحه الشخصية, كالاستظلال من الحرِّ والبرد, ووضع الأمتعة, والاستراحة في السفر, وأمثال ذلك مما هو معدٌّ لمصالح الناس؛ والله جلَّ وعلا هو العالم بما تظهرونه وما تخفونه في صدوركم, من إرادة الخير أو السوء, فيجازيكم عليه, وهذا وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً لفساد, أو لاطِّلاعٍ على عورات النساء, في الحضر والسفر.

(318) {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون} [النور: 30].

أي قل لأتباعك المؤمنين أن يكفُّوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات ـ غير المحارم ـ فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة, وتجرُّ إلى بلاءٍ مستطير, وقل لهم أن يصونوا فروجهم عن الكشف, وعن مقارفة الفاحشة, فذلك أطهر لهم من دنس الريبة, وأتقى للدين, وأحفظ عن الوقوع في الفجور, إنه تعالى رقيب عليهم, مطَّلع على أعماهم.

وسبب نزول هذه الآية: (ما رُوي أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم, مرَّ بالطريق فرأى امرأةً فأُعجب بها, فنظر إليها ونظرت إليه, فوسوس لهما الشيطان أن كلًّا منهما معجبٌ بالآخر, فبينا الرجلُ يمشي وهو ينظر إليها, صَدَمه عمودٌ فشقَّ أنفه, فقال الرجل: واللهِ لا أغسل الدم عني حتى آتيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بأمري, فجاء فقصَّ عليه القصة, فقال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: (هذه عقوبةُ ذنبك), فأنزل الله تعالى الآية) رواه ابن مردويه عن علي رضي الله تعالى عنه.

(**319**) {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [النور: 31].

أي وقل للمؤمنات أيضاً أن يكففن أنظارهنَّ عن الرجال, ويحفظن فروجهن بالتصوُّن والعفة عن الزينة, والتستر عن الكشف للعورات, ولا يُظهرن زينتهن للأجانب, إلَّا ما ظهر منها بدون قصدٍ ولا نية سيئة, ولْيُلقين بخمرهنَّ ـ أي غطاء الرأس ـ على جيوبهن ـ أي فتحة صدورهن ـ لئلا يبدو شيء من

النحر والصدر.

كانت المرأة في الجاهلية تمرُّ بين الرجال مكشوفة النحر, بادية الصدر, حاسرة الذراعين, وربما أظهرت بعض مفاتنها لإغراء الرجال, وكنَّ يسدلن الخُمُر - أغطية الرأس - من ورائهن, فتبقى صدورهن مكشوفة, فأُمرت المسلمةُ أن تلقيه من قُدَّامها حتى تغطي صدرها, وتدفع عنها شرَّ الفجَّار, تقول السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: (يرحم الله تعالى نساء المهاجرات الأُوَل, لما أنزل الله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} شققْنَ مروطهنَّ - أي الأُزر, جمعُ مُرْط وهو الإزار - فاختمرن بها) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

{وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} أي ولا يُظهرن أجسادهن ومواضع الزينة, إلَّا لأزواجهن (البعولة), أو لآبائهن, أو آباء أزواجهنَّ؛ لأن الأب يصون عرض ابنته, ووالد الزوج يصون عرض ابنه, ثم عدَّد بقية المحارم, بذكر (الأبناء, وأبناء الأزواج, والإخوة الأشقاء, أو الإخوة لأب, أو لأم, وأبناء الإخوة, وأبناء الأخوات), وكلُّهم من المحارم, الذين يحرم على المرأة الزواج بهم.

وقوله سبحانه: {أَوْ نِسَائِهِنَّ} أي المسلمات. قال مجاهد رحمه الله تعالى: ليس المشركات من نسائهنَّ, وليس يحلُّ للمسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (هنَّ المسلمات, ولا

تبدي زينتها أمام يهوديَّة أو نصرانيَّة). وكتَبَ عمر رضي الله عنه إلى أبي عُبيدة رضي الله عنه أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمَّام مع المسلمات.

{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} أي من الإماء النساء, فإنَّ عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها, قال سعيد بن المسيِّب رحمه الله تعالى: لا تغرنَّكم سورة النور, فإنها في (الإماء) دون الذكور, أي الإماء المشركات, فيجوز للمسلمة أن تُظهر زينتها لها, وإن كانت مشركة لأنها أَمَتُها.

{أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} أي البُلْه من الرجال, والمعتوهين, الذين لا يدركون العلاقات الجنسية.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: (هو الأبله الذي يريد الطعام, ولا يريد النساء, ولا يهمُّه إلَّا بطنُه), أو الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سنَّ الشهوة, ولا يعرفون أمور الجماع لصغر سنِّهم {وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ} أي ولا تضرب برجلها الأرض, لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال, فتتحرك شهوتهم نحو النساء, وإن كان سماع صوت خلخالها, الذي تلبسه في رجلها للأجانب حراماً, كان سماع صوتها بالغناء الماجن, بحيث يسمعها الأجانب, حراماً بطريق الأولى.

{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وتوبوا يا معشر المؤمنين من ذنوبكم, وامتثلوا أوامر ربكم, لتفوزوا بسعادة الواثقين, وتنالوا رضا

ربكم سبحانه وتعالى.

(**320**) {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [النور: 36].

لما ذكر تعالى هدايته لعباده المؤمنين, وضرب لهم المثلَ بالنور الذي جعله في قلوبهم, ذكر الأماكن التي يمكن أن يقبس منها الإنسانُ هذا النور, وهي المساجد.

والمعنى: في بيوت أمر اللهُ تعالى أن تُبنى وتُشاد, وأن يُعبد فيها الله جلَّ وعلا, بذكره, وتلاوة آياته, ومجالس العلم والتفقه في الدِّين, وأن يُنزَّه ويُقدَّس ويصلَّى فيها لله سبحانه في الصباح والمساء, وهي المساجد التي عمرت لعبادة الله تعالى, فهي مراكز العبادة والمعرفة, وهي معامل لتخريج العلماء والأبطال.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المساجد بيوت الله تعالى في الأرض, تضيء لأهل السماء, كما تضيء النجوم لأهل الأرض.

(**321**) {رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَار} [النور: 37].

أي يعبده في هذه الأماكن الطاهرة (المساجد) رجالٌ لا تشغلهم الدنيا ببهجتها وزخرفها عن طاعة الله تعالى, ولا يشغلهم البيعُ والشراء والتجارة عن الصلاة والزكاة وذكر الله جلَّ وعلا, يخافون يوماً رهيباً, تضطرب من شدة هوله قلوبُ الخلائق وأبصارهم, وتطيش لها أحلامهم. اللهمَّ احفظنا والمسلمين يا ربَّ العالمين.

(**322**) {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُون} [النور: 52].

أي ومن يطع أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم, ويخاف اللهَ تعالى إذا حصل منه شيء من الذنب, ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره, فأولئك هم الفائزون بالنعيم المقيم في جنَّات النعيم. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**323**) {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِين} [النور: 54].

أي قل لهم: أطيعوا الله تعالى بإخلاص النية وترك النفاق, وأطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستجابة لأمره والتمسّك بهديه, فإن أعرضتم عن طاعته فعلى الرسول ما كُلِّف به من تبليغ الرسالة, وعليكم ما كُلِّفتم من السمع والطاعة, وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم, وليس على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تبليغ أوامر الله تعالى, لا أن يضعَ الإيمان في قلوب الناس. ورسول الله بلَّغ عليه الصلاة والسلام.

(**324**) {... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم} [النور: 63].

فليخش هؤلاء المنافقين أن تنزل بهم محنة, أو ينالهم عذاب شديد مؤلم, بهذا العمل الذي يُفضحون به. نعوذ بالله.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**325**) {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: 1].

أي تمجَّد وتعظَّم وتكاثر خيرُ الله تعالى, الذي أنزل القرآن العظيم على عبده ورسوله محمَّد صلى الله عليه وسلم, ليكون نبياً للخلق أجمعين, منذراً لهم من عذاب الله تعالى!!

(**326**) {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2].

هذا الربُّ العظيم الذي أنزل القرآن, هو المالك لجميع ما في السموات والأرض, الكلُّ خلقُه وملكُه, وهو المنزَّه عن الزوجة والولد, لا كما قال اليهود والنصارى, حيث نسبوا إليه الولد, وليس معه إله, كما قال عبَدةُ الأوثان, وهو الذي أوجد كلَّ شيء بقدرته, مع الغاية في الحكمة والتدبير..

(**327**) {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30].

هذه شكايةُ الرسول صلى الله عليه وسلم لربِّه من قومه العُتاة الضالين, الذين بالغوا في إيذاءِ الرسول صلى الله عليه وسلم والسخرية منه, والطعن في القرآن.

والمعنى: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا ربِّ إنَّ قريشاً كذَّبت بالقرآن, وجعلته خلف ظهرها, وأعرضت عن استماعه, والعمل بآياته!!

وليس المقصود من هذا القول الإخبار بما قاله المشركون, بل المقصودُ تعظيمُ شكايته عليه الصلاة والسلام, وتخويف قومه, لأن الأنبياء إذا التجؤوا إلى الله تعالى, وشكَوْا قومهم لعظيم ما نالهم منهم, حلَّ بهم العذابُ, ولم يُمْهَلوا.

(**328**) {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: 58].

أي كنْ في جميع أمورك معتمداً على الله تعالى وحده, الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت, ونزِّه ربك جلَّ وعلا عمَّا يقوله أولئك الكفار الفُجَّار, من أن لله تعالى شركاء وأولاداً, وحسبُك أن الله سبحانه مطَّلع على أعمال العباد, يعلم ما يدبِّرونه لك من مكائد, وسيجازيهم عليها, فلا تخش من أحدٍ من الخلق, فإنَّ الله جلَّ وعلا كافيك وناصرك.

(**329**) {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: 59].

أي هذا الربُّ العظيمُ الجليل, هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من الشمس والقمر والكواكب, في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا, لأنه لم يكن ثَمَّةَ شمسٌ ولا قمر, ولو شاء لخلقها بلمح البصر, ولكنْ أراد أن يعلِّم العبادَ التأنِّي في الأمور, كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله, من غير تشبيه ولا تمثيل, ولا تأويل ولا تعطيل؛ وهو سبحانه الرحمن الذي أفاض فنون رحمته على عباده, فاسأل

ربَّك العظيم الجليل عن صفاته القدسية يخبرك عنها, فالمراد بالخبير ربُّ العزة والجلال, الذي لا يعلمُ عظمته وجلاله إلا هو سبحانه, كقوله سبحانه: {وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: 14], لأنه العالم بالأشياء على حقيقتها.

(**330**) {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا} [الفرقان: 61].

أي تمجَّد وتعظَّم الله الكبير الجليل, الذي جعل في السماء تلك المدارات الهائلة, التي تدور فيها الكواكبُ العظامُ المضيئة, وجعل فيها الشمس المتوهِّجة في النهار, والقمر المضيء لأهل الأرض في الليل, والشمسُ سراج وهَّاج يتوقَّد في نفسه, والقمرُ جرمٌ مظلم يستمد نوره من الشمس, ولذلك غاير بينهما في الوصف فقال: {سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا} فوصَفَ الشمس بالسراج, والقمر بالنور, والنورُ لا يتوقَّد من ذاته.

(**331**) {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: 62].

أي وهو سبحانه الذي جعلَ الليلَ والنهار يتعاقبان على الدوام, يخلف كلٌّ منهما الآخر, يأتي النهار بضيائه, ثم يعقبه الليل بظلامه, هكذا دون انقطاع, لمن أراد أن يتذكَّر آيات الله تعالى الجليلة, ويتفكَّر في بدائع صنعه, أو أراد شكر الله تعالى على إحسانه ونعمائه!!

(**332**) {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا} [الفرقان: 63].

هذه إضافة تشريف, أي العباد الأبرار الذين يحبُّهم الله تعالى, والجديرون بالانتساب إلى الرحمن, هم الذين يمشون على الأرض بسكينة وتواضع, من غير تبختر ولا استكبار, لأن الإسلامَ قد هذَّبهم ورباهم؛ وإذا خاطبهم السفهاء, قالوا قولاً يسلمون به من الأذى والإثم, لا يجهلون على أحد, ولا يفحشون في كلامهم.

(**333**) {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} [الفرقان: 64].

أي يحيون الليل بالصلاة والعبادة, ساجدين لله تعالى على جباههم, أو قائمين له على أقدامهم, كما وصفهم تعالى في موطن آخر بقوله: {كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون} [الذاريات: 18.17], فهم فرسانٌ بالنهار, رهبانٌ بالليل, يجتهدون بعبادة ربهم تبارك وتعالى. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**334**) {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: 65].

أي وهم مع إحسانهم يبتهلون إلى ربِّهم جلَّ وعلا أن ينجيهم من عذاب النار {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} أي دائماً لازماً غير مفارق, لا ينقطع ولا يرتفع.

(**335**) {إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: 66].

أي بئست جهنَّم منزلاً ومسكناً لمن يدخلها.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل, فَرَقاً.

أي خوفاً . من عذاب جهنَّم, مع إيمانهم وصلاتهم بالليل, وهم خائفون مشفقون من نار جهنَّم. نعوذ بالله جلَّ وعلا.

(**336**) {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67].

هذا هو الوصف الخامسُ من أوصاف عباد الرحمن, والمعنى: إذا أنفقوا لم يكونوا مبذِّرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس, ولا بخلاء يقصِّرون ويضيِّقون في الإنفاق, بل هم وسطٌ معتدلون, وخيرُ الأمور الوسط, فكما أن التبذير مذموم, كذلك البخل والتقتير مذموم. قال مجاهد رحمه الله تعالى: لو أنفقت مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى ما كان سَرَفاً, ولو أنفقت صاعاً في المعصية كان سرفاً.

(**337**) {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان: 68].

هذا الوصف السادس, أي لا يعبدون مع الله تعالى إلهاً آخر, بل يوحِّدونه ويخلصون له الدِّين, ولا يقتلون النفس التي حرم الله تعالى قتلها, إلَّا بسبب الحقِّ الموجب قتلها, كالقصاص, أو الزنى بعد الإحصان, أو الردَّة عن الإسلام, أو السعي في الأرض بالفساد؛ ولا يرتكبون جريمة الزنى التي هي أفحش الجرائم وأقبحها, ومن يفعل تلك الموبقات العظيمة, من (الشرك, والقتل, والزنى) يلقى في الآخرة أشدَّ أنواع العقوبة والنكال. ثمَّ فسَّر هذه العقوبة فقال:

(**338**) {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} [الفرقان: 69].

أي يضاعف الله تعالى له العقوبة, ويُخلِّده في نار جهنَّم, مُهاناً حقيراً ذليلاً. وهذه الجرائم الثلاث: الشرك, والقتل, والزنى, أمهات الكبائر, كما ورد عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: (قلت: يا رسول الله! أيُّ الذنب أعظمُ عند الله تعالى؟ قال: (أن تجعل لله نِدّاً ـ أي شريكاً ـ وهو خَلَقك). قلت: إن ذلك لعظيم, قلت: ثم أيٌّ؟ قال: (أن تقتل ولدكَ خشية أن يَطْعم معك). قلت: ثم أيٌّ؟ قال: (أن تزاني حليلةَ جارك) ـ أي تزني بزوجة جارك ـ قال: ونزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...} الآية) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**339**) {إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان: 70].

أي إلَّا من تاب من ذنبه, وأحسن سيرته وعمله, فالله جلَّ وعلا يمحو له سوابق معاصيه بالتوبة, ويصرفه عن فعل السيئات إلى فعل الحسنات, وعن المعصية إلى الطاعة, وعن الفجور إلى التقوى, وهذا قولُ ابن عباس وابن جبير والحسن البصري رضي الله تعالى عنهم.

وقيل: إن السيئات نفسها تنقلب إلى حسنات بالتوبة النصوح, لما روي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني لأعرف آخرَ أهلِ النار خروجاً من النار, وآخر أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة, يُؤتى برجلٍ فيقال:

اعرضوا عليه صغار ذنوبه, فيقال: عملتَ يوم كذا, كذا وكذا, وعملتَ يوم كذا, كذا وكذا, فيقول: نعم, لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً, وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه أن تُعرضَ عليه, فيقال له: فإنَّ لك بكلِّ سيئة حسنة, فيقول يا ربِّ: عملتُ أشياء لا أراها هاهنا! فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذُه) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**340**) {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: 71].

أي ومن تاب توبة صادقة, وأصلح سيرته, فإن الله تعالى يقبل توبته, ويغفر زلَّته, ويكون مرضياً عند الله تعالى, وكأنَّ المعنى: يتوب توبةً صادقة, لا غشَّ فيها ولا زَغَل, فهذا معنى: {يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}. اللهمَّ اجعلنا من التوابين.

(**341**) {وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: 72].

أي والذين يجتنبون شهادة الزور, ولا يشهدون بالباطل, لأن فيها الكذب الصريح, حيث يشهد بغير الحق؛ وإذا مروا بمجالس اللغو, كمجالس القمار, والتهريج, وأماكن الفحش والفجور, والغناء المحرَّم الماجن, مرُّوا معرضين عنها, مكرِّمين أنفسهم عن تلك المجالس.

(**342**) {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان: 73].

هذا هو الوصفُ الثامنُ, أي والذين إذا وُعظوا بآيات الذكر الحكيم, لم يكونوا كالعُمي الصُّمِّ, لا يفهمون معناها, ولا يتأثرون بما فيها من القوارع والزواجر, بل يسمعونها بآذان واعية, وقلوب صافية, ويطبِّقون أحكامها.

(**343**) {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: 74].

أي يقولون طالبين من ربهم جلَّ وعلا الذريةَ الصالحة: يا ربَّنا أكرمنا بأزواج وبنين, تقرُّ بهم أعيننا, يكونون لنا مسرَّة وبهجة, يعملون بطاعتك, ويُخلصون في عبادتك؛ واجعلنا أئمة يُقتدى بنا في الخير؛ وغرضهم من هذا ليس طلب الذرية فقط, وإنما غرضهم أن يكونوا أولاداً صالحين, دعاةً إلى الخير, مستمسكين بالدِّين, فليست سعادةُ الإنسان بالأولاد للتباهي بكثرتهم, وإنما السعادة بأن يكونوا صالحين, يعمرون الدنيا بالطاعة والاستقامة على أمر الله تعالى, كما دعا زكريا عليه السلام: {رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 38], وهذه من أكبر النعم على العبد, الولدُ النبيهُ الصالح, الذي يُحيي ذكره, ويرفع قَدْره:

نِعَمُ الإلَـهِ على العِبـادِ كثيـرةٌ وأجلُّهُـــــنَّ نَجابَـــــةُ الأولادِ

(**344**) {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا} [الفرقان: 75].

أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات السامية, الحميدة الجليلة, هم الذين ينالون الدرجات العالية, في جنَّات الخلد والنعيم, ويُتلقَّون يوم القيامة بالتحية

والسلام, من الملائكة الكرام, كما أخبر سبحانه عنهم: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَاب * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار} [الرعد: 24،23], والمراد بالغرفة في الآية: الدرجةُ العالية الرفيعة, أعلى منازل الجنَّة. اللهمَّ أكرمنا وارض عنا.

(**345**) {خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: 76].

أي خالدين في الجنَّة, لا يموتون ولا يخرجون منها, حَسُنَت الجنَّة موضع سكنٍ وإقامة, أي ما أحسنها وأكرمها!

وصف الله تعالى عباده المتقين, الذين أضافهم إليه إضافة تكريم وتشريف, فقال عنهم: (عبادُ الرحمن), بعشر خصالٍ, كلُّها فضائل ومحامد, وهي: (التواضعُ, الحِلمُ, التهجُّدُ, الخوفُ من الله تعالى, تركُ الإسراف والبخل, عدم الإشراك بالله تعالى, النزاهة عن الزنى, اجتناب شهادة الزور, التأثُّر بآيات القرآن الكريم, طلب الذرية الصالحة)؛ ثم بيَّن جزاءَهُم الكريم, وهي الدرجة الرفيعة, وهي أعلى منازل الجنَّة وأفضلُها, كما أنَّ الغرفة أعلى مساكن الدنيا وأبهجها...

وختم السورة الكريمة باستغناء الله تعالى عن خلقه:

(**346**) {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان: 77].

أي قل لهم: ما يكترث ربِّي بكم, ولا يبالي بشأنكم, لولا دعاؤكم وعبادتكم له, فلولا ذلك لكنتم وسائر البهائم سواء؛ ولكنه سبحانه شفيق

بالعباد, ومن أجل ذلك أرسل إليكم الرسل, وأنزل عليكم الكتب, فقد كذبتم بما جئتكم به من عند الله تعالى, فسوف يكون عقابكم لازماً لا محالة, لكفركم وضلالكم وتكذيبكم لآيات الله جلَّ وعلا! نعوذ بالله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**347**) {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُون} [الشعراء: 88].

يوم لا ينفع أحداً ماله ولا أولاده.

(**348**) {إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيم} [الشعراء: 89].

إلا من جاء ربَّه جلَّ وعلا يوم القيامة بقلب نقي طاهر, سليم من الشرك والنفاق.

ـ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: {بِقَلْبٍ سَلِيم} خالص من الذنوب وحبِّ الدنيا, ويقال: سليم من بغض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[1].

(**349**) {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِين} [الشعراء: 90].

أي قُربت الجنَّة وأدنيت من أهلها ليدخلوها, مزيَّنةً بأبهى الزينة, بالحور والولدان, وبالملائكة وقوفاً على أبواب الجنان ليستقبلوا أهلها.

(**350**) {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين} [الشعراء: 192].

أي وإن هذا القرآن المعجز في بيانه, وتشريعه, وأحكامه, لتنزيل ربِّ الأرباب جلَّ وعلا.

(**351**) {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِين} [الشعراء: 193].

نزل به أمين السماء (جبريل) عليه السلام, من عند ربِّ العزة والجلال.

(**352**) {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِين} [الشعراء: 194].

---

(1) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ص310.

أي على قلبك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لتحفظه وتنذر به قومك وعشيرتك.

(**353**) {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: 195].

بلغةٍ عربية فصيحة صحيحة, لئلا يبقى لهم عذر لو أنزلناه بغير اللغة العربية, فيقولون عند ذلك: ما فائدة كلام لا نفهمه؟ وإنما قال: {عَلَى قَلْبِكَ} لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب, فنزل على قلبه مباشرة بطريق تلاوة جبريل عليه السلام.

. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إنَّ الله علَّمه القرآن وكتب معانيه في قلبه عليه الصلاة والسلام, ثم أوحى إليه بواسطة جبريل عليه السلام, وأمره بالبيان عن المسموع المعلوم بلسانه عليه الصلاة والسلام لأمَّته وأصحابه, كما قال سبحانه وتعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}[1].

آوِى دي كلامِ بسيط قديم حُرُوفُ ولُغَتْ حادِثِنْ أى حكيمْ[2]

أي الصفات الستة, والسابعة الكلام, أي كلام الله تعالى قديم, والحروف واللغات حادثة يا حكيم.

(**354**) {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214].

---

(1) تفسير الإمام الغزالي قدس سره ص246.

(2) نهج الأنام ـ بحث الصفات السبعة القديمة.

وخوِّف عشيرتك, الأقرب منهم فالأقرب, من عذاب الله تعالى, إن لم يؤمنوا.

ـ لما نزل قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وناداهم بطناً بعد بطن حتى قال .: (يا فاطمة بنت محمَّد صلى الله عليه وسلم, يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم, اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما شيئاً)[1].

** ** **

(1) والحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه, ورواه الإمام مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها. صحيح البخاري, كتاب التفسير, حديث رقم (4771). وصحيح مسلم كتاب الإيمان, في باب قوله: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ}. وانظر: تفسير الإمام الغزالي قدس سره ص246.

بسم الله الرحمن الرحيم

(**355**) {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون} [النمل: 3].

وهم المؤمنون الذين يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل, بآدابها, وأركانها, وخشوعها, ويدفعون الزكاة إلى مستحقيها, وهم بالآخرة يوقنون حقَّ اليقين, لا يخالجهم في ذلك شكٌّ ولا ارتياب.

(**356**) {أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُون} [النمل: 25].

أي أيسجدون للشمس والقمر, ولا يسجدون لله تعالى الخالق المدبِّر العظيم, الذي يعلم الخفايا والنوايا, ويعلم كلَّ مخبوء في العالم العلوي والسفلي, ويعلم السرَّ والعلن؟

(**357**) {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون} [النمل: 89].

أي من كان في الدنيا مؤمناً موحداً, وجاء يوم القيامة بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فإنه يُعطى جزاءه وافياً كاملاً, ويأمن من هول ذلك اليوم العصيب.

. {فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} يريد الإضعاف, وأن العمل ينقضي, والثواب يدوم, وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد الخالق جلَّ وعلا[1].

---

(1) تفسير الكشاف: 477/4.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(358) {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين} [القصص: 56].

أي إنك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم دالٌّ ومرشد, لا تستطيع هداية من أحببتَ من الناس, مهما بذلت فيه من مجهود, ولكنَّه تعالى هو الهادي يعلم من يستحقُّ الهداية فيهديه, ومن يستحقُّ الشقاوة فيضلُّه ويشقيه, فسلِّم أمرك إلى ربِّك جلَّ وعلا فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة...

وسبب نزول هذه الآية ما جاء في الصحيحين: (أنه لما حضرت أبا طالب الوفاةُ, جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل, وعبد الله بن أبي أمية, فقال: أيْ عمِّ - أي: يا عمِّ - قل: (لا إله إلا الله) كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله!! فقال أبو جهل: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه, ويعيدان عليه تلك المقالة, حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلَّمهم: هو على ملة عبد المطلب, وأبى أن يقول: لا إله إلا الله, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: واللهِ لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك.

فأنزل الله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ..} [التوبة: 113] وأنزل الله تعالى في أبي طالب هذه الآية, وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء..}) رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى.

أقــول: مـع هـذا فهـو في جهـنَّم لـيس مثـل الآخـرين, بـل هـو في ضحضاح... حرمةً للرسول صلى الله عليه وسلم...

والهداية ليست بيد العبد, بل بيد الله تعالى, بإرادته ومشيئته جلَّ وعلا, يعني ليس للعبد أن يهدي نفسه بنفسه, إلا بإرادة الله تعالى, وإذا سأل العبدُ الهدايةَ فإن الله جلَّ وعلا يعطيه, وعلامة الهداية توجُّه العبد إلى طاعة الله تعالى وعبادته, ولكن مع هذا لا نعتمد على عبادتنا, بل على فضل الله تعالى ورحمته. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن يُدخل أحداً عملُه الجنَّة, قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا, إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة...) رواه البخاري ومسلم.

(**359**) {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُون} [القصص: 59].

أي ما جرت سنة اللهِ تعالى في إهلاك أمَّةٍ من الأمم, حتى يبعث في عاصمتها وكبرى مدنها, رسولاً يحذرهم ويُبلغهم رسالة الله تعالى, لئلا يبقى لهم عذر؛ وما كنا لنهلك أهل بلدة, إلَّا وأهلها كافرون مكذبون لرسل الله عليهم الصلاة والسلام. وفي هذا بيان لعدله سبحانه, وتقدُّسه وتنزُّهه جلَّ وعلا عن الظلم {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون} [يونس: 44].

(**360**) {فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِين} [القصص: 67].

هذا تذكير لهم بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى, أي فأمَّا من تاب من كفره, وجمع بين الإيمان والعمل الصالح, فعسى أن يكون من الفائزين برضوان الله جلَّ وعلا, وجنَّات النعيم, و(عسى) من الله تعالى تفيد التحقيق, أي يكون حقاً من المفلحين.

(**361**) {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83].

أي هذه الجنَّة التي سمعتم خبرها, وبلغكم وصفُها, هي دار النعيم الخالد, التي لا تنغيص فيها ولا كدر, نجعلها للمؤمنين المتقين الذين لا يريدون التكبُّر والطغيان, ولا الظلم والعدوان في الدنيا, والعاقبة المحمودة للذين يخشون عذاب الله تعالى, ويطلبون رضوانه. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**362**) {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُون} [القصص: 84].

أي من جاء بالحسنة ضاعفها الله تعالى له أضعافاً كثيرة, إلى عشرة, أو سبعين, أو أكثر من ذلك, ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بمثلها, أي تكتب عليه سيئة واحدة دون مضاعفة ولا زيادة, وهذا من فضل الله تعالى على العباد أنَّ الحسنة يضاعف الله تعالى جزاءها, فضلاً منه ورحمة, وأن السيئة لا يُضاعف جزاءَها, كرماً منه وعدلاً جلَّ وعلا.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**363**) {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُون} [العنكبوت: 7].

أي أمَّا المؤمنون الصادقون, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فسينالون أحسن الجزاء, وأطيبه وأكرمه, والله تعالى يمحو عنهم الذنوب والآثام, ويثيبهم على طاعتهم لله جلَّ وعلا بأحسن الثواب, فَلْيطمئن المؤمنون العاملون, فالأمل مشرق, والجزاء طيب. اللهمَّ اجعلنا منهم, ونزِّه عبادتنا من الرياء ومن الأوصاف المخالفة.

(**364**) {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِين} [العنكبوت: 9].

كرَّر جزاء المؤمنين لتحريك النفوس إلى مراتبهم الرفيعة, أي والذين صدقوا في إيمانهم وأطاعوا ربَّهم سبحانه, لندخلنهم الجنَّة مع زمرة الصالحين..

(**365**) {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِين} [العنكبوت: 10].

ولما ذكر تعالى ما أعدَّه للمؤمنين من الأجر والمثوبة, ذكر حال المنافقين المذبذبين, فقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم آمنا بالله تعالى, فإذا أوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتدَّ عن الدِّين, وانسلخ عنه,

واعتبر فتنة الدنيا كعذاب الله جلَّ وعلا الشديد, سبباً صارفاً له عن الإيمان, فهؤلاء المنافقون يظنون الإيمان كلمةً هيِّنة تُقال باللسان, ويجعلون الانتساب إلى الإسلام, سلَّماً للمغانم والمكاسب, فإذا أصابتهم المحنةُ افتُتِنُوا وارتدُّوا, وانتكسوا إلى جحيم الضلال {وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أي ولئن كان للمؤمنين نصرٌ وغنيمة, قالوا: نحن مسلمون معكم, فأشْركونا في الغنيمة, فقد كنا نجاهد كما تجاهدون! قال تعالى ردّاً عليهم: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}؟ أي أليس الله جلَّ وعلا هو العالم بما في قلوب الناس من إيمان أو نفاق؟

(**366**) {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون} [العنكبوت: 57].

أي إن الموت لا بدَّ منه, ولن يُخلَّد أحد في هذه الدار, فإذا كانت مفارقةُ الوطن صعبة على النفس, فإنَّ مفارقة الدنيا آتية لا محالة, ثم إلى الله سبحانه المرجع والمآب. وكأن الآية تقول: اصبروا على الأذى والهجرة من الوطن, فأيام الدنيا قصيرة, وعند الله تعالى عوضٌ عمَّا يفوتكم من النعيم في الدنيا. اللهمَّ ارزقنا يا رب.

(**367**) {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين} [العنكبوت: 58].

أي والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح (الخالص المجرَّد عن الرياء والشهرة), لنسكننَّهم وننزلنَّهم قصوراً رفيعةً في الجنَّة, عوضاً عما فاتهم في الدنيا, تجري من تحت هذه القصور أنهارُ الجنَّة, مخلَّدين فيها إلى غير نهاية,

نعم هذا الجزاء أجراً للعاملين في مرضاة الله تعالى.

(**368**) {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون} [العنكبوت: 59].

أي هؤلاء الذين ينالون هذه المراتب الرفيعة, هم الصابرون على تحمُّل المشاقِّ في سبيل الله تعالى, المعتمدون على الله جلَّ وعلا في جميع أحوالهم وأمورهم, وإذا كان خاطر الرزق لمن هاجر من الوطن يتردَّد على فكر المؤمن, فإنَّ ربه سبحانه لن ينساه, فالذي رزق البهائم لن ينسى عبده المؤمن, ولهذا قال سبحانه: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم} [العنكبوت: 60].

(**369**) {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} [العنكبوت: 62].

أي يوسِّع الرزق على من يشاء, ويضيِّقه على من يشاء, ليظهر الشاكر والصابر, ويمتحن عباده بالغنى والفقر, وهو سبحانه العليم بمصالح العباد, فلو وسَّع الرزق للجميع طغوا وأفسدوا, كما قال سبحانه: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء} [الشورى: 27].

(**370**) {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون} [العنكبوت: 64].

أي وليست هذه الحياة الدنيا دائمة خالدة, بل هي ظلٌّ زائل, ومتاعٌ فانٍ, وما فيها من زينة وشهوات وملذات, يشبه اللهو واللعب, الذي هو من شأن الصبيان والسفهاء, لا من شأن العقلاء, فينبغي أن لا ينخدع بها المؤمن

{وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون} أي وإن الآخرة وما فيها من النعيم الدائم, هي الحياة الحقيقية السعيدة, لمن أراد الراحة والهناء, أمَّا الدنيا فهي دار البلاء, ولو كان عندهم علم وفهمٌ لم يُؤثروا دار الفناء على دار البقاء, وما أحسن قول القائل:

تأمَّــل في الوُجُــود بِعَــيْن فكْــرٍ   تَــرَى الــدُّنْيا الدنيَّــةَ كالخيــالِ

ومَــنْ فيهــا جَميعــاً سَــوْفَ يَفْــنَى   ويَبْقــى وجْــهُ ربِّــك ذُو الجَــلالِ

(**371**) {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين} [العنكبوت: 69].

أي والذين جاهدوا النفس والهوى والشيطان, وجاهدوا الكفرةَ أعداء الدِّين, ابتغاء مرضاتنا, لنبصرنَّهم بطريق الخير والسعادة الموصل إلينا, وإن الله تعالى مع المؤمنين المحسنين بالنصر والعون والهداية! قال البوصيري رحمه الله تعالى:

وجَاهدِ النَّفسَ والشَّيطانَ واعْصِهما   وإنْ هُمَــا محَّضَــاك النُّصْــحَ فَــاتَّهِمِ

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**372**) {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون} [الروم: 21].

أي ومن آياته الباهرة أيضاً أن خلق لكم من جنسكم وصنفكم, زوجات آدميات, ولم يجعلهنَّ من نوع القردة أو الجانِّ, خلقهنَّ من جنسكم ليتمَّ التعاون والتعارفُ, والتفاهم والتآلف, ولو جعل الإناث من جنس آخر كالقردة, أو الضباع, أو الحيوان أو الجان, لما حصل الائتلاف بين الأزواج {لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} أي لتميلوا إليهنَّ وتألفوهنَّ, فالمرأة سكن للرجل, يجد بجوارها الراحة والأنس والاستقرار {وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} أي وجعل بين الزوج والزوجة المحبَّة والشفقةَ.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (المودَّة): حبُّ الرجل امرأته, و(الرحمة): شفقته عليها أن يصيبها بسوء, ولولا هذه المودة والرحمة ما عطف رجل على امرأة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون} أي عِبَراً جليلة, لقوم يتفكرون في قدرة الله تعالى وعظمته, فيعرفون حكمته السامية.

(**373**) {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِين} [الروم: 22].

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} أي ومن آياته العظيمة, الدالة على كمال قدرته ووحدانيته, خلقُ هذا الكون البديع, خلق السموات في ارتفاعها واتساعها, وما فيها من (النجوم والشمس

والقمر), وخلقُ الأرض وما فيها من (الإنسان والحيوان, والبحار والأنهار, والشجر والثمر) {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ} أي لغاتكم من عربية, وتركية, وهندية, وإنجليزية, وغيرها من اللغات التي لا تحصى, {وَأَلْوَانِكُمْ} من أبيض, وأسود, وأصفر, وأحمر, حتى لا يشتبه شخص بشخص, ولا إنسان بإنسان, مع أنهم جميعاً من ذرية آدم {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} أي دلائل وعبراً لأولي العلم والفهم؛ خصَّ العلماء بالذكر, لأنهم أهل الاستدلال والنظر, دون سائر الخلق الذين لا يفهمون.

(**374**) {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41].

أي ظهرت البلايا والمحنُ, والكوارث والفتن, في برِّ الأرض وبحرها, بسبب معاصي الناس وذنوبهم, فما يصيب البشرَ من البلايا والنكبات, والأعاصير والفيضانات, والسيول المدمِّرة, والزلازل المخرِّبة, إنما ذلك كلُّه بسبب شؤم المعاصي, وبسبب الكفر والإشراك, ليذيقهم الله تعالى وبال بعض أعمالهم السيئة, لعلهم يتوبون عما هم فيه من المعاصي والآثام. اللهمَّ اجعلنا من التوابين.

. {ظَهَرَ الْفَسَادُ} وأنواع البليات والمصيبات الواقعة {فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} من الجدب والعناء والوباء والزلزلة وأنواع الحرق والغرق والضلالات الواقعة في السفن الجارية, مع أنَّ أصل الظهور والبروز باعتبار الفطرة الأصلية على العدالة والاستقامة, وإنما ظهر ما ظهر من الانحرافات والانصرافات المنافية

لصرافة الاعتدال الحقيقي الإلهي {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} أي بشؤم ما اقترفوا من الكفر والكفران والفسوق والعصيان والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على الاعتدال والقسط القويم. والحكمة في صدور هذه الانحرافات والفسادات منهم {لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} أي ليذيق لهم العليمُ الحكيم في الدنيا وبال بعض أعمالهم الفاسدة, ويبقى بعضها إلى الآخرة ليستوفيها؛ وإنما نذيقهم نبذاً منها عاجلاً {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون} إلينا بعدما ذاقوا من أنواع المحن والشدائد. تفسير الجيلاني قُدِّس سرُّه.

(**375**) {مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُون} [الروم: 44].

أي مَنْ كفر بالله تعالى فعليه وبالُ كفره, وهو النار المؤبَّدة, ومن آمن وعمل صالحاً, فإنهم يمهِّدون الطريق لأنفسهم, ويُهيئون الفراش المريح لهم, وهو الجنَّة دار الخلود والنعيم, وأصله من المهد أي الفراش, شُبِّه من يقدِّم الأعمال الصالحة, بمن يمهِّد فراشه, ويُهيِّئه للنوم عليه, وهو من لطيف الاستعارة.

(**376**) {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين} [الروم: 45].

أي ليجازيهم على إيمانهم وعملهم الصالح أفضل الجزاء وأكرمه, ويضاعف لهم الأجر, أمَّا الكافرون الجاحدون لنعمة الله تعالى, فلهم اللعنةُ ولهم سوء الدار.

(**377**) {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: 47].

تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم وتأنيسٌ له بقرب الفرج والنصر, والمعنى: لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أقوامهم, كما أرسلناك رسولاً إلى قومك, فجاؤوهم بالحجج الساطعات, والمعجزات الواضحات, فكذبوهم وسخروا منهم, فانتقمنا لهم من الكفرة المجرمين, وكان حقاً لازماً علينا نصرةُ عبادنا المؤمنين, وفي الآية تشريفٌ للمؤمنين, ومزيدُ تكرمةٍ لعباده الصالحين. اللهمَّ اجعلنا منهم ولا تؤاخذنا بما كسبت أيدينا, وأزل هذه الفتنة عن المسلمين.

قال في البحر المحيط: والآية اعتراض بين قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ} وبين قوله تعالى بعدها: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ} جاءت تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم, ووعداً له بالنصر, ووعيداً لأهل الكفر.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**378**) {... وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [لقمان: 15].

ثم أمرناه بسلوك طريق المؤمنين الموحِّدين: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} أي اسلك طريق من رجع إلى الله تعالى بالتوحيد والإخلاص في الطاعة {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} أي مرجع الخلق إلى الله تعالى فيجازيهم على أعمالهم. اللهمَّ ارحمنا.

(**379**) {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير} [لقمان: 16].

يقول لقمان عليه السلام: يا ولدي إنَّ الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة, حتى لو كانت بوزن حبَّة الخَرْدَل, وكانت في أخفى مكان وأضيقه, في أعماق الأرض, أو في أغوار السماء, فإن الله تعالى يحضرها ويحاسب عليها, لأنه سبحانه عالم ببواطن الأمور.

(**380**) {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور} [لقمان: 17].

أي يا ولدي حافظ على الصلاة في أوقاتها, بخشوعها وفروضها وآدابها, وادعُ الناس إلى كلِّ خير وفضيلة, وانههم عن كل شرٍّ ورذيلة, واصبر على المحن والبلايا والأذى الذي ينالك من الأشرار, لأن الداعي إلى الحق معرَّض

لإيصال الأذى إليه, فهذه الخصال من عزائم الأمور, التي حضَّ وحثَّ عليها ربُّ العزة والجلال.

(**381**) {وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور} [لقمان: 18].

أي ولا تمل خدك للناس تكبُّراً عليهم, وإعجاباً واحتقاراً لهم؛ ولا تمش في الأرض متبختراً متكبراً. والمرح في اللغة: البطرُ والخيلاء {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور} أي يكره كلَّ متكبِّر يرى العظمة لنفسه, يتبختر في مشيته, ويفخر على غيره. نعوذ بالله تعالى.

(**382**) {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِير} [لقمان: 19].

ولما نهاه عن الخُلُق الذميم, أمره بالخلُق الفاضل الكريم, فقال سبحانه: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِير} أي توسَّط يا بني في مشيتك, فامشِ بسكينة ووقار, فإن الإسراع مشية السفهاء, والبطء علامة الضعفاء, وكلاهما مذموم {وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ} أي اخفض صوتك عند الكلام فلا ترفعه عالياً, لأنه قبيح لا يجمل بالرجل العاقل؛ وإن أوحش الأصوات صوتُ الحمير, فمن رفع صوته فوق الحاجة فقد تشبَّه بالحمار.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات, فردَّ الله تعالى عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم الحمير).

وقال قتادة رحمه الله تعالى: (أقبح الأصوات صوت الحمير, أوَّله زفير وآخره شهيق), ولذلك ضرب الله تعالى المثل به, لبشاعته وشناعته.

(**383**) {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور} [لقمان: 22].

أي ومن يُخْلِص عمله لله تعالى, وينقاد لأمره وحكمه, وهو مؤمن صادق الإيمان, فقد تمسَّك وتعلَّق بأوثق حبال النجاة. والآية وردت مورد التمثيل, كأنه تمسَّك بحبلٍ متين لا ينقطع, كمن تدلَّى من شاهق إلى الأرض بحبل غليظ فسَلِمَ ونجا {وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور} أي إليه مصير جميع الأمور, فيجازي كلَّ عامل بعمله.

(**384**) {مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِير} [لقمان: 28].

أي ما خلقكم أيها الناس, ولا إحياؤكم بعد الموت, إلا كخلق نفس واحدة وإحيائها, فلا تستبعدوا قدرة الله تعالى على إحيائكم بعد فنائكم؛ إنه تعالى سميع لأقوال العباد, بصير بأعمالهم..

(**385**) {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير} [لقمان: 34].

أي إنَّ الله تعالى عنده معرفة وقت قيام الساعة, أي فناء الدنيا ومجيء يوم القيامة, وعنده معرفة وقت نزول المطر, ومحلُّ نزوله, ومقداره وعدد

قطراته, ويعلم جلَّ وعلا ما في أرحام الأمهات, هل هو ذكر أم أنثى؟ هل هو تامٌ أم ناقص؟ هل هو شقي أو سعيد؟ هل هو حسن أو قبيح؟

{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} أي ولا يدري أحد من البشر ماذا سيحدث في يومه أو غده, أخيرٌ أم شر؟ وماذا سيكون من أمره؟ وما يدري أحد بأيِّ بلد أو مكان تكون منيَّته, ولا أين يُدفن ويقبر؟ لم يقل سبحانه: (متى يموت) وإنما قال : {بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}, فإذا كان الإنسان لا يعرف بأي بلد سيموت, فإنه من باب أولى لا يدري وقت موته, ولا متى يموت {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} أي هو تعالى العالمُ بأحوال العباد, المطَّلع على خفايا ما في نفوسهم.

وهذه الآية هي مفاتح الغيب التي اختص الله تعالى بعلمها, كما ورد في الحديث الصحيح: (مفاتِحُ الغيب خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله تعالى, ثم تلا: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ...} الآية) أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

ولا يتعارض هذا مع ما يقوله علماء الأرصاد, من توقع نزول المطر غداً أو بعد غد, فإن هذا على وجه الظن لا القطع, ولكن هل يعرفون المقدار والكمية؟ وهل سينزل في الأيام المقبلة أمطار غزيرة تسبب فيضانات وسيولاً جارفة, وأعاصير مدمرة, ليأخذوا حذرهم واحتياطهم, فلا تتدمر المنازل والبيوت؟ ومثله الإخبار عن الجنين في بطن أمه عن طريق التصوير, فإن هذه رؤية بالآلات, ولا يعتبر من أنواع معرفة الغيب, والله تعالى أعلم, وصلَّى الله

تعالى وسلَّم على خاتم الأنبياء والمرسلين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**386**) {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُون} [السجدة: 4].

أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها, وأبدع خلق الأرض في عجائبها وتكوينها, وخلق ما بينهما من الشمس, والقمر, والنجوم, والرياح والسحاب, في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا, ولو شاء لخلقها بلمح البصر, ولكن أراد أن يعلِّم عباده التأنيَ في الأمور, كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} استواءً يليق بجلاله, من غير تكييف, ولا تشبيه, ولا تمثيل, ولا تعطيل, كما هو مذهب السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

. وقد انبسط على عروش عموم ما ظهر وبطن من الآفاق والأنفس بالاستقلال التام والتصرُّف العام على صرافة وحدته الذاتية بلا شائبة شركة وطرق كثرة كذلك. الجيلاني قُدِّسَ سِرُّه.

أقول: لكنه جلَّ وعلا خصَّ العرش بالذكر لكونه أعظم الأجسام.

{مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُون} أي ليس لكم أيها الناس ناصر ولا شفيع يشفع لكم عند الله تعالى, إلا بإذنه وإرادته, أفلا تسمعون هذه المواعظ فتتذكرون بها؟!

(**387**) {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُون} [السجدة: 18].

أي لا يتساوى المؤمنون الأبرار مع الفسقة الفجار, في الأجر والثواب, كما لم يتساووا في الدنيا بالأعمال والعبادة, فطريقهم في الآخرة مختلف, كما اختلفوا في الدنيا.

(388) {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون} [السجدة: 19].

النُّزل: الضيافة التي تُقدَّم للضيف, والمأوى: المسكن, أي أمَّا المؤمنون الأبرار, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فلهم جنَّات الإقامة والخلد, هي مسكنهم ودورهم, ضيافة وكرامة لهم من الله تعالى, بسبب ما قدَّموه من صالح الأعمال.

(389) {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون} [السجدة: 21].

أي ولنذيقهم من عذاب الدنيا بالقتل والأسر والقحط والمصائب والمحن, دون عذاب جهنَّم الأكبر, لعلهم يرجعون عن غيِّهم وضلالهم, ويتوبون عن الكفر والمعاصي. وقيل: العذابُ الأدنى: يُراد به عذاب القبر, وهو حقٌّ كما تواترت به الأخبارُ النبوية.

. {وَ} اللهِ {لَنُذِيقَنَّهُمْ} ونَصبَّنَّ عليهم في دار الابتلاء {مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىَ} الأنزل الأسهل, من القحط والطاعون والوباء والقتل والسبي والزلزلة, وأنواع المحن والبليات التي هي أدنى وأسهل بمراحل {دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ} أي عند عذاب الآخرة الذي هو في غاية الشدة ونهاية الألم والفظاعة؛ وإنما

أخذناهم بها {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون} مما هم عليه من الكفر والشقاق, ويتفطَّنون منها إلى كمال قدرتنا واقتدارنا على أضعافها وآلافها, ومع ذلك لم يتفطَّنوا ولم يرجعوا عن غيِّهم وضلالهم, بل أصروا واستكبروا عدواناً وظلماً. الجيلاني قُدِّسَ سِرُّه.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**390**) {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل} [الأحزاب: 4].

كانت العربُ تزعم أن اللبيبَ, الأديب, الأريبَ, له قلبان في جوفه, ولذلك قيل لجميل بن مَعْمر: (ذو القلبين), فردَّ الله تعالى هذا الزعم الكاذب, وجعله مثلاً لما بعده!.

ومعنى الآية: ما خلق الله تعالى لأحدٍ من الناس, سواء كان رسولاً, أو إنساناً لبيباً عادياً, قلبين في صدره, ولم يجعل الزوجات اللاتي تُظاهرون منهنَّ, بقول أحدكم لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي, لم يجعلها أماً؛ وما جعل أبناءكم من التبني, الذين هم ليسوا من أصلابكم, أبناءً لكم على الحقيقة, فالظهار منكر وحرام, ولكن لا تصير الزوجة أماً بهذه الكلمة, فالأم أمٌّ, والزوجة تبقى زوجة, وولدُ الغير من التبني لا يصبح ابناً بقول الرجل لولدٍ: أنت ابني, أرثك وترثني.

{ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل} أي دعاؤهم أبناء هو مجرد قول بالفم, لا حقيقة له من الواقع, فإن الولد المتبني مخلوق من صلب رجل آخر, ولا يمكن أن يكون لأحد أبوان من الرجال, والله تعالى يبيِّن ويوضِّح لكم الحق, وهو يرشدكم إلى الصراط المستقيم.

(**391**) {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 35].

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} أي المستمسكين بآداب الإسلام, المتخلّقين بأخلاقه, من الرجال والنساء.

{وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} أي المصدِّقين بآيات الله تعالى, وما أُنزل على رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام, من الفريقين: الذكور والإناث.

{وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} أي المداومين على الطاعات وفعل الخيرات.

{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} أي الصادقين في إيمانهم ونيّاتهم وأقوالهم وأفعالهم.

{وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ} أي الصابرين على المصائب والنوائب, وعلى فعل الطاعات, وترك الشهوات المحرَّمات.

{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ} أي المتواضعين بقلوبهم وجوارحهم لله عزَّ وجل.

{وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ} أي المحسنين إلى الفقراء والمساكين, المنفقين في سبيل الله تعالى.

{وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} أي الصائمين عن المآكل والمشارب لوجه الله تعالى, في رمضان وغيره.

{وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} أي يحفظون فروجهم عن الزنى, ويصونونها عن التكشُّف وإظهار العورات.

{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} أي المواظبين على ذكر الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم.

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} أي أعدَّ لهؤلاء المتقين الأبرار, المتصفين بجلائل الصفات, مغفرة لذنوبهم, وثواباً عظيماً هو الجنَّة, دار السرور والكرامة. وسببُ نزول هذه الآية ما رُوي أن (أم سلمة رضي الله تعالى عنها) قالت: يا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن, والنساء لا يُذكرْن؟ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...} رواه الإمام الترمذي والنسائي رحمهما الله تعالى.

وقد ذكر تعالى من صفات هؤلاء الأبرار صفات عشرة, وهي: (الإسلام, والإيمان, والقنوت, والصدقُ, والصبرُ, والخشوع, والتصدُّق, والصوم, وحفظ الفروج, وذكر الله جلَّ وعلا) وهي صفات أهل الإيمان واليقين, من الرجال والنساء, ونبَّه تعالى عن أن الرجال والنساء في التكاليف, والأوامر, والنواهي, سواء عنده تعالى, وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً, سواءً كان رجلاً أو امرأة.

(**392**) {..... وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا} [الأحزاب: 36].

أي ومن يعص أمر الله تعالى, ويخالف حكمه وحكم رسوله صلى الله

عليه وسلم, فقد ضلَّ ضلالاً واضحاً بيِّناً, وأخطأ طريق الحق والسعادة. وسبب نزول هذه الآية ما رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب (زينب رضي الله تعالى عنها) لمولاه (زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما), فاستنكفت عن الرضا به وأبت, وأبى أخوها (عبد الله رضي الله تعالى عنه) أن يزوِّجها إياه, لنسبها من قريش, وقد كان (زيد) عبداً مملوكاً, فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبنَّاه, فلما نزلت هذه الآية أذعنت زينب وقبلت به, وجاء أخوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله مرني بما شئت, قال: زوِّجها من زيد, فقال: سمعاً وطاعة, فزوَّجه إيَّاها. رواه ابن جرير. والحكم في الآية عام, وإن كان سبب النزول خاصاً, فإنه لا رأي ولا اختيار لأحد أمام أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

(**393**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [الأحزاب: 41].

أي اذكروا ربَّكم ذكراً كثيراً, بالليل والنهار, وبالسرِّ والعلن, فالذكرُ يحيي القلوب كما تحيا الأرض بالمطر, ونزِّهوه عما لا يليق به في الصباح والمساء, وليس المراد بالذكر مجرد تحريك اللسان بالتسبيح, والتحميد, والتهليل, بل هو اتِّصال القلب بالله جل وعلا, ومراقبته على الدوام, حتى لا ينسى الإنسان عظمة الكبير المتعال.

(**394**) {... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا} [الأحزاب: 52].

أي شاهداً على أعمالكم, مطَّلعاً على ما تضمرون وما تفعلون!! وفيه تحذيرٌ من مجاوزة حدوده سبحانه.

(**395**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا} [الأحزاب: 70].

أي راقبوا ربَّكم, واحذروا عقابه, بطاعتكم له, وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله تعالى.

(**396**) {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 71].

أي يوفِّقكم للعمل الصالح ويتقبَّله منكم, ويمحو عنكم الذنوب والأوزار, ومن يطع الله ـ جلّ وعلا ـ والرسولَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد فاز في الدارين فوزاً عظيماً, يعيش في الدنيا حميداً, وفي الآخرة سعيداً. اللهمَّ اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**397**) {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سبأ: 3].

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} أي وقال الكفار الفجّار: لا قيامة ولا بعث ولا نشور, ولا حساب ولا جزاء!! قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: أقسم لكم بجلالة الله تعالى وعظمته, لتأتينكم القيامة لا محالة, لأنها وعدٌ من الله تعالى لا يُخلف, لتتحقق عدالة الله تعالى في حساب البشر, كما قال سبحانه: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87]؟ **ثم ذكّرهم الله تعالى بعلمه الواسع فقال:** {عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي لا يغيب عنه مثقال الذرة ولا أصغر من الذرة, ولا أكبر منها, إلّا ويعلمه تعالى, وهو مسطّر عنده في اللوح المحفوظ, فكيف يخفى عليه أمر البشر وأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم؟ فالأجسادُ وإن تمزّقت واختلطت بتراب الأرض, فهو تعالى عالم بها, وسيعيدها يوم القيامة للحساب والجزاء.

(**398**) {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سبأ: 4].

أي ليثيب المؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا بأحسن الجزاء, فلهم

عند ربِّهم مغفرةٌ لذنوبهم, ورزقٌ حسن كريم في جنَّات النعيم.

(**399**) {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون} [سبأ: 36].

أي قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: إن توسعة الرزق أو تضييقه, ليس دليلاً على رضا الله تعالى على العبد, فقد يوسِّع الله تعالى على الكافر الفاجر, ويضيِّق على المؤمن الصالح, ابتلاءً وامتحاناً, فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد, دليل السعادة والمحبة, بل هي تابعة للمشيئة والحكمة, ولكنَّ أكثر الناس لا يدركون حكمة الله جلَّ وعلا.

(**400**) {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون} [سبأ: 37].

أي ليست أموالكم ولا أولادكم, التي تفتخرون بها وتكاثرون, تجعلكم من المقربين عند الله تعالى {زُلْفَى} أي قربة, إلا المؤمن الصالح, الذي ينفق ماله في سبيل الله جلَّ وعلا, ويعلِّم أولاده الخير, ويربِّيهم على التقى والصلاح, فإنَّ هذا الذي يقرِّب من الله سبحانه.

{فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون} أي هؤلاء المؤمنون المحسنون, هم الذين تُضاعف لهم الحسنات, وهم في منازل الجنَّة وقصورها العالية, آمنون من عذاب الله تعالى, ومن كلِّ سوء ومكروه.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**401**) {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم} [فاطر: 2].

أي ما يمنحه الله تعالى لأحدٍ من خلقه, من نعمة وصحة وعافية, أو أمن وعلم ورزق, فلا يقدر أحدٌ على إمساكه, وما يمسكه ويحبسه عنهم, فلا يقدر أحد على إعطائه, لأنه تعالى هو المتصرف في شؤون العباد {الْعَزِيزُ} أي الغالب على كل شيء {الْحَكِيم} الذي يضع الأمور في نصابها حسب الحكمة والمصلحة.

. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: هذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى, غير مضنون بها على أحد, ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرِّضة لنفحات رحمة الله تعالى, كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرَّضوا لها) أخرجه الطبراني في الأوسط, والتعرُّض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة[1].

(**402**) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُون} [فاطر: 3].

أي تذكَّروا نعم الله تعالى الجليلةَ عليكم, اذكروها بالشكر والثناء, والطاعة والاستجابة, هل هناك خالق غير الله تبارك وتعالى, يرزقكم من

(1) تفسير الإمام الغزالي قدس سره ص261.

السماء بإنزال المطر, ومن الأرض بإخراج الزرع والثمر؟ لا خالق ولا رازق لكم غيرُه تعالى.

{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُون} أي لا ربَّ لكم ولا معبودَ بحقٍّ, إلا ربُّ العزة والجلال, فكيف تُصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان, وهي أحقر من أن تخلق أو ترزق؟! والإفكُ بمعنى الكذب, سُمِّي إفكاً لأنه مصروف عن الحقِّ إلى الباطل.

(**403**) {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُور} [فاطر: 5].

كرَّر النداء للناس, ليحذِّرهم خطر عدوهم اللَّدود (إبليس) اللعين, الخبيث الماكر, والغَرُورُ . بفتح الغين .: اسمٌ للشيطان, لأنه يغرُّ الإنسانَ ويخدعه.

والمعنى: إنَّ وعد الله تعالى لكم أيها الناس بالبعث والجزاء والجنَّة والنار, حقٌّ لا شك فيه, فلا تخدعنَّكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة, ولا يخدعنَّكم الشيطانُ بما يوسوسه لكم, فإنه كذَّاب, خدَّاع, ماكر, يريد فتنتكم بفعل القبيح والفجور. نعوذ بالله.

(**404**) {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِير} [فاطر: 6].

أي إن الشيطان عدُّوكم فلا تمكِّنوه من أنفسكم, وعداوته قديمة لكم, لا تنتهي ولا تزول, فعادوه كما عاداكم, إنما يريد بدعوته لكم أن يقذف

بأتباعه والمطيعين له, في نار جهنَّم المستعرة!

قال بعض السلف: يا عجباً لمن عصى المحسنَ بعد معرفته بإحسانه, وأطاعَ اللعينَ ـ يعني الشيطان ـ بعد معرفته بعداوته.

(**405**) {وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: 11].

أي والله تعالى بقدرته خلق أصلكم آدم ـ عليه السلام ـ من تراب, ثم خلق ذريته من ماء مهين, هي النطفة, ثم خلق من هذه النطفة أزواجاً (ذكوراً وإناثاً), بطريق التَّزاوج, وما تحمل أنثى في بطنها من جنين, ولا تلده إلَّا بعلمه سبحانه, يعلم أطواره وأدواره {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي ما يطول عُمُرُ أحدٍ من البشر حتى يصل لسنِّ الهرم, ولا ينقص من عمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب, إلاَّ كان ذلك مسجَّلاً في اللوح المحفوظ, عند ربِّ العزة والجلال, لا يزاد عليه ولا ينقص, وذلك سهلٌ هيِّن على الله تعالى, لأنه تعالى أحاط بكل شيء علماً!

إن خلق الإنسان من تراب أظهر دليل وبرهان على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته, ولو فكر الإنسان في أصل نشأته, لعرف أن وجوده معجزةٌ من أعظم المعجزات, فالتراب جماد لا حياة فيه, وهو أصل تكوين البشر, ثم معجزة نفخ الروح لا تزال سراً مغلقاً على البشر, ما هي هذه الروح؟ كيف تكونت؟ كيف حدثت فجعلت من هذا الجماد بشراً سوياً؟ شيء غريب لا

يدركه أحد {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: 85].

(**406**) {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُور} [فاطر: 29].

أي إن الذين يقرؤون القرآن بتدبر وتأثر, وأتى بصيغة المضارع: {يَتْلُونَ} المفيدة للتجدد والاستمرار, لينبِّه تعالى أن من شأنهم المداومة والمواظبة على تلاوة القرآن {وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ} أي أدَّوها على الوجه الأكمل بأركانها وآدابها, وخشوعها, وفي أوقاتها؛ لأن لفظ الإقامة يدلُّ على الحسن والإتقان {وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً} أي أنفقوا بعض ما رزقناهم من الأموال, في سبيل الخير والإحسان, ابتغاء مرضاة الله تعالى في السر والعلن.

{يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُور} أي يرجون بعملهم الصالح تجارة رابحة لن تخسر ولن تكسد, بل هي رابحة على الدوام, لأنها تجارة مع الرحمن.

(**407**) {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُور} [فاطر: 30]. هذه آية القرَّاء.

أي ليوفيهم الله تعالى ثواب أعمالهم, ويزيدهم فوق أجورهم أضعافاً مضاعفة من فضله وكرمه وإحسانه, إنه تعالى مبالغٌ في الستر على عباده, شاكر لطاعتهم وإحسانهم.

(**408**) {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِير} [فاطر: 32].

{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} أي ثم أورثنا القرآن العظيم هذه الأمةَ المحمَّديَّة التي اخترناها على سائر الأمم, وخصصناهم بهذا النور المبين, وقد انقسموا أمام هذه (الوراثة الربانيَّة) إلى ثلاثة أقسام: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} أي فمنهم العاصي المقصِّر في طاعة الله تعالى, ومنهم المقْتَصِد, أي المتوسط في فعل الخيرات والطاعات, ومنهم السابق إلى مرضاة الله تعالى, المجِدُّ المجتهد في العبادة والطاعة وفعل الصالحات!! ذَكَر تعالى أقسامهم, ثم ذكر بعد ذلك مصيرهم وجزاءهم, فالفريق الأول (العصاة) هؤلاء أمرهم إلى الله تعالى, إمَّا أن يعذِّبهم ليطهرهم من الذنوب والأوزار, ثم يدخلَهم الجنَّة, وإمَّا أن يعفو عنهم بشفاعة النبي المختار صلى الله عليه وسلم, لأنهم من أمَّته, وقد ماتوا على الإيمان {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: 48]؛ وأمَّا المقتصد في عمله, والسابق إلى الخيرات؛ فهؤلاء من أهل الجنَّة. اللهمَّ اجعلنا منهم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**409**) {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم} [يس: 11].

إنما ينفع إنذارُك لمن آمن بالقرآن, وخشي الرحمن دون أن يرى ربَّه سبحانه, فبَشِّرْه بمغفرةٍ لذنوبه, وأجرٍ عظيم كريم, هو الجنَّة دار النعيم. اللهمَّ اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**410**) {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [الصافات: 60].

أي إنَّ هذا النعيم الخالد الدائم الذي أُعطيَه أهلُ الجنَّة هو الفوز الحقيقي العظيم الذي يسعد به الإنسان.

(**411**) {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُون} [الصافات: 61].

ولمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يتسابق المتسابقون, ويتنافس فيه المتنافسون, لا في حطام الدنيا الزائل. اللهمَّ طهِّر قلوبنا من حبِّ الدنيا, ومن كلِّ وصف يباعدنا عن مشاهدتك.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**412**) {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيم} [ص: 67].

أي هذا القرآن الذي جئتكم به أمر هامٌّ, وخبرٌ عظيم الشأن.

(**413**) {أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُون} [ص: 68].

لا تتفكَّرون به, ولا تعرفون قدره, فلذلك تُعرضون عنه!!

اللهمَّ اجعلنا من أهل القرآن الكريم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**414**) {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَاب} [الزمر: 10].

أي قل لعبادي المؤمنين: اجتنبوا محارم الله تعالى, وخافوا عقابه؛ لمن أحسن عمله في الدنيا السعادةُ الكبرى, وهي الجنَّة دار النعيم؛ وأرضُ الله تعالى فسيحة واسعة, فإذا لم تقدروا على عبادة الله تعالى في بلد, فهاجروا إلى بلدٍ آخر تعبدون فيه ربكم جلَّ وعلا, واصبروا على ما ينالكم من المكاره والشدائد في هجرتكم, فإن جزاء الصابرين لا يُحصى ولا يُحصر.. نزلت في (جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه) وأصحابه, حين عزموا على الهجرة من مكة إلى الحبشة فراراً بدينهم, والغرضُ التشجيع والتنشيط للهجرة.

(**415**) {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَاب} [الزمر: 18].

أي هم الذين يستمعون الحديث والكلام فيأخذون أحسن ما فيه, ويعملون به, فهؤلاء هم السعداء العقلاء المهتدون. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (هو الرجل يسمعُ الحسن والقبيح, فيتحدث بالحسن, ويستنكف عن القبيح, فلا يقوله ولا يتحدث به). والآيةُ ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم, وتمييزهم بين الخير والشرِّ, والحسنِ والقبيح. اللهمَّ اجعلنا ممن نوَّرتَ بصائرهم.

(416) {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [الزمر: 22].

أي هل من أنار الله تعالى بصيرته, وشرح صدره للإسلام فاستضاء بنوره واهتدى؟ وفي الآية محذوفٌ تقديره: كمن هو أعمى القلب مطموس البصيرة؟ ودلَّ على هذا المحذوف ما بعده, وهو قوله سبحانه: {فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ} أي فهلاك ودمار لهؤلاء القُساة القلوب, الذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند سماع آي الذكر الحكيم! أولئك في بُعْدٍ عن الحق, وضلالٍ واضح بيِّن, والنفسُ إذا كانت خبيثة لا يزيدها القرآن إلا قسوة وغِلظة, وشقاءً وخسراناً. نعوذ بالله.

(417) {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: 23].

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ} أي الله جلَّ وعلا هو الذي نزَّل القرآن العظيم {كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} أي يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة والبيان, وحُسن النَّظْم والسَّبْك.

{مَّثَانِيَ} أي تُثنى وتكرر فيه المواعظ والأحكام, والحلال والحرام, وتكرر فيه الأنباء والأخبار, دون سأم ولا مَلَل, كما جاء وصفه في الحديث الشريف: (هو الفصلُ, ليس بالهزل, لا يشبع منه العلماء, ولا يخلق على كثرة الرد) أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى؛ أي لا تزول روعتُه وجماله على

كثرة تلاوة آياته.

{تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} أي ترتعش وترتجف عند سماع آيات القرآن قلوبُ وأجسادُ المؤمنين, هيبة من كلام رب العالمين, وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات العذاب, ثم تطمئن وتسكن قلوبهم بكلامه جلَّ وعلا, وتأنس عند سماع آيات الرحمة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذه صفة الأبرار, عند سماع كلام الجبار؛ إذا قرؤوا آيات الوعد والوعيد تقشعر جلودهم من الخشية والخوف, وإذا قرؤوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم, لما يرجونه ويؤملونه من رحمته ولطفه تبارك وتعالى.

{ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد} أي هذه هدايةُ الله تعالى لعباده المتقين, وهذه علامة صدق إيمانهم, ومن يخذله اللهُ تعالى ويجعل قلبه قاسياً مظلماً فليس له مرشد ولا هادٍ بعد الله عزَّ وجل.

(**418**) {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون} [الزمر: 30].

أي إنك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ستموت, فلا خلود لأحد في الدنيا, وإنهم سيموتون, وستنتقلون جميعاً من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية.

(**419**) {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُون} [الزمر: 31].

أي وستجتمعون عند الله سبحانه للحساب, لينال كلٌّ منكم جزاءَه العادل. اللهمَّ عاملنا بفضلك.

(**420**) {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

أي أَخبِرْ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم عبادي المؤمنين, الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بارتكاب المعاصي والآثام: لا تيئسوا من رحمة الله تعالى, فالله جلَّ وعلا يغفر جميع الذنوب مهما عَظُمَت وكثُرت إذا تاب منها الإنسان, لأن الله تعالى عظيم المغفرة, واسع الرحمة!! اللهمَّ اغفر لنا وارحمنا.

(**421**) {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُون} [الزمر: 54].

أي ارجعوا إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة, واستسلموا له بالخضوع والطاعة والعمل الصالح, قبل أن ينزل بكم العقاب, ثم لا تجدون لكم من يمنعكم من عذابه.

(**422**) {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون} [الزمر: 55].

أي امتثلوا ما أنزله الله تعالى إليكم في هذا القرآن العظيم, الذي فيه أحسن الأحكام, التي بها سعادتكم وفلاحكم, من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون لا تدرون بمجيئه.

(**423**) {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِين} [الزمر: 56].

أي لئلا تقول بعض النفوس الغارقة في العصيان: يا حسرتي وندمي على تفريطي وتقصيري في حق الله تعالى وطاعته, وقد كنتُ من الساخرين المستهزئين بدين الله سبحانه!! قال قتادة رحمه الله تعالى: لم يكتف أن ضيَّع طاعة الله جلَّ وعلا حتى سخر من أهلها. نعوذ بالله.

(**424**) {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل} [الزمر: 62].

أي هو سبحانه الخالق لجميع الأشياء, والقائم على تدبيرها, لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

(**425**) {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون} [الزمر: 63].

أي بيده جلَّ وعلا مفاتيح خزائن كلِّ الأشياء, لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره, والكافرون بالله تعالى هم الأشقياء, الذين خسروا سعادتهم وآخرتهم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**426**) {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ} [غافر: 3].

الذي يعفو عن ذنوب العباد, ويقبل توبة المذنبين العصاة, الشديد العقاب لمن طغى وتجبَّر, ذي الفضل والإنعام على من آمن واهتدى, لا معبود بحقٍّ سواه, وإليه وحده مرجع الخلائق كلِّهم فيجازيهم على أعمالهم!! ذكر الله تعالى في هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف ذي العظمة والجلال: **الأول**: أنه غافر ذنوب العباد. **الثاني**: أنه قابل لتوبة من تاب إليه وأناب. **الثالث**: أنه شديد العقاب لمن طغى وفجر. **الرابع**: أنه المتفضِّل على العباد بأنواع النعم والكرم, لا لحاجةٍ إليهم, بل لمجرد أنه الربُّ (الرحيم الرحمن), ولهذا ختم الآية بقوله: {لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ}.

روي أن عمر رضي الله تعالى عنه افتقد رجلاً من أهل الشام كان يحضر مجلسه, فقال للصحابة رضوان الله تعالى عليهم: ما فعل فلانُ بن فلان؟ قالوا: يا أمير المؤمنين, تتابع في الشراب ـ الخمر ـ فلم نره منذ أيام, فدعا عمر رضي الله عنه كاتبه فقال: اكتب: (من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه, إلى فلان بن فلان, سلامٌ عليك, أمَّا بعد:

فإني أحمد إليك الله تعالى الذي لا إله إلا هو {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ} ثم قال لأصحابه: ادعوا الله تعالى لأخيكم أن يُقبل على الله تعالى بقلبه, ويتوب الله

جلَّ وعلا عليه!! فلما وصله كتابُ عمر رضي الله تعالى عنه, جعل يقرأه ويردِّده في نفسه ويقول: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ}, قد حذَّرني عقوبته, ووعدني مغفرته, فلم يزل يردِّدها على نفسه وهو يبكي, ثم تاب وحسنت توبته, فلما بلغ عمرَ رضي الله عنه خبرُه قال لأصحابه: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلة, فسدِّدوه وادعوا اللهَ تعالى له أن يتوب, ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه. ذكره ابن كثير في تفسيره.

(**427**) {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر: 7].

الحديث عن الملائكة المقرَّبين المحيطين بالعرش: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي حملة العرش يطلبون للمؤمنين المغفرة من ربِّ العزَّة والجلال, قائلين: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} أي يقولون: يا ربَّنا وَسِعَتْ رحمتُك وعلمُك كلَّ شيء, فاغفر لعبادك المؤمنين الذين استمسكوا بدينك الحقِّ, وتابوا عن الزلات والهفوات, ونجِّهم من عذاب جهنَّم الأليم.

. قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: فإن قيل: فأيُّ فائدة في قوله: {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ} فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله تعالى؟

قلنا: الفائدة فيه ما ذكره صاحب (الكشاف)، فقال: إنَّ المقصود منه التنبيه على أنَّ الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش والحافُّون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه، ولما كان إيمانهم بوجود الله تعالى موجباً للمدح والثناء؛ لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء؛ ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم، علم أنهم آمنوا به, بدليل أنهم ما شاهدوه حاضراً جالساً هناك(1).

أقول: واعتقاد أهل السنَّة والجماعة أنَّ الله تعالى جلَّ وعلا ليس له مكان لا في الأرض ولا في السماء, وكذلك يدلُّ على أنَّ الملائكة عليهم السلام, ولو كانوا في السموات, فإنهم لا يشاهدون الله تعالى, فإيمانهم إيمان غيبيٌّ.

وفي هذا الثناء على الله تعالى تعليمٌ للعباد أدبَ السؤال والدعاء, فقد بدؤوا بالثناء عليه, فوصفوه بالرحمة والعلم: {وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا}, ثم طلبوا لهم المغفرة: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا} ليستمطروا فضله وإنعامه وإحسانه, ثم طلبوا لهم إكرامهم بدخول الجنان مع ذرياتهم الصالحين فقالوا:

(**428**) {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم} [غافر: 8].

أي أدخِلْهُمْ يا رب بفضل رحمتك وجودك جنان النعيم التي وعدتهم بها,

(1) تفسير الفخر الرازي: 3433/27.

هم وذرياتهم وأزواجهم وآبائهم الذين كانوا في الدنيا صالحين, ليتمَّ سرورهم باللقاء بهم, فإنك أنت {الْعَزِيزُ} أي الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء {الْحَكِيم} الذي لا يفعل إلا الحكمة والمصلحة. ثمَّ زادوا بطلب السلامة والحفظ والرحمة لهم فقالوا:

(**429**) {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [غافر: 9].

أي احفظهم ونجِّهم من كلِّ ما يسوءهم من العذاب والمكاره, فمن أُبعد عن نار جهنَّم, وأدخله الله تعالى الجنَّة, فذلك أعظم أنواع السعادة.

(**430**) {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور} [غافر: 19].

أي يعلم سبحانه النظرة الخائنة, ويعلم السرَّ المستور, وما تخفيه الصدور, لا تخفى عليه خافية. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (هو الرجل يكون جالساً مع الناس, فتمرُّ المرأةُ فيسارقهم النظر إليها).

(**431**) {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد} [غافر: 44].

أي فستذكرون صدق كلامي حينما يحلُّ بكم العذاب, وأسلِّم أمري إلى الله تعالى، وأعتمد عليه في جميع أحوالي وشؤوني, فهو سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد. لقد قال كلمة الحقِّ دون مداهنةٍ ولا نفاق, وجهر بدعوة الإيمان في وجه الطغيان, ويظهر أن القوم هدَّدوه بالقتل, بل أرادوا فعلاً قتله, فنجَّاه الله تعالى من شرهم, ونزل بهم وبفرعونَ الجبار أشدُّ

أنواع العذاب والدمار.

أقول: ولقد جاء على قلبي أنَّ التوكُّل هو الاعتماد على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب, أما التفويض فهو مجرَّد بدون التفات وأخذ بالأسباب أصلاً, بل استسلام بالكلية إلى الله جلَّ وعلا {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ}. ومثاله عندما كان سيِّدنا علي رضي الله عنه في بيته عليه الصلاة والسلام, وهو صلى الله عليه وسلم خرج من بينهم, وهم يريدون قتله, ولم يحصل له شيء, والله تعالى حفظه بدون سبب {وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: 67].

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**432**) {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُون} [فصلت: 30].

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} أي آمنوا بالله جلَّ وعلا إيماناً صادقاً, ثم استقاموا على شريعة الله تعالى في سلوكهم, وأخلاقهم, وأقوالهم, وأفعالهم, ولَزِموا منهج الإسلام الصحيح {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُون} أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عليهم السلام عند الاحتضار ووقت نزع الروح, يبشرونهم بالبشارة الكريمة, يقولون لهم: لا تخافوا مما تُقدِمون عليه من أهوال الآخرة, ولا تحزنوا على ما تركتموه في الدنيا من الأهل والأموال والأولاد, وأبشروا بجنَّة الخلد التي وعدكم بها الرحمن على لسان سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

سأل بعض الصحابة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن نصيحةٍ جامعة, يَعتصِم بها ويستمسك بها في حياته, فقال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: (قل آمنت بالله, ثم استقِم) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى. أي ثم استقم على كلمة التوحيد والإيمان. وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة. آمين.

(**433**) {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُون} [فصلت: 31].

أي نحن أنصاركم وحُماتكم في الدنيا والآخرة, نرشدكم إلى ما فيه

سعادتكم في الدارين, ولكم في الجنَّة من النعيم المقيم الخالد من كلِّ ما تشتهيه أنفسكم, وتقرُّ به أعينكم من أنواع اللذائذ والطيبات.

(**434**) {نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت: 32].

النُّزُل: الضيافةُ والكرامة, أي هذه ضيافتكم وكرامتكم من ربِّكم الرحيم, فأيُّ نعيم بعد هذا النعيم؟!

(**435**) {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33].

أي ليس هناك أفضل ولا أحسن ممن استقام على دين الله تعالى, ودعا إلى توحيد الله تعالى وطاعته, وفَعَل الخيرات والصالحات, وقال: أنا مسلمٌ أعتزُّ بدين الإسلام. فهذه شروطٌ ثلاثة للداعية الصادق الذي أثنى عليه القرآن:

1. أن يكون مؤمناً مستمسكاً بدينه.
2. وأن يكون متخلِّقاً بما يدعو الناس إليه من الفضائل والمكارم.
3. معتزاً بشريعة الإسلام, حتى تثمر دعوته.

(**436**) {وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

أي ولا يتساوى من فَعَل الحسنات مع من فعل السيئات, كما لا يستوي الخير والشر, والمعروف والمنكر, ادفع أيها المؤمن السيئة التي تصيبك من غيرك بالحسنة التي هي الحلم والصفح عمن جهل عليك, وادفع إساءته

بالإحسان منك إليه والعفو عنه, فإذا عدوُّك يصبح لك صديقاً حميماً؛ وهذه كلُّها من محاسن الإسلام. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ادفع بحلمك جهلَ من يجهل عليك. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما عاقبتَ من عصى الله تعالى فيك, بمثل أن تطيع الله تعالى فيه.

(**437**) {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 35].

أي وما ينال هذه المرتبة الرفيعة إلا المؤمن الصابر, الذي جاهد نفسه فحَمَلها على كظم الغيظ, واحتمال الأذى, ولا ينالها إلا من كان له نصيب وافر من السعادة ومن طاعة الله تعالى.

(**438**) {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم} [فصلت: 36].

أي إن صرفك الشيطان ووسوس إليك, وأراد أن يحملك على البطش والانتقام ممن آذاك وأساء إليك, فالجأ إلى الله تعالى, واعتصم من شره وكيده وخبثه, فإنَّ الله تعالى هو السميع لأقوال العباد, العليم بأحوالهم وأفعالهم.

(**439**) {... اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير} [فصلت: 40].

أي افعلوا ما تشاؤون في هذه الحياة الدنيا, فإنه تعالى مطَّلعٌ على أعمالكم, لا تخفى عليه خافية من أحوالكم. وليس هذا تخييراً للبشر أن يعملوا ما شاؤوا, إنما هو وعيدٌ وتهديد شديد.

(**440**) {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ

لِّلْعَبِيد} [فصلت: 46].

أي كلُّ إنسان يُجزى بعمله, فمن آمن واهتدى فإنما نفع نفسه, ومن كفر وضلَّ فإنما آذى نفسه, وأوردها نار الجحيم, ولا يظلم ربُّك أحداً.

(**441**) {لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوط} [فصلت: 49].

أي لا يملُّ الإنسانُ ـ يعني الكافر ـ ولا يضجر من طلب السَّعَة في النعمة, وطلب الخير والمال, وإن أصابه الضرُّ ـ ولو كان يسيراً ـ من فقرٍ ومرض, فهو عظيم اليأس, قانطٌ من رحمة الله تعالى؛ لأن ثقته بربه جلَّ وعلا ضعيفة, بل معدومة.

(**442**) {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد} [فصلت: 53].

أي سَنُطْلِعُهم على بعض عجائب وغرائب مخلوقاتنا في هذا الكون, في أنحاء السموات وأقطارها, وفي أنفسهم وتركيبهم العجيب, ليعلموا حقَّ العلم أنَّ القرآن كلام الرحمن, وأنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم مرسلٌ من عند الله تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد} أي أَلاَ يكفيهم برهاناً على صدقك, أن الله تعالى مطَّلع على كلِّ شيء, لا تخفى عليه خافية؟ سبحانه وتعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**443**) {..... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير} [الشورى: 11].

أي ليس له تعالى شبيهٌ, ولا نظير, ولا مثيل؛ لا في ذاته, ولا في صفاته, ولا في أفعاله, فهو الواحد الأحد, الفرد الصمد. والكاف هنا { كَمِثْلِهِ} لتأكيد النفي, أي ليس مثله شيء, وهو سبحانه السميع لأقوال العباد, البصير بأحوالهم.

(**444**) {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} [الشورى: 12].

أي بيده جلَّ وعلا مفاتيح أرزاق العباد؛ من المطر, والنبات, والحبِّ, والثمر, يوسِّع الرزق على من يشاء من خلقه, ويضيِّق على من يشاء, حسب الحكمة الإلهية؛ وعلمه جلَّ وعلا محيط بكلِّ الأشياء.

(**445**) {... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِير} [الشورى: 22].

أي وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فإنهم في رياض الجنَّة, وحدائقها الغنَّاء؛ ذات الرياحين والزهور, والأشجار والثمار, لهم فيها ما يشتهونه من أنواع اللذائذ, من كلِّ ما يشتهونه من مأكل, ومشرب, وملبس, وفنون المستلذات, ذلك النعيمُ والجزاء هو الفوزُ الأكبر الذي لا يوازيه شيء من نعيم الدنيا.

أقول: وهذا فضل الله تعالى لعباده الموافقين.

(**446**) {... وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُور} [الشورى: 23].

أي ومن يكتسب حسنةً نزدْ له في أجر هذه الحسنة, فنضاعفْها له عشراً فأكثر {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} أي كثير المغفرة للمذنبين {شَكُور} كثير الشكر للمطيعين.

(**447**) {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون} [الشورى: 25].

أي هو سبحانه بفضله وكرمه يتقبَّل التوبة من عباده إذا أقلعوا عن المعاصي والآثام, ويمحو سيئاتهم التي ارتكبوها, صغيرها وكبيرها, ويعلم ما يفعله عباده من خير أو شر.

(**448**) {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِير} [الشورى: 30].

أي وما يصيبكم من بلايا ونكبات ومصائب وكوارث فمرجعه إلى ما كسبته أيديكم, ويعفو سبحانه عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذكم عليها, ولو آخذكم بكلِّ ما كسبتم لهلكتم, كما قال سبحانه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [فاطر: 45].

(**449**) {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُون} [الشورى: 37].

أي يجتنبون الجرائم الكبيرة؛ كالشرك والقتل وعقوق الوالدين

{وَالْفَوَاحِشَ} قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الزنى؛ لقوله سبحانه: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [الإسراء: 32] أي ساء طريقاً! {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُون} أي إذا غضبوا صفحوا عمن أساء إليهم. والصفح عند الغضب من مكارم الأخلاق, بشرط ألَّا يُخلَّ بالمروءة.

فائدة: قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتاب الأذكار:

روينا في كتاب ابن السنِّيِّ, عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غضبى, فأخذ بطرف المفصل من أنفي, فعركه, ثم قال: (يا عويش! قولي: اللهم اغفر لي ذنبي, وأذهب غيظ قلبي, وأجرني من الشيطان).

(**450**) {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون} [الشورى: 38].

أي أجابوا ربَّهم جلَّ وعلا إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والإيمان. نزلت في الأنصار رضي الله تعالى عنهم؛ دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له, وأدَّوا الصلاة بشروطها وآدابها.

{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم} أي لا ينفردون برأي حتى يتشاورون فيه, لا سيما الأمور الهامة كالحرب وما جرى مجراها, وينفقون مما رزقهم الله تعالى في سبيل الخير.

(**451**) {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيل} [الشورى: 41].

أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان, ولا مجاوزة في العقاب, فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة, لأنه استعمل حقه المشروع.

(**452**) {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور} [الشورى: 43].

أي ولمن صبر على الأذى, وترك الانتصار, لوجه الله تعالى, فإنَّ هذا من الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي يرفع الله تعالى بها قدر الإنسان. كرَّر تعالى الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه, وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة, وأنه ممَّا يحبُّه الله عزَّ وجل.

(**453**) {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم} [الشورى: 51].

أي ما صحَّ لأحد من البشر, أيَّاً كان, أن يكلِّمه الله تعالى إلَّا بطريق الوحي, في المنام, أو بالإلهام, أو يكلِّمه من وراء حجاب, كما كلَّم موسى عليه السلام {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم} أو يرسل إليه مَلَكاً فيبلِّغه الوحي, كما هو الغالب من إرسال جبريل عليه السلام إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام {إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم} أي لأنه سبحانه متعالٍ عن صفات المخلوقين, فلا يمكن رؤيته في الدنيا, وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواطنها.

فهذه طرقٌ ثلاثةٌ للوحي: 1. إما بواسطة الإلهام. 2. أو يُسمِعُه الكلام من وراء حجاب. 3. أو بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام.

(**454**) {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ

الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} [الشورى: 52].

أي وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك, أوحينا إليك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العظيم, الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للبدن؛ ما كنتَ قبل الوحي تعرف ما هو القرآن, ولا ما هو الإيمان, على الوجه الذي أوحيناه إليك, ولكننا جعلناه نوراً وضياء, نهدي به من نشاء من عبادنا المتقين, نحييهم به من موت الجهل وظلمة الضلال.

{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم} أي وإنك لترشد الناس إلى طريق الله تعالى ودين الإسلام الموصل لهم إلى جنَّات النعيم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**455**) {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: 36].

أي ومن أعرض وتعامى عن القرآن وذِكْر الرحمن, سلَّطنا عليه شيطاناً لإضلاله {فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} أي ملازمٌ ومصاحِبٌ له لا يفارقه.

(**456**) {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: 44].

أي وإن هذا القرآن العظيم لَشَرَفٌ لك عظيمٌ ولقومك, وسوف تُسألون عن هذه النعمة الجليلة, والمراد بقومه: قريش وسائر العرب, فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة, ويكفي أنهم صاروا خير أمة أخرجت للناس بفضل هذا الدِّين العظيم الذي شرفهم الله تعالى بحمل رايته ورسالته, ورحم الله تعالى الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه حيث قال: (نحن قومٌ أعزَّنا الله تعالى بالإسلام, فإذا ابتغينا العزَّة بغيره أذلَّنا الله جلَّ وعلا).

(**457**) {الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: 67].

أي الأصدقاءُ في الدنيا يصبحون يوم القيامة أعداء, إلا من كانت صداقتُه ومحبته لله تعالى, ومن أجل مرضاته, وهم المتقون الذين اتقوا محارم الله تعالى.

(**458**) {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} [الزخرف: 70].

ادخلوا الجنَّة أنتم وأهليكم وأزواجكم {تُحْبَرُونَ} أي تُسَرُّون وتُنَعَّمون

فيها مع غاية البهجة والسرور.

(**459**) {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [الزخرف: 72].

أي وهذه جنة الخلد التي أورثكم الله تعالى إياها بسبب أعمالكم الصالحة التي فعلتموها في الدنيا.

(**460**) {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُون} [الزخرف: 73].

أي لكم في الجنَّة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير, تأكلون منه تفكُّهاً وتلذُّذاً دون فناء ولا انقطاع. اللهمَّ ارزقنا مع أهل الجنَّة.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**461**) {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُون} [الجاثية: 14].

أي قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لعبادي المؤمنين يعفوا ويصفحوا عن الكفار الذي لا يؤمنون بالآخرة ولا يعتقدون بلقاء الله جلَّ وعلا وجزائه, ويتركوا جزاءهم إلى الله تعالى ليعاقبهم في الآخرة على ما اقترفوه في الدنيا من آثام وإجرام, فكلُّ إنسان يُجازى بعمله.

. قال في المقتطف: {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا} أي يعفوا ويصفحوا {لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ} أي عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة, ولا يعتقدون بحساب الله تعالى وجزائه.

نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه, وذلك أنَّ مشركاً من بني غِفار شتمه بمكة, فهمَّ عمر رضي الله تعالى عنه أن يبطش به, فأنزل الله تعالى هذه الآية, وأمره أن يصفح عنه.

{لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُون} أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإجرام, وبما كانوا يكسبون من قبيح الفعال[1].

(**462**) {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون} [الجاثية: 15].

أي فمن فعل خيراً نَفَعَ نفسه, ومن فعل شراً أضرَّ بنفسه, وعند الله

---

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 4/598.599.

تعالى تجتمع الخصوم.

ـ قال في المقتطف: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا} أي من فعل خيراً في هذه الحياة فنفعه لنفسه, ومن فعل شراً فضرره عائد عليها, لا يكاد يسري إلى غيره, وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح, وزجر عن العمل الباطل {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ} أي مالك أموركم {تُرْجَعُون} فيجازيكم على أعمالكم, إن خيراً فخير, وإن شراً فشر(1).

أقـول: مـا دام الله تعـالى يقـول بـالوحي الإلهـي (واعـف عـنهم), وهـم الكفار الذين لا يؤمنون باليوم الآخر؛ عفوُنا نحن لإخواننا المسلمين, ولو كان فاسقاً ما دام يوجد إيمان... نصيحة, إذا قَبِل قَبِلَ, وإذا لم يقبل نعفو, وإذا لم نعفُ يدخل فيه حظوظ أنفسنا, نقول: لِمَ لَمْ يقبل منا, هذه أنانية, الهداية بيد الله تعالى, {لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: 56], يمكن بعد هذا يحصل له الاعتقاد الصحيح, عليك أن لا تتكلّم ولا تأمر بنفسك, أنت لست أفضل من سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه, نزلت هذه الآية في حقِّ الكافر.

ـ قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: {قُل} يا أكمل الرسل عليه الصلاة والسلام نيابةً عنا {لِّلَّذِينَ آمَنُوا} تذكرة للمؤمنين وتهذيباً لأخلاقهم: اغفروا واصفحوا واعفوا سيما عن المسيئين, ليكون العفو والغفران ديدنةً راسخةً في نفوسكم حتى {يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ} أي للكافرين الذين {لا يَرْجُون

(1) المقتطف من عيون التفاسير: 599/4.

أَيَّامَ اللَّهِ} أي انعكاس الدول وتقلُّبها عليهم, اغتراراً بما عندهم من الثروة والجاه, وإنما أمر سبحانه المؤمنين بالصفح والعفو عن المسيء {لِيَجْزِيَ} سبحانه جزاءً حسناً {قَوْمًا} من المتخلِّقين بالعفو عند المقدرة, وكظم الغيظ عند الغضب {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} من الإحسان بدل الإساءة, لأن {مَنْ عَمِلَ} عملاً {صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} أي يعود نفعه إليه {وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا} وبال إساءته {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} جميعاً يحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم بمقتضاها. الجيلاني قُدِّسَ سِرُّه.

(**463**) {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [الجاثية: 18].

أي جعلناك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على شريعة واضحة ساطعة, ليلها كنهارها, لا يزيغ عنها إلا هالك, فاستمسك بما أوحاه الله تعالى إليك في هذا الكتاب المنير, ولا تتبع أهواء السفهاء الجهال من قومك الصادِّين عن دين الله تعالى.

أقول: أمرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فلا بدَّ لنا أن نتَّبع ونتمسَّك به.

(**464**) {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية: 21].

أي هل يظنُّ الكفَّار الفجَّار الذين ارتكبوا أنواع الجرائم والآثام, أن نجعلهم في الحكم والاعتبار كالمؤمنين الأبرار؟ ونعاملهم معاملتهم في الجزاء

والتكريم؟ {سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُون} أي هل يتساوى الأشرار مع الأبرار في الحياة وبعد الممات؟ كلَّا, لا يستوون في حالٍ من الأحوال, فإن المؤمنين عاشوا على الطهر والطاعة, والكفار عاشوا على الفجور والعصيان, وشتَّان شتَّان بين الفريقين, وساء ما ظنُّوا واعتقدوا بالله تعالى أن يساوي بين الفجَّار والأبرار!.

(**465**) {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون} [الجاثية: 22].

أي وخَلَق الله تعالى السموات والأرض بالعدل, ومن أجل تحقيق العدل لا بدَّ من مجيء الآخرة, للانتصار للمظلوم من الظالم, ولكي يُجازى كلُّ إنسان بعمله وبما فعله من خير أو شرٍّ, ولا يَظلِم ربُّك أحداً. وضَّح سبحانه أنَّ الحكمة من خلق العالم هو الجزاء العادل, ولو لم تكن هناك آخرة ـ كما زعم الكفار ـ لاستوى المطيع والعاصي, والبَرُّ والفاجر, وهذا ما لا يتفق مع حكمة الله تعالى وعدالته.

أقول: إذا واحد ظلم آخر, وكلاهما ماتا بدون انتقام للمظلوم, لولا الآخرة والعدالة الإلهية يبقى المظلوم تحت هذا الظلم, {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد} [فصلت: 46], معناه يوجد آخرة, ويتجلى الله تعالى بالعدالة, وينتقم هناك. وإني رأيت واحداً ظلم الآخر, وكلاهما توفي بدون انتقام, رأيت أنَّ الله تعالى يتجلى بالعدل الإلهي على ذلك الظالم, وبيد المظلوم عصا, والظالم قاعد, والمظلوم قائم يضربه, هكذا إني رأيت.. العدالة الإلهية.. وأحكام

الشريعة أنه من لم يُحدَّ في الدنيا, فإنَّ أمره إلى الله تعالى في الآخرة.

(**466**) {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: 23].

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} أي أخبرني عن حال الشقي الفاجر, الذي ترك عبادة الواحد الأحد وعبَدَ الهوى {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} أي عارفاً بالحق والباطل. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (ذلك هو الكافر, اتخذ دينه ما يهواه, فلا يهوى شيئاً إلا ركبه). فإذا استحسن شيئاً في نفسه فعله, وإذا رآه قبيحاً تركه, لا يهوى شيئاً إلَّا عَبَده من دون الله تعالى {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} أي وطبع على سمعه وقلبه, بحيث لا يتأثر بموعظة ولا نصيحة, ولا يتفكر في الآيات, وجعل على بصره غطاءً حتى لا يُبصر الهدى والرشاد, وقد سُدَّت عليه جميعُ المنافذ التي يدخل منها النور: (السمع, والعقل, والبصر) فمن يهديه بعد أن أضلَّه الله تعالى؟ لا أحد يقدر على ذلك, أفلا تعتبرون وتتعظون؟!

(**467**) {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: 29].

أي هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادة ولا نقصان, فكلُّ ما فعلتموه مُثْبَتٌ هنا ومحفوظ, لا شيء يُنسى, ولا شيء يضيع, كما

قال سبحانه: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا} [الكهف: 49], أي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجَّلها علينا.

(**468**) {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الجاثية: 30].

أي فأما المؤمنون المتقون, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فإن الله تعالى يدخلهم في الجنَّة, وتلك هي السعادة الكبرى التي لا سعادة بعدها, وعبَّر عن الجنَّة بقوله: {فِي رَحْمَتِهِ} لأن الجنَّة مكان تَنَزُّل الرحمة. اللهمَّ ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(469) {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون} [الأحقاف: 13].

أي هؤلاء المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والاستقامة على دين الله تعالى, وثَبَتُوا على ذلك حتى الممات, هؤلاء السعداء لا يلحقهم مكروه في الآخرة يخافون منه, ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا.

(470) {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون} [الأحقاف: 14].

وهم أهل الجنَّة على الدوام, لا يُخْرجون منها أبداً. اللهمَّ اجعلنا منهم بفضلك يا أرحم الراحمين.

(471) {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِين} [الأحقاف: 29].

أي واذكر يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم حين وجَّهنا إليك نفراً من الجن, وأقبلنا بهم نحوك, وأنت تقرأ كتاب ربك في تهجدك وصلاتك, فلما سمعوا القرآن قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمع ما يقرأ, فلما فرغتَ من تلاوة القرآن رجعوا إلى قومهم مؤمنين ناصحين, يحذِّرونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا. لقد خشع الجنُّ عند سماع القرآن, ورقَّت قلوبهم فآمنوا وأذعنوا, ورجعوا يدعون إخوانهم من الجن إلى الإيمان به وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم, والمشركون يقولون: {لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} [فصلت: 26],

فما أبعد الفارق بين الجن وكفار مكة الغِلاظ القلوب والأكباد؟! وفي الآية توبيخ للمشركين, حيث آمنت الجن بالقرآن, وهم يكذبون به ويستهزئون.

(**472**) {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأحقاف: 30].

أي قالت الجن لإخوانهم: لقد سمعنا كتاباً عجيباً غريباً, رائعاً مجيداً, أُنزل على رسولٍ من بعد موسى عليه السلام, مصدِّقاً لما سبقه من كتب الله تعالى السماوية, يرشد إلى الحق وإلى الدِّين القويم.

(**473**) {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف: 31].

أي أجيبوا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام الذي أُنزل عليه هذا القرآن, وصدِّقوا برسالته, يرحمكم ربُّكم, ويكفِّر عنكم ذنوبكم, ويخلِّصكم وينجيكم من عذاب شديد مؤلم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**474**) {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُم} [محمَّد: 19].

أي إذا علمت أن مدار السعادة على التوحيد، فأيقنْ بأنه لا معبود بحقٍّ إلا اللهُ رب العالمين، واثبت على ما أنت عليه من النعم بوحدانية الله تعالى، واطلب من الله جلَّ وعلا المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُم} أي هو سبحانه الذي يعلم أحوالكم في الدنيا، وتصرُّفكم فيها في الليل والنهار، ومصيركم في الآخرة، فأعدُّوا الزَّادَ ليوم الميعاد. بدأ تعالى الآية بالعلم: {فَاعْلَمْ} لينبِّه على أن دعامة الإسلام الأساسية (العلم)، ولا بدَّ للمسلم أن يقبس من ميراث النبوة, فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورَّثوا العلم، بالعلم تحيا القلوب كما تحيا الأرض بوابل المطر، وما أحسن ما قاله الشاعر:

فَفُـزْ بعِلْـمٍ تَعِـشْ حيّـاً بـه أبـداً   النـاسُ مـوتَى وأهـلُ العلـمِ أحيـاءُ

اللهمَّ إنا نسألك علماً نافعاً, ونعوذ بك من علم لا ينفع.

(**475**) {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمَّد: 24].

أي أفلا يقرؤون القرآن قراءةَ تدبُّر وتبصُّر فيدركون ما فيه من المواعظ والزواجر؟ فإن القرآن نور يكشف الظلمة، ويزيل الغشاوة؛ أم قلوبهم مظلمة قاتمة، كأنها مكبلةٌ بالأقفال الحديدية، فلا يدخل إليها نور، ولا يشرق فيها إيمان؟! شبَّه تعالى قلوب المنافقين بالأبواب المقفلة، فهي لا تستفيد من وعظ،

ولا تلين لنصح، كأنَّ القلوب أبواب أُغلقت بإحكام، وجُعلت عليها الأقفال، فكيف يدخل إليها شيء من نور القرآن؟

(476) {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُم} [محمَّد: 31].

أي ولنختبرنَّكم أيها الناس بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة، حتى نُظهر للخلق من يجاهد منكم لنصرة دين الله تعالى، والصابرين على مشاقِّ الجهاد، ونختبر أعمالكم، حتى يظهر الصادق من المنافق. وليس المراد بقوله: {حَتَّى نَعْلَمَ} أن ينكشف له سبحانه أمرهم، لأن الله تعالى عالمٌ من الأزل بحقائق النفوس والأعمال، وإنما المرادُ كشفُ أمرهم للخلق، حتى يعلموا البرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**477**) {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: 29].

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} أي هذا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ختم الله تعالى به النبوة، وأرسله بالهدى ودين الحق، هو محمَّدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الأخيار الأبرار الذين اصطفاهم لصحبته، صفتهم أنهم غِلاظٌ على الكفار حتى ولو كانوا أقرباءهم، رحماءُ على المؤمنين ولو كانوا غرباء عنهم، فقد كان الواحد منهم يتحرَّز من ثوب المشرك أن يمسَّ بدنه، وإذا رأى أخاه المسلم صافحه وعانقه وخفض له جناحه.

{تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم، كأنهم خُلِقوا للعبادة فقط، رهبانٌ في الليل، فرسان في النهار، يطلبون بعبادتهم رضوان الله تعالى ورحمته.

{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} أي علامتهم التي تظهر

للناظر أنَّ وجوههم لاحتْ فيها علامات السهر والتهجد، وهي إشراقة الوجه بنور العبادة، وما يظهر عليها من البهاء والوقار. قال منصور رحمه الله تعالى: سألت مجاهداً رحمه الله تعالى ـ تلميذ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ عن هذه الآية: أهي أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثلُ ركبة العنز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنه نور في وجهه من الخشوع والطاعة.

{ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} أي ذلك وصفهم في التوراة، الشدَّة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود، وإِشراقة الوجه بنور الطاعة والعبادة.

{وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} أي ومثلهم في الإنجيل كمثل زرعٍ {أَخْرَجَ شَطْأَهُ} أي أخرج فراخه وفروعه، فهو زرعٌ مبارك، نما بسرعة، وقوي واشتدَّ {فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ} أي قوَّى الزرعَ حتى صار قوياً غليظاً {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} أي فوقف الزرع واستقام على أصوله ونبت فيه الحَبُّ وازدهر {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} أي يُعجِب هذا الزرع الفلّاحين والزرّاعين؛ لقوَّته وكثرته، وحسن نباته، ليغيظ بهم أعداء الله تعالى من الكفار.

هذا هو المثل المضروب لهم في الإنجيل، مثَّل تعالى لهم بالزرع ينمو ويقوى، ويشتدُّ بفراخه، حتى يصبح قوياً مستقيماً، يقف على ساقه وقد نضج فيه الحَبُّ وازدهر، (فالزرع) محمَّد صلى الله عليه وسلم، (والشطء) ـ أي

الأفراخ . أصحابُه رضوان الله تعالى عليهم، كانوا قليلين فكثروا، وضعفاء فقووا، حتى صَلُب أمرُ الدِّين بهم واشتدَّ، وثبت الإسلام كالطود ورسخ، وانتشر في آفاق الدنيا يملأ الأرضَ خيراً، وبراً، ونوراً؛ وهو مثلٌ في غاية البيان والجمال. وجاء في الإنجيل: (سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وهكذا كان شأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ كانوا قلة فكثروا، وضعفاء فعزُّوا وسادوا، وملكوا الدنيا بإيمانهم وجهادهم وإخلاصهم، ولهذا قال فيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنَّ أحدكم أنفق مثل جبل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه) أي نصفه، رواه البخاري ومسلم.

وختم الله تعالى الآية بقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} أي وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم في جنَّات النعيم, واللهُ جلَّ وعلا لا يُخلف الميعاد.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**478**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون} [الحجرات: 11].

أي لا يحتقر ولا يهزأ جماعة مؤمنون من جماعةٍ مؤمنين، فلعلَّ الإنسان المهزوءَ منه يكون عند الله تعالى خيراً وأفضل من الساخر المستهزئ بالناس؛ ولا تهزأ نساءٌ مؤمنات من نساءٍ مؤمنات، فلعلَّ المستهزَأ منها خير عند الله تعالى من الساخرة المستهزئة، فلكلِّ فردٍ كرامته، فلا ينبغي أن يسخر الغنيُّ من الفقير، ولا القوي من الضعيف، ولا الجميلة من القبيحة، ولا الشابَّة من العجوز، فالميزان عند الله تعالى بالتقوى لا بالأنساب والأحساب.

{وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون} أي لا يطعن بعضكم في بعض، ولا يعبْه وينتقص قدره، فإنَّ المؤمنين كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمن مؤمناً فكأنما عاب نفسه؛ ولا يلقِّبه بلقب يكرهه، كالألقاب البذيئة التي يكرهها الإنسان، كقوله: يا أقرع، أو يا أعرج، أو يقول له: يا قرد، أو يا حمار! فإنَّ ذلك يُفسد الودَّ ويورث الضغائن {بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ} أي بئس أن يصبح المؤمن فاسقاً بعد أن كان مؤمناً.

وفي الآية دليل على أنَّ التنابز بالألقاب فسق، والجمعُ بينه وبين الإيمان

مستقبَح في العرف والشرع، وكأنه يقول: لا تعيبوا إخوانكم فتصبحوا فساقاً؛ ومن لم يتب عن هذه الأخلاق الذميمة فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله تعالى.

وإنما قال: {وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ} للإشارة إلى أن المؤمنين كأنهم نفس واحدة، فمن انتقص غيره أو احتقره فكأنما انتقص نفسه وعابها.

(**479**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيم} [الحجرات: 12].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} أي ابتعدوا عن التهمة وإساءة الظن بالمؤمنين. وعبَّر بالكثير ليحتاط المؤمن في كلِّ ظن، فلا يسارع إلى الاتهام، بل يتثبَّت ويتحقَّق، لأن بعض الظن السيئ فيه إثم, وهو عند الله تعالى ذنب عظيم. وفي الحديث الشريف: (إياكم والظنَّ؛ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا..) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: (لا تظننَّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، ولا تعتقدنَّ بها شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً).

{وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا} أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين، ولا تتلقَّطوا هفواتهم، ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء ـ في غيبته ـ بشيء يكرهه.

{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيم} أي هل يحبُّ الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ فكما تكرهون أكل لحم الميت، كذلك فاكرهوا غيبته، وخافوا عقاب الله تعالى، وتوبوا إليه، فإنه سبحانه واسع الرحمة، توَّاب على من تاب وأناب. لقد مثَّل القرآن الكريم لقبح الغيبة وشناعتها بتمثيل رائعٍ مفزع، ولنتصوَّرْ هذه الصورة الشنيعة: إنسان جلس أمام جثة ميت ينهش ويأكل من لحمها, واللحم نيِّئ, ثم إنه أخوه في الإنسانية, وحقاً إنها صورة شنيعة على أفحش وجهٍ وأشنعه، ينفر منها الطبع، وتتلخَّص في الآتي:

أولاً: إنَّه لحم إنسان, وليس لحم شاة مشوية.

ثانياً: إنَّ هذا الإنسان الذي يُؤكل لحمُه هو أخٌ له مسلم.

ثالثاً: إنَّ اللحم الذي يأكله لحمٌ نيِّئٌ لميت, ويا له من تمثيل قبيح شنيع، عظيم فظيع، يقطع أعناق المغتابين!.

وفي الحديث الشريف: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإنه من اتَّبع عوراتهم يتَّبع الله تعالى عورته، ومن اتَّبع عورته يفضحه في بيته) رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى. ونظر ابنُ عمر رضي الله تعالى عنهما يوماً إلى الكعبة ثم قال: (ما أعظمك! وما أعظم حرمتك! ووالله إن المؤمن لأعظمُ حرمةً عند الله تعالى منك) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**480**) {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ} [ق: 6].

أي أفلم ينظروا إلى السماء نظر تفكُّر واعتبار كيف رفعناها بلا عمد، وزيّنّاها بالنجوم الزاهرات، وما لها من صدوع وشقوق؟!

(**481**) {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16].

أي نحن بقدرتنا خلقنا الإنسان من نطفة من ماءٍ مهين، ونعلم الخواطر التي تخطر على باله، وما تحدِّثه به نفسه من أفكار ووساوس؛ فكيف يغيب عنا عملُه؟ ونحن أعلم بحاله من أقرب شيء إليه، وهو حبل الوريد المتصل بقلبه, المسمَّى الشريان الوريدي.

والآية الكريمة تمثيل لعلم الله تعالى بالإنسان وشدة قربه من عبده، حيث لا تخفى عليه خافية.

أقول: فهو جلَّ وعلا بعلمه معنا, يسمعنا ويرانا, في عقيدتنا الحلول والاتحاد, وكذا التناسخ, محال, وانظروا قول الإمام الرازي رحمه الله تعالى فهو عين ما قلت لكم, قال رحمه الله تعالى: (وقول الله جلَّ وعلا: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} بيانٌ لكمال علمه جلَّ وعلا, والوريد العرق الذي هو مجرى الدم, يجري فيه, ويصل إلى كلِّ جزء من أجزاء البدن, والله تعالى أقرب من ذلك بعلمه, لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم, ويخفى عنه, وعلم الله تعالى

لا يحجب عنه شيء[1].

(**482**) {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد} [ق: 37].

أي إنَّ فيما ذكرناه من إهلاك الأمم الباغية لتذكرة وموعظة لمن كان له قلب سليم وفكر نيِّر, يتدبر به ما يسمع، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب، ليتذكَّر ويعتبر، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه. وعبَّر عن العقل بالقلب لأنه موضعُه.. ذكَّرهم تعالى بمصارع الغابرين، فإنَّ في إهلاكهم ـ وهم أشدُّ قوةً من أهل مكة ـ أكبر العظة والعبرة، ولكنْ لا يعتبر بذلك إلَّا من كان حيَّ القلب، أمَّا الذي مات قلبه فلا تنفعُه العِبَرُ والعظات.

** ** **

---

(1) التفسير الكبير للإمام الرازي: 162/28.

بسم الله الرحمن الرحيم

(**483**) {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُون} [الذاريات: 15].

أي إنهم في حدائق وبساتين، فيها عيون جارية بالماء السلسبيل.

(**484**) {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِين} [الذاريات: 16].

راضين بما أعطاهم ربهم جلَّ وعلا من النعيم والكرامة، لأنهم كانوا محسنين في إيمانهم وطاعتهم لربهم سبحانه. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**485**) {كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون} [الذاريات: 17].

أي كانوا يكابدون قيام الليل فلا ينامون منه إلَّا قليلاً، يحيونه في الصلاة.

(**486**) {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون} [الذاريات: 18].

أي ويستغفرون ربَّهم جلَّ وعلا بالأسحار، كأنهم ـ من خشيتهم لله تعالى ـ مذنبون، فلذلك يستغفرون ربهم جلَّ وعلا من التقصير.

(**487**) {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم} [الذاريات: 19].

أي وفي أموالهم التي رزقهم الله تعالى إياها نصيب معلوم، يدفعونه للسائل المحتاج، وللعفيف الذي لا يسأل مع فقره الشديد.

(**488**) {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِين} [الذاريات: 20].

أي وفي الأرض دلائل واضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته للموقنين بالله جلَّ وعلا وعظمته.

(**489**) {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون} [الذاريات: 21].

أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبَر . من مبدأ خلقكم إلى منتهاه . أفلا تبصرون قدرة الله تعالى في وجودكم وخلقكم، من اختلاف (الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع، والعقل، والبصر) لتستدلوا على وحدانية الله تعالى وعظمته وجلاله؟

ـ إن وجود القوة الحافظة في الإنسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم. وكذلك يشعر كلٌّ منا ويحسُّ أنَّ في قرارة نفسه وفي زاوية من زوايا قلبه آلة وعضواً للوسوسة, وهي اللمَّة الشيطانية, التي هي لسانُ شيطان يتكلَّم بتلقينات القوة الواهمة, هذه القوة قد تحوَّلت بفسادها إلى شيطان مصغَّر, لأنها لا تتحرَّك إلا ضدَّ اختيار الإنسان وإرادته, وخلاف رغباته الحقيقية؛ إن هذا الذي يشعر به كلُّ إنسان حساً وحَدْساً في نفسه دليلٌ قطعي على وجود الشياطين الكبيرة في العالم الكبير؛ ثم إنَّ هذه اللمَّة الشيطانية وتلك القوة الواهمة تُشعران بوجود نفسٍ شريرةٍ خارجية تنفث في الأولى وتستنطق الثانية وتستخدمها كالأذن واللسان(1).

(**490**) {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِين} [الذاريات: 50].

أي الجؤوا إلى الله تعالى واهرعوا إلى طاعته ومرضاته، فإنه لا ملجأ ولا منجى لكم من الله تعالى إلا إليه.

---

(1) اللمعات للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رضي الله تعالى عنه, اللمعة الثالثة عشرة, الإشارة العاشرة, ص127.

. فِرُّوا من معاصيه إلى طاعته, وهو أمر بالرجوع إليه... وفي اللفظ تحذير وترهيب.

(**491**) {وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِين} [الذاريات: 51].

ولا تعبدوا غير الله تعالى، فإني أنذركم عذاب الله تعالى وعقابه إن عبدتم غيره، ودعوتي واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

(**492**) {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِين} [الذاريات: 55].

فواظبْ على التذكير والموعظة، فإنَّ القلوب المؤمنة تتأثر بالموعظة الحسنة، لأنها تزيدهم بصيرة وقوة في الدِّين.

(**493**) {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون} [الذاريات: 56].

أي وما خلقت الخلق . إنسهم وجنَّهم . إلا ليعرفوا ربَّهم جلَّ وعلا ويؤمنوا به ويوحِّدوه، ويقرُّوا له بالألوهية والربوبية. فالمراد بالعبادة هنا: توحيدُ الله تعالى، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعتُه سبحانه وتعالى في كلِّ أمر ونهي {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيم} [يس: 60.61].

قال مجاهد رحمه الله تعالى: {لِيَعْبُدُون} أي ليوحِّدوني وليعرفوا أني أنا ربُّهم فيطيعوا أمري.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**494**) {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ} [الطور: 17].

أي أمَّا المؤمنون المتقون، الذين اتَّقوا عذاب الله تعالى بطاعته وامتثال أمره واجتناب نواهيه، فإنهم اليوم في حدائق وبساتين ناضرة، ونعيم مقيمٍ خالد.

(**495**) {فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [الطور: 18].

يتنعَّمون ويتلذَّذون بأصناف الملاذِّ، من مآكل ومشارب، وملابس ومراكب، بما أكرمهم ربُّهم جلَّ وعلا به، ونجَّاهم من عذاب جهنَّم الشديد، ويقال لهم:

(**496**) {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: 19].

أي كلوا أكلاً هنيئاً، واشربوا شرباً مريئاً، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسبب ما قدَّمتم في الدنيا من صالح الأعمال، فهذا اليوم يومُ كرامتكم وجزائكم.

(**497**) {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} [الطور: 48].

أي فاصبر يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على قضاء ربِّك وحُكمه, فإنك بحفظنا وحمايتنا، نحرسك ونرعاك، ونزِّه ربَّك وعظِّمه ومجِّده حين تقوم من فراشك ومن مجلسك الذي تجلس فيه. بمعنى سبِّح ربك في كل وقتٍ وحين.

(498) {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم} [الطور: 49].

أي وسبِّح ربَّك جلَّ وعلا في المساء والصباح، وفي غسق الليل، وعند غياب النجوم، عند انفلاق نور الصباح، فهناك يكون أُنس الحبيب بالحبيب. اللهمَّ اجعلنا من المحبين والمحبوبين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**499**) {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم: 31].

أي ولله جلَّ وعلا كلُّ ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرُّفاً, ليس لأحد من ذلك شيء أصلاً؛ ليجازي المسيء بإساءته, والمحسن بإحسانه, فيدخل الكافر النار, والمحسن الجنَّة, وهي المراد بقوله: {الْحُسْنَى} أي بالمثوبة الحسنى, وهي الجنَّة.

ثم ذكر تعالى صفات هؤلاء المحسنين فقال:

(**500**) {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: 32].

أي هؤلاء المحسنون هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب, كالقتل, وشرب الخمر, وأكل مال اليتيم, ويبتعدون عن الفواحش التي تناهى قبحها, كالزنى واللواطة التي قُبحها واضح {إِلاَّ اللَّمَمَ} أي صغائر الذنوب {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} أي إنَّ ربَّك غفَّار الذنوب, ستَّار العيوب, رحمتُه وسعت كلَّ شيء, ومغفرته تسع الذنوب كلَّها, الكبائر منها والصغائر, لمن تاب منها؛ هو جلَّ وعلا العالِمُ بأحوالكم قبل أن يخلقكم, ومن حين أن كنتم أَجِنَّة ـ أي مستترين ـ في أرحام أمهاتكم, يعلم

التقي من الشقي, والبرَّ من الفاجر, فلا تمدحوا أنفسكم على وجه الإعجاب, فهو تعالى العالم بمن أخلص العمل, واتَّقى ربه في السر والعلن.

نبَّه تعالى أنه هو العالمُ بالنفوس, فلا حاجة إلى تزكية النفس أمام علَّام الغيوب, ومن اللغو ـ بل من سوء الأدب ـ أن يعرِّفه إنسان بنفسه فيقول: أنا محسنٌ, أنا عبد صالح, فالله تعالى هو العليم بكلِّ نفس وما جُبلت عليه.

(**501**) {وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} [النجم: 44].

وأنه سبحانه خلق الموت وخلق الحياة, ولا يقدر على ذلك غيرُه, وقهر الملوك والعظماء بالموت.

اللهمَّ هوِّن علينا سكرات الموت, ولا تُخرجْنا من هذه الدنيا إلا مع الشهادة والإيمان.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**502**) {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ} [القمر: 6].

أي أعرضْ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء السفهاء الكفار, وانتظرهم إلى ذلك اليوم الرهيب وما يحدث فيه من الأهوال والشدائد, يوم يدعو إسرافيل عليه السلام إلى شيء فظيع منكر, تنكره النفوس لعدم عهدهم بمثله, وهو أهوال يوم القيامة.

(**503**) {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [القمر: 7].

أي ذليلين مهانين, لا يستطيعون رفع أبصارهم من شدة الذلِّ والهوان, يخرجون من (الأجداث) أي القبور, كأنهم من الكثرة والانتشار جرادٌ منتشر في الآفاق, لا يدرون أين يسيرون ويتوجَّهون.

(**504**) {مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: 8].

أي مسرعين نحو صوت الداعي (وهو إسرافيل عليه السلام), لا يتأخرون ولا يتباطؤون, يقول الكفرة المجرمون: هذا يومٌ صعبٌ عسير, شاقٌّ علينا. حقاً إنه مشهد رهيب حين يخرجون من القبور فزعين خائفين, مسرعي الخُطى نحو صوت الداعي, يشبهون الجراد المنتشر الذي يطير على غير هدف, فقد أكل الخوف قلوبهم, وأطار الرعبُ عقولهم وألبابهم, فمن أين لهم أن يروا طريقهم في ذلك اليوم؟

(**505**) {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} [القمر: 54].

أي إنَّ المؤمنين المتقين في بساتين وحدائق ناضرة، وعيون وأنهار جارية، يتنعَّمون في الجنَّة بما يشاؤون ويشتهون.

(**506**) {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: 55].

وهم في مقام حسن، ومكان مرضيٍّ عند ربٍّ عظيم جليل، قادر على ما يشاء مما يطلبون ويشتهون. وصيغة (مليك) أبلغ من لفظ مَلِك، لأنه الذي جمع الملك من أطرافه، والله تعالى أعلم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(507) {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان} [الرحمن: 19].

المراد بالبحرين البحار والأنهار، وهو من باب التغليب، والمعنى أنه سبحانه خلطهما في الأرض، وأرسلهما قريبٌ بعضُهما من بعض، يتجاوران ولا يختلطان.

(508) {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَان} [الرحمن: 20].

بينهما حاجز حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، ولو طغى البحر المالح على النهر العذب لأفسد الحياة على سطح الأرض، ومما يدلُّ على أن المراد بالبحرين (البحارُ، والأنهار) قولُه تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [فاطر: 12], والعذب الفرات لا يكون إلا لمياه الأنهار، وأما مياه البحار فإنها مالحة كلُّها.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**509**) {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُون} [الواقعة: 58].

ذكر الله تعالى في هذه الآيات أربعة أدلة كونية على قدرته ووحدانيته جلَّ وعلا, **وهذا هو البرهان الأول**، أي أخبروني عمَّا تصبُّونه من المنيِّ في أرحام النساء.

(**510**) {أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُون} [الواقعة: 59].

هل أنتم الذين تخلقونه وتصوِّرونه بشراً سوياً, أم نحن بقدرتنا خلقناه وصوَّرناه؟

(**511**) {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين} [الواقعة: 60].

أي نحن الذين حكمنا وقضينا عليكم بالموت، وساوينا فيه بين الغني والفقير، والأمير والصعلوك, ولسنا بعاجزين.

(**512**) {عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُون} [الواقعة: 61].

أي على أن نهلككم ونستبدل قوماً غيركم يكونون أعبد لله تعالى منكم وأطوع، ونخلقكم خلقاً جديداً لا تعرفون كيفيته.

(**513**) {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُون} [الواقعة: 63].

هذا البرهان الثاني، أي أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الأرض.

(**514**) {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون} [الواقعة: 64].

هل أنتم الذين تنبتونه أم نحن المنبتون؟ فإذا أقررتم أن الله تعالى هو الذي

يخرج الحبَّ وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من القبور؟!

(**515**) {لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُون} [الواقعة: 65].

أي لو نشاء لجعلنا هذا الزرع والنبات هشيماً متحطِّماً، فبقيتم تتحسَّرون وتتفجَّعون على ما حلَّ بالزرع والثمر.

(**516**) {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُون} [الواقعة: 68].

هذا البرهان الثالث، أي أخبروني عن هذا الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً؟

(**517**) {أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُون} [الواقعة: 69].

هل أنتم الذين أنزلتموه من السُّحُب؟ أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟

(**518**) {لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُون} [الواقعة: 70].

أي لو أردنا لجعلناه ماءً مالحاً شديد الملوحة، ومُرّاً زُعاقاً لا يمكن شربه، فهلَّا تشكرون ربكم جلَّ وعلا على نعمه الجليلة عليكم, حيث أنزله عذباً فراتاً، ولم يجعله ملحاً أجاجاً! وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال: (الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا) رواه ابن أبي حاتم.

(**519**) {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُون} [الواقعة: 71].

هذا البرهان الرابع، أي أخبروني عن النار التي توقدونها لمنافعكم ومصالحكم.

(**520**) {أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُون} [الواقعة: 72].

هل أنتم الذين خلقتم شجرها، أم نحن الخالقون المخترعون؟

(**521**) {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ} [الواقعة: 73].

أي نحن جعلنا نار الدنيا تذكرة لنار جهنَّم، ومنفعةً {لِّلْمُقْوِينَ} أي للمسافرين وغيرهم من الخلق المستمتعين بالنار من الناس أجمعين، هذا قول مجاهد رحمه الله تعالى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (المقْوين) أي المسافرين، فإنَّ منفعتهم بالنار أكثر.

(**522**) {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة: 74].

أي فإذا عرفت بدائع خلق الله تعالى في هذه الآيات الكونية فاعبد ربَّك وَحْدَهُ، ونزِّهْهُ عما لا يليق به من صفات العجز والضعف، وقل: سبحان ربي العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته!.

(**523**) {فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الواقعة: 88].

أي فأمَّا إن كان هذا الميت من السابقين المقربين عند الله تعالى.

(**524**) {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} [الواقعة: 89].

فله عند ربه جلَّ وعلا الراحة والأمان, والسعادة ودخول الجنان, يتنعم فيها بما تشتهيه نفسه, مع الخلود الدائم. اللهمَّ اجعلنا منهم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**525**) {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...} [الحديد: 16].

أي أما حان للمؤمنين أن تَرِقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله تعالى وآيات الذكر الحكيم؟

(**526**) {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِير} [الحديد: 22].

أي ما تَحدُث مصيبةٌ في الأرض ولا في البشر من قحطٍ، وزلزال، ومرضٍ، وكرب، وبلاء, إلا وهي مكتوبة مثبتة في علم الله تعالى، من قبل أن نخلق الخلق ونُنشئ البريَّة، وهي مسجلة في اللوح المحفوظ، وإثبات ذلك. على كثرته. سهل يسير على الله تعالى.

. وفي الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة, قال: وعرشه على الماء) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**527**) {لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور} [الحديد: 23].

أي أخبرناكم بذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكي لا تبطروا بزهرة الدنيا الفانية، والله تعالى لا يحبُّ كلَّ متكبِّر يفخر على الناس بما أعطاه الله تعالى من مال أو جاه. والمراد بالحزن والفرح في الآية: الحزن

الذي يوجب القنوط, يعني اليأس، والفرح الذي يورث الأشر والبطر.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (ليس من أحدٍ إلا هو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً), يعني أن المؤمن إذا عرف أنَّ كلَّ ما يحدث عليه من مصائب ونكبات إنما هو بقضاء الله تعالى، استسلم لحكم الله تعالى، فاستراح قلبه واطمأن، وشعر بالراحة والرضا، ولهذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمره كلَّه له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**528**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الحديد: 28].

هذا تحذير للمؤمنين أن يسلكوا مسلك اليهود والنصارى في التلاعب بدين الله تعالى, وابتداع ما لم يشرعه الله جلَّ وعلا من الأمور الدِّينية.

والمعنى: يا معشر المؤمنين، يا من صدَّقتم بالله جلَّ وعلا وبرسوله صلى الله عليه وسلم {اتَّقُوا اللَّهَ} أي خافوا عذاب الله تعالى، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه {وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ} أي وآمنوا بمحمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ} أي يعطكم الله تعالى ثوابكم ضعفين من الأجر والثواب, لإيمانكم برسوله صلى الله عليه وسلم، وإيمانكم بمَنْ قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام {وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا

تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي ويجعل لكم نوراً في الدنيا يهديكم إلى الصراط المستقيم، ونوراً يوم القيامة يوصلكم إلى جنَّات النعيم، كما قال سبحانه: {يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} [الحديد: 12].

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ} يعني ذنوبَكم وما سبق منكم من المعاصي والآثام، وهو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم، يغفر لكلِّ من تاب وأناب. اللهمَّ اغفر لنا وارحمنا ونوِّر قلوبنا.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**529**) {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} [المجادلة: 7].

أي ألم تعلم أيها السامع أنَّ الله جلَّ وعلا لا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ما يقع من حديث خفيٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله تعالى رابعَهم بعلمه، ولا خمسة أشخاص أو أقلَّ أو أكثر إلا كان الله جلَّ وعلا معهم مطَّلعاً على أقوالهم وأحوالهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، فأين الاختفاء والهرب من الله عزَّ وجل, وهو الرقيب المشاهد لأعمال العباد؟ {ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} أي ثم يحاسبهم على أعمالهم يوم القيامة، لأنه العالم بالسرِّ والجهر.

(**530**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُون} [المجادلة: 9].

أي لا تتحدَّثوا فيما بينكم فيما فيه إثم ومعصية، وتحدَّثوا بما فيه برٌّ وتقوى وإحسان، وخافوا ربَّكم الذي إليه مرجعكم فيجازيكم على أعمالكم. اللهمَّ عاملنا بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

(**531**) {أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ

اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المجادلة: 13].

عتابٌ للمؤمنين شفيفٌ رفيق، أي هل خفتم إن تصدَّقْتم أن يقلَّ مالُكم, أو تفتقروا بالإنفاق كلَّما أردتم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ لا تخافوا, فإنَّ الله تعالى يرزقكم ويغنيكم من فضله؛ وإذا شقَّ ذلك عليكم، وعفا الله تعالى عنكم بأن رخَّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة، فاستمروا على طاعة الله تعالى، بالمحافظة على الصلاة، ودفع الزكاة التي فرضها الله تعالى عليكم، والله جلَّ وعلا محيط بأعمالكم ونيَّاتكم. وهذه الآية هي التي نَسَخت الحكم السابق, رحمةً من الله تعالى وتيسيراً على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأفاضل، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنَّ المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقُّوا عليه، فأراد الله تعالى أن يخفِّف عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك جَبُن كثير منهم, وكفُّوا عن المساءلة، فأنزل الله تعالى بعدها التخفيف، فوسَّع عليهم ولم يُضيِّق.

(**532**) {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيز} [المجادلة: 21].

أي قضى الله جلَّ وعلا وحكم أنَّ الغلبة والنُّصرة لدينه ورسوله صلى الله عليه وسلم وجنده المؤمنين، لأنه تعالى القوي القادر على نصرة أنبيائه وأوليائه، العزيز القاهر الذي لا يُقهر ولا يُغلب. اللهمَّ انصر عبادك المؤمنين.

(**533**) {لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُون} [المجادلة: 22].

{لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي لا يُتصوَّر ولا يمكن أن يجتمع في قلب واحد حبُّ الله تعالى وحبُّ أعدائه، كما لا يمكن أن يجتمع النور والظلام، لأنَّ مَنْ أحبَّ أحداً امتنع أن يحبَّ عدوَّه.

والآية جاءت للتحذير عن محبَّة ومصادقة الكفرة والمجرمين، ولكنها في صورة خبر، مبالغةً في النهي والتحذير، كأنه يقول: هذا لا يحدث, ولا يُتصَوَّر أن يحبَّ مؤمنٌ مَن عادى الله تعالى ورسولَه صلى الله عليه وسلم.

{وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} أي ولو كان هؤلاء أقربَ الناس إليهم؛ كالأب، والابن، والأخ، والعشيرة، فإنَّ قضية الإيمان تقتضي معاداة أعداء الله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: نزلت في (أبي عُبيدة رضي الله تعالى عنه) قتلَ أباه يوم بدر؛ وفي (أبي بكر رضي الله تعالى عنه) همَّ أن يقتل ابنه عبد الرحمن؛ وفي (مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه) قتل أخاه؛ وفي (عمر رضي الله تعالى عنه) قتل خاله يوم بدر.

{أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي هؤلاء هم المؤمنون الصادقون

الذين ثبَّت الله تعالى ومكَّن في قلوبهم الإيمان, حتى صار راسخاً كالجبل، وقوَّاهم ونصرهم بعونٍ منه وتأييد إلهي على أعدائهم، ويُدخلهم في الآخرة حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة، ماكثين فيها أبداً من غير زوال ولا انتقال.

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُون} أي تقبَّل الله تعالى منهم أعمالهم فرضي عنهم، ونالوا ثوابه العظيم، فرضوا بما أعطاهم ربهم جلَّ وعلا، وهؤلاء هم جند الله تعالى وأنصاره وأحبابه، وهم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

قسم تعالى البشر إلى حزبين: (حزب الرحمن) و(حزب الشيطان)، ونبَّه إلى أن حزب الرحمن هم الفائزون المنتصرون في الدنيا والآخرة، اللهمَّ اجعلنا من حزبك وأوليائك يا ربَّ العالمين. آمين, والحمد لله ربِّ العالمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**534**) {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

أي وما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم فاقبلوه، وما أمركم به من أمرٍ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، لأنه إنما يبلِّغكم أوامر الله تعالى وشريعته القدسية العادلة، ولا يأتي بشيء من عنده، وخافوا ربكم جلَّ وعلا فإن عقابه شديد. والآية حكمها عامٌّ وليست خاصة بالغنائم، تشمل كلَّ أمر ونهي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا احتجَّ بها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

فقد روى البخاري ومسلم رضي الله تعالى عنهما, عنه أنه قال: (لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمِّصات ـ أي التي تزيل شعر وجهها، والتي تفعل بها ذلك ـ المتفلِّجات للحُسْن، المغيِّرات لخلق الله), فبلغ ذلك امرأةً يقال لها: أم يعقوب, وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: بلغني أنك لعنتَ الواشمات والمستوشمات، وكيتَ وكيتَ. فقال: ومالي لا ألعنُ من لعنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى؟! فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف ـ أي من أوله لآخره ـ فما وجدته. فقال: لئن قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت قول الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}؟).

وهذه الآية قاعدة كبرى في الشريعة الغراء، فما جاء في كتاب أو سنة

فهو شرع الله تعالى الذي ينبغي أن يُنفَّذ، والحاكم مقيَّد بهذا النظام الإلهي، وما يُقال: إنَّ الأمة والشعب مصدر السلطات، فإنها فلسفة باطلة تقوم على أساس أن يَتَحَكَّمَ البشرُ بالبشر، وهل يتساوى تشريع الخالق الحكيم العليم، مع تشريع البشر العاجز الضعيف؟ وإذا كان الحكمُ لله تعالى يتحقَّق العدلُ في الأرض، ولا يطغى الإنسان على أخيه الإنسان، كما هو الحال في (النظم الرأسمالية)، و(النظم الشيوعية) التي هي من فلسفة البشر.

(**535**) {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون} [الحشر: 8].

هذا متعلِّق بما قبله من أمر الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين, الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم, فتركوا الديار والأهل والأموال ابتغاء مرضاة الله تعالى, ونصرةً لدينه, وهؤلاء حقاً هم الصادقون في إيمانهم.

(**536**) {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} [الحشر: 9].

وهذه الآية ثناء ومديحٌ على الأنصار, أي وأمَّا الأنصار الذين سكنوا المدينة المنورة, فجعلوها منزلاً لهم وسكناً, وآمنوا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم, فهؤلاء يحبُّون إخوانهم المهاجرين حباً صادقاً, ولا يجدون في

صدورهم حسداً وغيظاً وحزازةً لما أُعطي إخوانهم المهاجرون من الغنيمة دونهم, حيث قسم الرسول صلى الله عليه وسلم غنائم بني النضير بين المهاجرين فقط, ولم يعطِ الأنصار منها شيئاً, فرضوا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم, ولم ينقموا على إخوانهم المهاجرين, بل وصل بهم الأمر إلى درجة الإيثار, أن يفضِّل الإنسان غيره على نفسه, ولهذا قال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} أي يفضِّلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم, ولو كان بهم فقر أو حاجة, ومن وقاه الله تعالى شرَّ رذيلة البخل فهو الفائز السعيد, والشحُّ: البخلُ الشديد؛ ولعلَّ في قصة الذي أطعم ضيفه وترك نفسه وأهله وأولاده جياعاً . وهي قصة فريدة في دنيا الإيثار . ما يعطينا صورة مشرقة مضيئة عما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يَتَحلَّون به من مكارم الفضائل والأخلاق, والقصة عجيبة ذكرها الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من كتاب التفسير.

(**537**) {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيم} [الحشر: 10].

أي والذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار يحبُّون إخوانهم السابقين, ويدعون لهم بالرحمة والغفران, ويقولون في دعائهم: اللهمَّ اغفر لنا ذنوبنا, وارحم إخواننا الذين سبقونا بالإيمان, ولا تجعل في قلوبنا بغضاً لأحدٍ من

المؤمنين.

قسَّم الله تعالى المؤمنين وصنَّفهم ثلاثة أصناف: (1 . المهاجرون, 2 . الأنصار, 3 . التابعون لهم بالإحسان), ولفظ التابعين يشمل جميع المؤمنين إلى قيام الساعة, فمن لم يكن نقيَّ القلب, عفَّ اللسان, محبّاً لإخوانه المسلمين, كان خارجاً عن هذه الأصناف الثلاثة, وليس له في الإسلام نصيب, وقد ظهرت فئات من الخوارج والرافضة تزعم الإسلام, وهي تطعن في أخصِّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم, وهؤلاء الذين عنَتْهم السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها في حديثها.

فقد روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لعروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه: (يا بن أختي, أُمِرُوا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبُّوهم, وتلت الآية: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ...}).

وروى جابر رضي الله تعالى عنه قال: (قيل لعائشة رضي الله تعالى عنها: إنَّ ناساً يتناولون أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم, حتى أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما. فقالت: وما تعجبون من ذلك؟! انقطع عنهم العمل, فأحبَّ الله تعالى أن لا يقطع عنهم الأجر) أخرجه ابن عساكر, هؤلاء شرار الخلق عند الله تعالى.

(**538**) {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: 16].

أي مَثَلُ المنافقين مع اليهود، كمثل الشيطان مع الإنسان، يغريه بالكفر، ثم يخذله, ويتخلَّى عنه، ويتبرَّأ منه {فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} أي فلما كفر الإنسان تبرَّأ منه الشيطان، وقال له: إني أخاف عذاب الله تعالى وانتقامه إن كفرتُ به.

(**539**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون} [الحشر: 18].

أي خافوا الله تعالى، واحذروا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولينظر الإنسان ماذا ادَّخر لنفسه من الأعمال الصالحة ليوم القيامة, وسُمِّي يومُ القيامة (غداً) لقرب مجيئه، والتنكيرُ فيه للتفخيم والتهويل، وكرَّر اللفظ {وَاتَّقُوا اللَّهَ} للتأكيد، ولبيان منزلة التقوى في أمر الدِّين. اللهمَّ اجعلنا من عبادك المتَّقين.

(**540**) {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون} [الحشر: 19].

أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا طاعة الله تعالى وعبادته, ونسوا حقوق الله تعالى, فأنساهم حقوق أنفسهم، وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب، عُوقبوا بأن أنساهم اللهُ تعالى حظَّ أنفسهم حتى لم يقدِّموا لها خيراً ينفعها، وعاشوا في هذه الدنيا كالبهائم السارحة، بلا هدف ولا غاية {أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون} أي هم الفسقة الفجرة الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجل.

**   **   **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**541**) {لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الممتحنة: 3].

أي لن تنفعكم القرابات ولا الأرحام ولا الأولاد الذين تُوالون الكفار من أجلهم، ويومَ القيامة لن يجلبوا لكم نفعاً، ولن يدفعوا عنكم ضراً {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه * وَأُمِّهِ وَأَبِيه} [عبس: 3534]؛ وفي ذلك اليوم العصيب يحكم الله تعالى بين المؤمنين والكافرين بحكمه العادل، فيُدخلُ المؤمنينَ الجنَّةَ، والكافرين نارَ السعير {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي مطَّلعٌ على أعمالكم ومجازيكم عليها.

سبب النزول: نزلت هذه الآية في قصة (حاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه) كان من المهاجرين، وقد شهد غزوة بدر، فلما نقض المشركون عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجهَّز الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح مكة، أرسل (حاطبُ رضي الله تعالى عنه) إلى أهل مكة يخبرهم أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم تجهَّز لقتالهم ليأخذوا حِذْرهم، وأرسل لهم رسالةً مع امرأة مسافرة، ونزل جبريل عليه السلام يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمر، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم (علياً، والزبير، والمقداد رضي الله تعالى عنهم) وقال لهم: انطلقوا إلى روضة خاخ ـ بستان قريب من المدينة ـ فإنَّ بها ظعينة ـ أي مسافرة ـ معها كتاب, فخذوه منها، فانطَلَقوا مسرعين حتى أتوا الروضة، ووجدوا المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت:

ما معي كتاب، فقال لها علي رضي الله تعالى عنه: لتخرِجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ عنك الثياب، فأخرجته من ضفائر شعرها، فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا به: (من حاطب إلى ناسٍ من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض الأمر), فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما هذا يا حاطب)؟! فقال: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ, إني لم أكن من العشيرة، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت أن أتَّخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلتُه كفراً ولا ارتداداً عن ديني. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنه قد صَدَقكم)، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: دعني يا رسول الله أضرب عُنق هذا المنافق. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا عمر إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله تعالى اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)! فأنزل الله عزَّ وجل هذه الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء...} أخرجه البخاري ومسلم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**542**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون} [الصف: 2].

عتابٌ للمؤمنين على عدم موافقة العمل للقول، والمعنى: لِمَ تقولون شيئاً بألسنتكم ولا تفعلونه؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، كأنه يقول: هذا شيء عجيبٌ جداً أن يقول الإنسان شيئاً ولا يفعله! روي أنَّ المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لعملناه، فلما نزلت آيات الجهاد تباطأ بعضهم وكرهه بعضهم، فنزلت الآية. رواه الإمام الترمذي وأحمد.

(**543**) {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون} [الصف: 3].

أي عَظُم فعلكم هذا بغضاً عند الله تعالى؛ أن تتحدَّثوا بما لا تعملون، بمعنى: ما أبغضَ هذا الفعل عند الله جلَّ وعلا! والمقتُ في اللغة: أشدُّ البغض.

(**544**) {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون} [الصف: 9].

أي هو جلَّ وعلا الذي أرسل محمَّداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن الواضح، والدِّين الساطع، ليُعلي دين الإسلام على جميع الأديان, ولو كره المشركون ذلك، وقد حقَّق الله تعالى وعده بإعزاز دين الإسلام، فانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلا فوق جميع الأديان.

وليس المراد بقوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أن لا يبقى في العالم دينٌ

سوى دين الإسلام، بل المراد أن يكون أهلُه عالين غالبين على سائر أهل الأديان، بالحجة والبرهان، إلى آخر الزمان، فهو الدِّين الحقُّ الذي يعلو ولا يُعلى عليه.

(**545**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: 10].

هذا أسلوب تشويق وترغيب، أي هل أرشدكم يا معشر المؤمنين إلى تجارة رابحةٍ لا تكسد ولا تخسر, بل هي في ربح دائم مستمر، تنقذكم وتخلِّصكم من عذاب شديد مؤلم؟ ثم بيَّن تعالى تلك التجارةَ العظيمةَ الرابحة، وبيَّن شروطها فقال سبحانه:

(**546**) {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون} [الصف: 11].

أي تؤمنون بالله جلَّ وعلا, وبرسوله محمَّد صلى الله عليه وسلم, إيماناً صادقاً صافياً، لا يشوبه شكٌّ ولا نفاق، وتجاهدون أعداء الله تعالى لإعزاز دينه بالأموال والأنفس، وذلك الإيمان والجهاد في سبيله خيرٌ لكم دنيا وآخرة، إن كان عندكم علمٌ وفهم.

وأما ثمرة هذه التجارة فقد وضَّحها تعالى بقوله:

(**547**) {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [الصف: 12].

{يَغْفِرْ} مجزوم لأنه جواب الطلب, أي يسترْ ذنوبكم ويمحُها بفضله

عنكم، ويُدخلْكم حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهارُ الجنَّة، ويسكنْكم في قصور عالية رفيعة.

{فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي في جنان الإقامة الدائمة، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا سعادة ولا فوز وراءه، لأنه الخلود في دار النعيم.

(**548**) {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين} [الصف: 13].

أي وفوق هذا النعيم لكم (نعمة أخرى) عاجلة تحبُّونها، وهي النصر على الأعداء، وفتحٌ عاجل قريب هو فتح مكة؛ وبشِّرهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفضل الكبير من ربِّ العزة والجلال.

(**549**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ...} [الصف: 14].

أي كونوا أنصار دينه وأتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، واستمسكوا بهذا الدِّين المبارك.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**550**) {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [الجمعة: 8].

أي قل لهم: إنَّ هذا الموت الذي تكرهونه وتهربون منه, وتخشون أن تتمنَّوْه ولو بألسنتكم, فإنه آتيكم لا محالة, ولا ينفعكم الفرار منه؛ لأنه قضاء مُبرَم, وقَدَرٌ محتوم؛ ثم ترجعون إلى ربِّ العزة والجلال الذي لا تخفى عليه خافية, فيجازيكم على أعمالكم القبيحة.

(**551**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون} [الجمعة: 9].

أي إذا سمعتم المؤذن يؤذن لصلاة الجمعة فامضوا وامشوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة, واتركوا البيع والشراء, وسائر أنواع التجارة, وجميع الأشغال؛ اتركوا تجارة الدنيا إلى تجارة الآخرة الرابحة, فإنَّ ذلك خير لكم وأنفع من جميع مكاسب الدنيا, إنْ كنتم من ذوي العلم والفهم.

(**552**) {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [الجمعة: 10].

أي فإذا أدَّيتم الصلاة وفرغتم منها فتفرَّقوا في الأرض لطلب الرزق والمعاش وقضاء مصالحكم, واذكروا ربَّكم ذكراً كثيراً, لتفوزوا بخيري الدارَين, وتسعدوا وتفلحوا.

أقول: وهذا يدلُّ على فائدة الذكر وأهميته في كلِّ الأحيان.

(**553**) {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: 11].

هذا عتابٌ لأصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم الذين انصرفوا عن سماع الخطبة, وتركوا الرسول صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر؛ أي وإذا سمعوا بتجارة رابحة, أو شيء من لهو الدنيا وزينتها, تفرَّقوا عنك وانصرفوا, وتركوك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم قائماً تخطب على المنبر.

روي أنَّ دِحْية الكلبي رضي الله تعالى عنه قَدِم بتجارة من الشام, وكان بالمدينة مجاعةٌ وغلاء سعر, وكان في القافلة أنواع الطعام من بُرٍّ ودقيق, وزيت وزبيب, فلما علم أهل المسجد ذلك قاموا يتسابقون نحو التجارة القادمة, خشية أن تفوتهم الأرزاق, وما بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم إلَّا عددٌ يسير. روى البخاري رحمه الله تعالى عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال: (أقبلت عِيرٌ يوم الجمعة, ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم, والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطُب, فخرج الناسُ وبقي اثنا عشر رجلاً أنا فيهم, وأبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما, فنزلت: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا...}) رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى.

{قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} أي قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: إن ما عند الله تعالى من الثواب والنعيم خيرٌ مما ينالكم من الرزق العاجل, واللهُ جلَّ وعلا هو الرزَّاق ذو القوة المتين.

قال الحافظُ ابن كثير رحمه الله تعالى: وينبغي أن يُعلَم أنَّ هذه القصة كانت لما كان صلى الله عليه وسلم يُقدِّم الصلاة على الخطبة يوم الجمعة, كما هو الحال في صلاة العيدين, كما روى ذلك الإمام أبو داود رحمه الله تعالى أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلِّي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين, ثم قُدِّمت الخطبةُ على الصلاة, وهذا هو المعهود عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم, فما تركوا الصلاة, إنما تركوا سماع الخطبة. انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى, والله تعالى أعلم.

أقول . والله تعالى أعلم .: إنَّ تركهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الخطبة, وذهابهم, عدَّه من اللهو.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**554**) {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُون} [المنافقون: 7].

أي هم الفسقةُ الفجرة الذين قالوا لإخوانهم المنافقين: لا تنفقوا على هؤلاء الفقراء المهاجرين, حتى ينصرفوا عن محمَّد صلى الله عليه وسلم. وقولهم: {عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ} إنما قالوه على سبيل السخرية والهزء, إذ لو كانوا مؤمنين برسالته ما قالوا مثل ذلك الفجور, قال تعالى رداً عليهم: {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُون} أي بيده تعالى مفاتيح الرزق، والأرزاق بيد الرزَّاق، فليسوا هم الذين يرزقون الفقراء حتى يوصي بعضهم بعضاً ألَّا ينفقوا على الفقراء من أتباع محمَّد صلى الله عليه وسلم، إنما الذي يُعطي ويمنع، ويُغني ويُفقر، هو الله تعالى ربُّ العالمين، ولكنَّ المنافقين لا يفقهون حكمة الله تعالى وتدبيره في الإغناء والإفقار.

(**555**) {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُون} [المنافقون: 8].

ثم ذكر تعالى ما هو أشنع وأقبح من مقالتهم السابقة في حقِّ الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فقال سبحانه: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُون} هذه المقالة الفاجرة هي مقالة الشقي الأثيم رأسِ

المنافقين (عبد الله بن سلول) قال ـ أخزاه الله ـ في عودته من غزوة بني المصطلق: لئن عدنا إلى المدينة، لنخرجنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم وصحبه؛ نخرجه منها مهيناً ذليلاً، ونبقى فيها أعزةً كراماً. وقصد بقوله: {لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} قصد بالأعز نفسَه, وبالأذل محمَّداً صلى الله عليه وسلم وصحبه, قاتله الله تعالى وأخزاه.

ولنفسح المجالَ أمام شيخ المحدِّثين الإمام البخاري رحمه الله تعالى, لنسمع قصة هذا الشقي الفاجر, فقد روى في صحيحه عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه أنه قال: (كنتُ في غزوةٍ مع عمي, فسمعتُ عبد الله بن أُبَيِّ ابن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينفضوا, وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ, فذكرت ذلك لعمي, فذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبيِّ ابن سلول وأصحابه, فحلفوا ما قالوا, فصدَّقهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وكذَّبني, فأصابني همٌّ لم يصبني مثلهُ قطُّ, فجلستُ في البيت, فقال لي عمي: ما أردتَ إلَّا أن كذَّبك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومَقَتَك ـ أي أبغضك بسبب هذه القصة ـ!

فأنزل الله عزَّ وجل هذه السورة: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ...} إلى قوله تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا... يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ...} الآيات, فبعث إليَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله تعالى

صدَّقك يا زيد, وقرأ عليّ السورة). ولما نزلت الآيات في حقِّ ابن سلول قال عمر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله, دعني أضربْ عُنُق هذا المنافق. فقال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لا يا عمر, دَعْهُ, لا يتحدَّث الناسُ أن محمَّداً صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

ومن المواقف البطولية الإيمانية ما رواه أهلُ السِّيَر أنَّ واحداً من أبناء ذلك الشقي ـ واسمه عبد الله ـ كان مؤمناً صالحاً, جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله, بلغني أنك تريد قتل أبي فيما قاله عنك, فَمُرْني ـ أي كلِّفني ـ فأنا أحمل لك رأسه؛ فَوَالله لقد علمت الخزرج بأنه ما كان فيها رجلٌ أبرَّ بوالده منِّي, وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله, فلا تطاوعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي, فأقتل مسلماً بكافر. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل نترفَّق به ونحسنُ صحبته ما دام فينا), فانصرف ابنه المؤمن, ووقف لأبيه في الطريق على بعض أبواب المدينة وهو راجع من السفر, واستلَّ سيفه, فلما وصل أبوه (ابن سلول) قال له ابنه: وراءك ـ أي ارجع ـ فقال له: ما لَكَ ويلك؟!

فقال له: والله لا تدخل المدينة, حتى تشهد أنك أنت الذليلُ المهين, وأن محمَّداً صلى الله عليه وسلم هو الأعزُّ المكرَّم, وحتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم في دخولها, فشهد على نفسه بأنه هو الذليل المهين, وأنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم هو الأعزُّ الأكرم, (قال المنافق هذا الكلام

بلسانه, لا بقلبه, لعنه الله)؛ وبقي محبوساً حتى بلغ الخبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له في دخول المدينة[1]. وحقاً إنه لموقف عظيم من مواقف الإيمان, وصورة رائعة مشرقة من صور المحبة الصادقة لمن بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين, تتجلى في قصة هذا الشاب المؤمن مع أبيه الشقي المنافق.

(**556**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون} [المنافقون: 9].

أي لا تشغلْكم يا معشر المؤمنين الأموال ولا الأولاد عن طاعة الله تعالى والجهاد في سبيله, والمراد بقوله: {عَن ذِكْرِ اللَّهِ} أي طاعته وعبادته, وليس المراد بها الذكر باللسان فحسب, بل جميع العبادات من صلاة, وصيام, وزكاة, وحجٍّ, وجهاد في سبيله, وسائر القربات والطاعات.

{وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون} أي من شغلته الدنيا وشهواتها وملذاتها, وشغلته الأموال والأولاد عن عبادة ربِّه جلَّ وعلا, فإنه هو الشقي الخاسر؛ خسر نفسه وسعادته.

أقول: الاشتغال بالدنيا, مع القيام بالحقوق الإلهية, لا يضر.

(**557**) {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِين} [المنافقون: 10].

أي وأنفِقوا في وجوه البرِّ والخير والإحسان, من بعض ما رزقناكم

(1) ذكره ابن كثير في السيرة, وابن سعد في الطبقات الكبرى.

وتفضَّلْنا به عليكم من أنواع الرزق, من قبل أن يحلَّ بكم الموتُ, فيقول أحدكم: يا ربِّ هلَّا أمهلتني وأخَّرت أجلي إلى زمن قصير لأتدارك أمري, وأتصدَّق, وأعمل الخير والصالحات, وأكون من عبادك المحسنين!

(**558**) {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون} [المنافقون: 11].

قال تعالى ردّاً على هذا المتمنِّي: {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون} أي ولن يُمهل الله تعالى أحداً من الخلق أيّاً كان, برّاً أو فاجراً, مؤمناً أو كافراً, إذا انتهى أجله, والله تعالى مطَّلع على أعمالكم ومجازيكم عليها. بيَّن تعالى أنَّ كلَّ مفرِّطٍ في حياته يندم عند الاحتضار, ويسأل طول العمر ليستدرك ما فات, ولكنْ هيهات!! {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون} [الأعراف: 34].

نرجو الله تعالى أن لا يحصل هذا للمؤمن.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**559**) {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [التغابن: 2].

أي هو جلَّ وعلا المتفرِّد بخلقكم أيها الناس, فمنكم كافر جاحد لربِّه وخالقه سبحانه, ومنكم مؤمن معترف بوجود ربِّه جلَّ وعلا, وكان الواجب أن يكون كلُّ البشر مؤمنين بالواحد الأحد, مطيعين لأمره. وقدَّم ذِكْرَ الكافر على المؤمن: {فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} لكثرة الكفار وقلة المؤمنين {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي مطَّلعٌ على أعمالكم, وسيجازيكم عليها.

(**560**) {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [التغابن: 4].

أي يعلم سبحانه جميع ما في الكون من مخلوقات وأجرام, لا يغيب شيء عن علمه, ويعلم ما في صدور البشر من أسرار وخفايا, فكيف لا يعلم الأقوال والأعمال, وهو العليم بالخواطر والهواجس التي يُكِنُّها الناسُ في صدورهم؟ وهذا في معنى الوعيد والتهديد.

أقول: لا بدَّ للمؤمن أن يستحي بقلبه من الله جلَّ وعلا حقَّ الاستحياء, وهو جلَّ وعلا مطَّلع على هواجس نفسه.

(**561**) {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التغابن: 9].

{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} أي وقتُ بعثِ الخلائق هو يوم القيامة الذي يجمع الله تعالى فيه البشر كلَّهم في صعيدٍ واحد, يبصرهم الناظر, ويسمعهم كلُّ إنسان, وهو اليوم الذي يظهر فيه غَبْنُ الكافر وخسارتُه بتركه الإيمان, والغبن في اللغة: النقصُ والخسران.

{وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} أي ومن يصدِّقْ بالله جلَّ وعلا, ويعمل عملاً صالحاً يمحو الله تعالى عنه ذنوبه وسيئاته, ويدخله حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة, مقيمين في تلك الجنان على الدوام, لا يموتون فيها ولا يُخرجون منها, وذلك هو الفوز بالسعادة الكبرى التي لا سعادة وراءها. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**562**) {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} [التغابن: 11].

أي لا تقع مصيبة على أحد في نفسه, أو ماله, أو ولده, إلَّا بقَدَر من الله تعالى مسبق؛ ومن يؤمن بالله تعالى يَهدِ قلبه للصبر والرضا, ويثبِّته على الإيمان.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المعنى: يَهدِ قلبه للإيمان واليقين, حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه, وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي وعرف أنَّها من الله جلَّ وعلا.

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} أي عالم بكلِّ ما يحدث في الكون من خير أو شرٍّ, يعلم من يصبر, ومن يُعرض عن الله تعالى ويستكبر.

وفائدة الاعتقاد بالقضاء والقدر أنها تهوِّن المصيبة على المؤمن, فيصبر على قضاء الله تعالى, ويستسلم لحكمه, فيكون هذا الإيمان راحة للقلب, وسلوى للنفس.

(**563**) {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِين} [التغابن: 12].

أي أطيعوا أمر الله تعالى وأمر رسوله محمَّد صلى الله عليه وسلم في كلِّ ما شرع لكم من الأوامر والنواهي, تُفلحوا وتَسْعدُوا, فإن أعرضتم عن إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما دعاكم إليه من الهدى والفلاح, فليس عليه ضرر, إنما ضرر ذلك عليكم؛ وليس على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تبليغ الرسالة, وقد أدى واجبه صلى الله عليه وسلم.

(**564**) {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون} [التغابن: 13].

أي الله جلَّ جلاله, لا معبود بحقٍّ سواه, ولا خالق ولا رازق غيرُه, وعليه وحده توكَّلوا أيها المؤمنون في جميع أموركم.

(**565**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم} [التغابن: 14].

أي إنَّ من بعض أزواجكم وأولادكم أعداء لكم, فاحذروا أنْ تستجيبوا

لهم وتتركوا طاعة الله تعالى {وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي وإنْ عفوتم عنهم, وسامحتموهم ولم تعاقبوهم, فإنَّ الله تعالى يعاملكم بالمغفرة والرحمة كما فعلتم معهم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (إنَّ قوماً أسلموا وأرادوا الهجرة, فَمَنَعَهم أزواجهم وأولادهم عنها, وتعلَّقوا بهم, وقالوا لهم: لا تتركونا, فقعدوا عن الهجرة, ثم التحقوا بالمهاجرين, فرأوا الناسَ قد فقهوا في الدِّين, وسبقوهم في الطاعات والعبادات, فهمُّوا أنْ يعاقبوهم, فنزلت الآية) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

(**566**) {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: 15].

أي هذه الأموال التي بأيديكم, والأولاد الذين أنعم الله تعالى عليكم بهم, اختبارٌ وابتلاء من الله جلَّ وعلا لكم, ليعلم من يطيعه ممن يعصيه؛ وما عند الله تعالى من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا, فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله سبحانه.

(**567**) {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: 16].

أي ابذلوا جهدكم وطاقتكم في طاعة الرحمن, ولا تُكلِّفوا أنفسكم ما لا تطيقون من الأعمال, فإنَّ الله تعالى رحيمٌ بكم. وهذا في المأمورات من فضائل الأعمال؛ وأما المنهيَّات والمحظورات فلا بدَّ من اجتنابها بالكلية, لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم, وما نهيتكم

عنه فاجتنبوه) رواه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى.

{وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} أي اسمعوا كلام الله تعالى, وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم, وكونوا منقادين لما يأمركم الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم, وأطيعوا أمرهما ولا تحيدوا عنه يمنةً أو يسرة.

{وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ} أي أنفقوا في سبيل الله تعالى من أموالكم, يكن ذلك خيراً لكم عند الله تعالى.

{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون} أي ومن سَلِم من البخل الذي تدعو إليه النفس فقد فاز بكلِّ مطلوب, وأفلح وسَعِد.

والشحُّ أشدُّ أنواع البخل, وفي الحديث الشريف: (اتقوا الظلم, فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة, واتقوا الشُّح, فإنَّ الشُحَّ أهلك من كان قبلكم, حملهم على أنْ سفكوا دماءهم, واستحلُّوا محارمهم) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**568**) {إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيم} [التغابن: 17].

أي إن أنفقتم شيئاً في سبيل الله تعالى عوَّضه الله سبحانه عليكم بأضعاف مضاعفة, وغفر لكم ببركة الإنفاق ما فرط منكم من الذنوب, والله تعالى شاكر لإحسان المحسن, حليم بالعباد, لا يعاجلهم بالعقوبة على ذنوبهم.

ولننظر إلى روعة التعبير في جمال القرآن, فقد شبَّه الإنفاق في وجوه

الخير بقرضٍ يُقْرِضه العبدُ لربه جلَّ وعلا, واجب الوفاء, وهو سبحانه الرازق, ثم يطلب من عبده أن يُقرضه بعض المال, فما أكرمه من قرض, وما أعظمه من عطاء!!

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**569**) {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: 1].

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} الخطابُ للنبي صلى الله عليه وسلم, والحكمُ عامٌّ له ولأمَّته, وخُصَّ صلى الله عليه وسلم بالنداء تعظيماً له وتشريفاً, وجيء بصيغة الجمع {طَلَّقْتُمُ} على سبيل التعظيم, أي إذا أردت يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم, ويا معشر المؤمنين, أن تطلِّقوا النساء, فطلقوهنَّ في الطُّهر طلقة واحدة رجعية, ولا تطلِّقوهن وقتَ الحيض؛ لئلا تطول على المرأة العدَّة فتضرَّر, {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء - أي حِيَض - كاملة, لئلا تختلط الأنساب {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} أي خافوا عذابه وعقابه, بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

{لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} أي لا تُخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهنَّ إلى أن تنقضي عدتهنَّ, ولا يخرجْنَ بأنفسهنَّ من البيوت باختيارهنَّ, أي لا تأذنوا لهنَّ بالخروج, إلَّا إذا قارفت المطلقة عملاً غير حسن, كسوء الكلام, وبذاءة اللسان مع الزوج وأهل الزوج, فيسقط حقها من السكنى, وتُخرج من بيت الزوج.

وقيل: الفاحشةُ الزنى, فتُخرَج لإقامة الحد عليها, وهو ضعيف؛ لأنها لو زنت لا يمكن أن يؤمَر الزوج بإبقائها في البيت.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بذاءة اللسان, أي إلَّا أن يفحشْنَ عليكم.

وإنما أمر سبحانه بعدم إخراج المطلقة من بيتها ـ أي من بيت زوجها ـ لحكمة جليلة, وهي أنَّ الزوج إذا رآها حزينة مكسورة الجناح بعد ثورة الغضب والانفعال الذي كان منه, قد يرقُّ قلبه عليها فيراجعها, أو تشعر هي بالخطأ والندم, فتحاول أن تغيِّر سلوكها مع زوجها, وتحاول أن تسترضيه لتعود المياه إلى مجاريها, ولو خرجت من البيت, أو أُخرجت منه, عَمِلَ الشيطان عمله في توسيع أسباب النفرة والفراق, فلا يتحقَّق الغرضُ المنشود.

{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} أي هذه الأحكام التي شرعها الله تعالى لكم, هي حدوده ومحارمه التي لا ينبغي أن يتجاوزها المسلم؛ ومن يخالف هذه الأحكام فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله تعالى, وأضرَّ بها حيث ضيَّع عليه فرصة المراجعة لزوجته إن طلقها بالثلاث, أو طلقها طلاقاً بائناً.

{لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} أي لا تدري أيها المطلِّق ما الذي يُحدثه الله تعالى بعد ذلك الطلاق من أمر, لعلَّ الله تعالى يقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها, ومن النفرة منها إلى الرغبة فيها, فالقلوب بيد الله تعالى يقلِّبها كيف يشاء, وما على الإنسان إلا أن يتقي الله تعالى, حتى يجعل الله

تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً. وهي لفتة بديعة لتطييب القلوب وترقيق العواطف.

أما سبب نزول هذه الآية فهو ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى: (أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما طلَّق امرأته وهي حائض, فذكر ذلك عمرُ رضي الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فتغيَّظ صلى الله عليه وسلم, ثم قال لعمر رضي الله تعالى عنه: مُرْه فليراجعها, ثم يمسكها حتى تطهر, ثم تحيض فتطهر, فإنْ بدا له أن يطلِّقَها فليطلِّقْها طاهراً قبل أن يمسَّها, فتلك العدَّة التي أمر الله عزَّ وجل أن يُطلَّق لها النساء) رواه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى.

والطلاق في حال الحيض طلاقٌ بِدعيٌّ مخالفٌ للسنة, لكنه يقع, وتُحسب عليه طلقة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (مُرْه فليراجعها), ولو كان غير واقع لما احتاج إلى مراجعتها, والطلاق السُّنيُّ: أن يكون الطلاق في طهر لم يجامعها فيه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: لما كان الله تعالى يبغض الطلاق, لِمَا فيه من انفصام عُرى الزوجية, وموافقة عدوِّه إبليس, حيث يفرح بافتراق الزوجين, وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة؛ شرعه الله تعالى على وجهٍ تحصل به المصلحة, وحرَّمه على غير ذلك الوجه, فشرع له أن يطلِّقها طاهراً من غير جماع, وأن يكون طلقة واحدة, ثم يتركها حتى تنقضي عدَّتها, فإنْ زالت أسباب الخلاف كان له سبيلٌ إلى إعادتها, وجعل العدة ثلاث حِيَض, ليطول

زمن المهلة والاختيار. فهذا الذي شرعه الله سبحانه وأذن فيه, وهو المسمى (الطلاق السني).

(**570**) {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: 2].

أي فإذا قاربن وشارفن على انتهاء العدة, فراجعوهنَّ بمعروف مع حسن العِشرة, أو اتركوهن بمعروف دون إساءة حتى تنقضي عدتهنَّ فيملكْنَ أنفسهنَّ, وأشهدوا عند الطلاق أو الرَّجعة لئلا يكون إنكار من الزوجة أو من الزوج, وليكن الشهود من أهل الصلاح والعدالة, ولْيشهدوا بالحق دون تحيُّز لأحد.

{ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} أي هذا الذي شرعه الله تعالى لكم من الأحكام ينتفع ويتَّعظ به المؤمن الذي يخاف الله جلَّ وعلا, ويخاف يوم الحساب والجزاء الذي يلقى فيه ربَّه جلَّ وعلا فيجازيه على عمله؛ ومن خاف الله تعالى جعل الله تعالى له من كلِّ همٍّ فرجاً, ومن كلِّ ضيق مخرجاً.

(**571**) {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 3].

أي ومن اتَّقى الله تعالى في سلوكه وعمله, رزقه الله تعالى رزقاً واسعاً من حيث لا يظنُّ, ومن وجهٍ لا يخطر بباله ولا يعلمه, ومن يعتمد في أموره على

ربه جلَّ وعلا كفاه الله تعالى ما أهمَّه وأغمَّه {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} أي نافذٌ أمرُه في جميع خلقه, لا يُعجزه شيءٌ {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} أي جعل لكلِّ شيء من الشدَّة والرخاء, والعسر واليسر؛ أجلاً ينتهي إليه, فلا ييئس المؤمن ولا يقنط من رحمة الله تعالى.

يُحكى أنَّ عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه أسر المشركون ابنه, فكان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه حاجته وضعفه, ويخبره بأنَّ زوجته أمَّ ابنه تبكي عليه, فقال له صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الله تعالى سيجعل لك فرجاً, ومُرْ أمَّه بالصبر, وأكثرا من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)), ففعلا, فلم يلبثا بعد ذلك إلا يسيراً, إذ قرع ابنه الباب, فدخل ومعه مئة من الإبل, غفل عنها العدو, فاستاقها بعد أن هرب من الأعداء. رواه ابن جرير رحمه الله تعالى.

(**572**) {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: 5].

أي ذلكم هو حكم الله تعالى وشرعُه الحكيم العادل, أنزله الله تعالى لتأتمروا به وتعملوا بمقتضاه, والذي يتقي ربه يمحو عنه ذنوبه, ويضاعف له الأجر والثواب. كرَّر تعالى ذكر (التقوى) ثلاث مرات, لأنَّ الأمر خطير, حيث فيه هدم عشِّ الزوجية, وقد يكون هناك عُدْوانٌ من الرجل على المرأة, فقد يَنْسِبُ إليها ما يَعيبها, ويُنفِّر الخُطَّاب عنها بسبب طلاقه لها, فلذلك تكرَّر الأمر بالتقوى, والنبيُّ الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم أوصى

بالنساء وهو على فراش الموت, لعلمه بضعفهنَّ, فقال وهو يودِّع الحياة: (إنَّ أمركنَّ يهمُّني بعدي, ولن يصبر عليكنَّ إلا الصابرون) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

(**573**) {لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: 7].

أي لينفق الزوج على زوجته بقدر وسعه وطاقته, الغنيُّ بمقدار غناه, والفقير بمقدار فقره, ومن ضُيِّق عليه رزقه فكان دون السعة والكفاية؛ فلينفق بمقدار ما يستطيع {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} أي لا يكلف الله تعالى أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته, فلا يكلِّف الفقير بالنفقة التي ينفقها الغني, إنما ينفق بمقدار وسعه, سيجعل الله تعالى بعد الضيق الغنى, وبعد الشدة السعةَ والرخاء. وفيه تطييب لقلب المعْسِر, وبشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم, وقد كان صحابة رسول صلى الله عليه وسلم في ضيق وشدة, فأغدق الله تعالى عليهم المال, وفتح لهم البلاد.

(**574**) {... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [الطلاق: 10].

فاعتبِروا بحالهم يا ذوي العقول السليمة, أنتم يا معشر أهل الإيمان {قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} أي أنزل الله تعالى إليكم قرآناً يُتلى, فيه مواعظ ونصائح وذكرى لكم, تذكِّر عباد الله تعالى المؤمنين.

(**575**) {رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 11].

أي وأرسل إليكم رسولاً ـ هو خاتم الأنبياء محمَّد صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ عليكم آيات الله تعالى واضحة بيِّنة جليِّة, ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلالة إلى نور العلم والإيمان. والظلمات في الآية استعارة عن الكفر, والنور استعارة عن الإيمان, شبَّه الكفر بالظلمات, والإيمان بالنور؛ لأنَّ أدلة الكفر قاتمة مظلمة, وبراهين الإيمان واضحة بينة, وهذا من بديع التشبيه ولطيف الاستعارة.

{وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} أي ومن آمن بالله جلَّ وعلا, وعمل عملاً صالحاً, يدخله الله تعالى في الآخرة حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة, مقيمين في جنان الخلد على الدوام {قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} فيه معنى التعجُّب والتعظيم, أي ما أحسن هذا الرزق وما أكرمه!!

(**576**) {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

أي الله جلَّ وعلا الذي خلق السموات السبع والأرض بهذا الإتقان

والإبداع, يتنزَّل وحيُ الله تعالى وحكمه وقضاؤه بين السموات والأرض بطريق الملائكة الأبرار, لتوقنوا أيها الناس أن الذي قَدَر على خلق ذلك قادرٌ على كلِّ شيء, وتعلموا عظمته وسلطانه من آثار مخلوقاته الباهرة, ولتعلموا أنَّ الله تعالى عالم بكلِّ شيء, لا تخفى عليه خافية.

وقوله سبحانه: {وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} أي في الإبداع والإتقان, أو في العدد, أي خلق في الأرض سبع طبقات كما هو الحال في السموات, والفارقُ بينهما أنَّ بين السماء والسماء فراغاً, وليس بين طبقات الأرض فراغ, والله تعالى أعلم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**577**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون} [التحريم: 6].

أي صونوا أنفسكم, واحموا واحفظوا أزواجكم وأولادكم من نار حامية مستعرة, ليست كنار الدنيا تُوقَد بالحطب, إنما وقودها وحطبُها الذي تُسعَّر به الحجر والبشر؛ حجارة الكبريت التي هي أنتنُ من الجيفة, لرائحتها الكريهة, وأجساد بني آدم من الكفرة الفجرة.

ثم ذكر تعالى حُرَّاس جهنَّم وزبانيتها الموكَّلين عليها فقال: {عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون} أي على هذه النار المستعرة زبانيةٌ غِلاظ القلوب, لا يرحمون إذا استُرحموا, لأنهم خُلقوا من الغضب, وحبِّب إليهم العذاب, كما حُبِّب للناس الطعام والشراب؛ لا يعصون أمر الله تعالى بحال من الأحوال, ويُنفِّذون الأوامر بدون تأخير ولا تقصير. قال عكرمة رضي الله تعالى عنه: (خزنةُ جهنَّم سودُ الوجوه, كالحةٌ أنيابهم, قد نزع الله من قلوبهم الرحمة, ليس في قلب الواحد منهم مثقال الذرة من الرحمة, يتلذَّذون بتعذيب الكفار والفجار) رواه ابن أبي حاتم.

(**578**) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ

رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [التحريم: 8].

هذه دعوةٌ إلى التوبة الصادقة التي ليس فيها مداهنة ولا نفاق, أي يا معشر المؤمنين توبوا إلى ربِّكم توبة صادقة خالصة, نابعة من القلب, بالغة في النصح, عازمين على أن لا تعودوا إليها.

سئل عمر رضي الله تعالى عنه عن التوبة النصوح, فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب, كما لا يعود اللبن إلى الضرع, وأن يردَّ المظالم لأهلها. اللهمَّ اجعلنا من التوابين.

{عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} {عَسَى} من الله تعالى واجبة, بمنزلة الأمر الحَتْم المحقَّق, أي حقٌّ على الله جلَّ وعلا إن تبتم من ذنوبكم أنْ يرحمكم, ويدخلكم حدائق وبساتين ناضرة, تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة.

{يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} أي يوم لا يفضح الله تعالى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين, ولا يذلُّهم ولا يُهينهم أمام الكفار, بل يعزُّهم ويكرمهم؛ نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة يضيء لهم على الصراط, ويسطع أمامهم وخلفهم, وعن أيمانهم وشمائلهم, كإضاءة القمر في ظلمة الليل.

{يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} أي يدعون ربَّهم قائلين: يا ربَّنا أدم علينا هذا النور, ولا تطفئه علينا حتى نصل إلى الجنَّة, وامحُ عنا ما فرط من الذنوب, فإنَّك أنت القادر على كلِّ شيء.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله تعالى نور المنافقين, وأخذوا يستنجدون بالمؤمنين قائلين: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} [الحديد: 13], أي انتظرونا لنستضيء بأنواركم, فقد أظلم علينا الطريق, ولكن هيهات!! نعوذ بالله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**579**) {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير} [الملك: 12].

أي أما المؤمنون الذين آمنوا بِّربهم جلَّ وعلا ولم يروه, وخافوا عذابه وعقابه, فكفُّوا عن المعاصي والآثام, طلباً لرضا الرحمن؛ لهم عند ربهم مغفرة عظيمة لذنوبهم, وثوابٌ كبير جزيل, تصغر دونه لذائذ الدنيا؛ والمراد بالغيب هنا: هو عدم رؤيتهم لله عزَّ وجل, فهم يخافونه ويخافون عذابه وإن لم يكونوا رأوا ربَّهم, لأنهم يوقنون بوجوده, وهذا كمال الإيمان ودرجة الإحسان: (أن تعبد الله تعالى كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

(**580**) {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور} [الملك: 13].

أي أخفوا كلامكم وحديثكم أيها الناسُ أو أظهروه وأعلنوه, فسواءٌ أخفيتموه أو أظهرتموه فإنَّ الله تعالى يعلمه؛ لأنه سبحانه يعلم السرَّ وأخفى, فكيف تخفى عليه أعمالكم؟ ألا يعلم الخالق مخلوقاته وهو الذي خلقها وأوجدها؟! وهو اللطيف بالعباد, الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء, يرى النملة السوداء, في الليلة الظلماء, على الصخرة الصماء؛ سبحانه جلَّ وعلا.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: نزلت في المشركين, فقد كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام, فيخبره جبريل عليه

السلام بما قالوه, فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم, حتى لا يسمعَ إلهُ محمَّد صلى الله عليه وسلم ما نقول, فيخبره بكلامنا وحديثنا, فقيل لهم: أسرُّوا هذا القول أو اجهروا به, فإنَّ الله تعالى يعلمه. والأمرُ هنا: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ} للتهديد والوعيد.

(**581**) {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُور} [الملك: 21].

أي مَنْ هذا الذي يستطيع أن ينزل لكم المطر, وينبت لكم به الزرع والثمر, ويمنحكم أسباب الرزق والحياة, إن منعها الله تعالى عنكم؟ هل إلهٌ غير الله تعالى يقدر على ذلك؟ إنَّ أسباب الرزق متعددة: الماء, والهواء, والشمس, والشجر, والثمر, وغيرها كثيرٌ وكثير, وكلُّها بيد الخلَّاق جلَّ وعلا, ولهذا ختم الآية بقوله: {بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُور} أي تمادى الكفار في الطغيان, وأصرُّوا على العصيان, وكفروا بالرحمن, فاستحقوا العذاب والهلاك. نعوذ بالله.

(**582**) {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُون} [الملك: 23].

أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلقكم بهذا الشكل البديع, وركَّب فيكم هذه الحواس (السمع, والبصر, والعقل)؛ وأعطاكم السمع لتسمعوا ما ينفعكم, والبصرَ لتدركوا دلائل قدرة ربكم جلَّ وعلا في هذا الكون, والعقلَ لتتأملوا وتفكِّروا في عظمة هذا الخالق سبحانه {قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُون} أي ما

أقلَّ شكركم لنِعَم خالقكم! تذكرون ربَّكم وقت الشدَّة, وتنسونه وقت الرخاء! وإنما خصَّ هذه الأعضاء بالذكر (السمع, والبصر, والعقل) لأنها أداة العلوم والمعارف, ووسائل الفهم والإدراك.

(**583**) {قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الملك: 24].

أي خَلَقكم ونَشَركم في الأرض, ثم إليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء.

(**584**) {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ} [الملك: 30].

أي أخبروني إذا صار الماء غائراً ذاهباً في الأرض بحيث لا تستطيعون إخراجه, فمن الذي يستطيع أن يخرجه لكم, ويجعله نابعاً فائضاً متدفِّقاً؟ هل يستطيع غير الله تعالى أن يأتيكم به؟ وهو وعيدٌ مفزع رهيب لأهل الكفر والضلال. أعاذنا الله تعالى والمسلمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**585**) {فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} [القلم: 8].

أي لا تطع رؤساء الكفر والضلال فيما يدعونك إليه من الكفِّ عنهم, وعن التعرُّض لآلهتهم الأوثان, فإنَّ طاعة العاصي عصيان.

(**586**) {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: 9].

والمراد بقوله: {تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} أي تُداهن وتلين معهم, مأخوذ من المداهنة, وهو المصانعة والمساهلة.

(**587**) {وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ} [القلم: 10].

أي ولا تطع الحلَّاف الذي يُكثر الحلف بالحق والباطل, مستهيناً بعظمة الله تعالى وجلاله. {مَّهِينٍ} أي حقيرٍ فاجر.

(**588**) {هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} [القلم: 11].

{هَمَّازٍ} أي مغتابٍ يأكل لحوم الناس, بالطعن فيهم والعيب {مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} أي يمشي بين الناس بالنميمة, فينقل حديث بعضهم إلى بعض ليوقع بينهم الفتنة. والنميمة: الوشايةُ والسعايةُ للإفساد, وهي من الكبائر, وفي الحديث الشريف: (لا يدخل الجنَّة نمَّام) رواه البخاري ومسلم. ومرَّ صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: (إنهما ليعذَّبان... وذكر أنَّ أحدهما كان يمشي بالنميمة) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**589**) {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [القلم: 34].

أي إنَّ للمؤمنين الذين اتَّقوا ربهم جلَّ وعلا في الدنيا؛ حدائق وبساتين

يتنعَّمون فيها بما تشتهيه الأنفس من فنون أنواع النعيم. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

(**590**) {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِين} [القلم: 35].

الاستفهام للتوبيخ والتقريع, أي هل نساوي بين المسلم والمجرم والمطيع والعاصي, فنجازي هذا بمثل ما نجازي ذاك؟!

(**591**) {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُوم} [القلم: 48].

أي اصبر يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على أذاهم, وامضِ في طريق الدعوة, حتى يحكم الله تعالى بينك وبين أعدائك, ولا تكن في الضجر والعجلة كيونس بن متَّى عليه السلام, الذي التقمه الحوت, حين نادى ربَّه في بطن الحوت بقوله: {لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِين} [الأنبياء: 87].

وقولُه تعالى: {وَهُوَ مَكْظُوم} أي وهو مكروبٌ ومغموم, وذلك حين ذهب مغاضباً لقومه, وركب البحر دون إذن من ربِّه, وكادت السفينة تغرق, فألقي في البحر, فالتقمه الحوت.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**592**) {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة} [الحاقة: 17].

أي وملائكة الرحمن على جوانب السموات وأطرافها, لأن السماء مسكنهم, فإذا انشقت السماء وقفوا على جوانبها فزعاً من هول ذلك اليوم, ويحمل عرش الرحمن يوم القيامة ثمانيةٌ من الملائكة العظام الأشداء, الذين لا يعرف ضخامة خلقِ أحدهم إلا الله تعالى ربُّ العالمين, وفي الحديث الشريف: (أُذن لي أن أحدِّثكم عن مَلَك من ملائكة الله تعالى, من ملائكة العرش, أنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام) رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى.

(**593**) {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيه} [الحاقة: 19].

أي فأمَّا المؤمن السعيد الذي يُعطى كتاب عمله بيمينه, فيقول سروراً وابتهاجاً: خذوا أيها الناس كتابي فاقرؤوه, انظروا يا أصحابي ويا أحبابي, لقد فزت بالسعادة الأبدية بالجنَّة.

(**594**) {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيه} [الحاقة: 20].

لأني أيقنت أني سأبعث وأُحاسب, فأعددت لهذا اليوم عدَّته.

(**595**) {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَة} [الحاقة: 21].

أي فهو اليوم في عيشة سعيدة هنيئة {رَّاضِيَة} بمعنى مرضيَّة, يرضاها

الإنسان.

(596) **{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}** [الحاقة: 22].

في جنة رفيعة القدر والدرجات, فيها قصور عالية شاهقة.

(597) {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: 23].

ثمارها قريبة, يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

(598) **{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}** [الحاقة: 24].

أي كلوا من خيرات الجنَّة وفواكهها وثمارها, واشربوا من شرابها, أكلاً وشرباً هنيئاً مريئاً, لا تنغيص فيه ولا كدر, بسبب ما قدَّمتموه في الدنيا من الأعمال الصالحة؛ ونعيمُ الجنَّة ألوان وأنواع, لا تصل إليه خواطر البشر, ففي الحديث القدسي: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ, ولا أذنٌ سمعتْ, ولا خَطَر على قَلْب بشر), قال أبو هريرة رضي الله عنه: واقرؤوا إن شئتم: **{فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}** [السجدة: 17] رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(599) {إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} [المعارج: 19].

أي طبيعة الإنسان الهلعُ والجزعُ, ومعنى {هَلُوعًا} أي كثير الجزع والضجر؛ ثم فسَّره تعالى بقوله:

(600) {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} [المعارج: 20].

أي إذا نزل به كربٌ أو شدة, أو فقرٌ أو مرض, كان كثير الجزع, أي الضجر والشكوى.

(601) {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: 21].

أي وإذا أصابه الخير, من الغنى والسعة, كان مبالغاً في المنع والإمساك, ينسى فضل ربه جلَّ وعلا عليه, فيشحُّ ويبخل, ولا ينفق مما أعطاه الله تعالى.

(602) {إِلاَّ الْمُصَلِّين} [المعارج: 22].

أي إلا أهل الصلاح والإيمان.

(603) {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُون} [المعارج: 23].

الذين يحافظون على الصلاة, ويؤدُّونها من غير تقصير, فهؤلاء لا يصيبهم الهلع والجزع, فلا يجزعون لفقد الدنيا, ولا يبخلون بخيرها.

(604) {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُوم} [المعارج: 24].

أي والذين في أموالهم نصيبٌ معيَّن, فرضه الله تعالى عليهم وهو (الزكاة) التي هي حقُّ الفقراء والمساكين.

(605) {لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم} [المعارج: 25].

للسائل الذي يسأل الناس لفقره, وللمحروم الذي يتعفَّف عن السؤال {يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} [البقرة: 273].

ثم زاد في أوصاف هؤلاء المؤمنين فقال:

(**606**) {وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المعارج: 26].

أي والذين يؤمنون بيوم الحساب والجزاء, ويصدِّقون بالآخرة تصديقاً جازماً.

(**607**) {وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ} [المعارج: 27].

أي ويخافون من عذاب الله تعالى.

(**608**) {إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [المعارج: 28].

فإنَّ عذاب الله تعالى لا ينبغي أن يأمنه أحد, لأنَّ الأمور بخواتيمها, فهؤلاء المؤمنون مع إيمانهم وإحسانهم, يخافون من عذاب الله تعالى. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: المؤمن يُشفق أن لا تُقْبَل حسناتُه مع طاعته وإحسانه.

(**609**) {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [المعارج: 29].

أي يحفظون فروجهم عن الزنى والفواحش.

(**610**) {إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [المعارج: 30].

إلا على زوجاتهم فإنهم غير مؤاخذين, لأنها فيما أباحه الله تعالى لهم.

(**611**) {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المعارج: 31].

فمن طلب غير الزوجة وملك اليمين لقضاء شهوته, فإنه الظالم المتعدي لحدود الله تعالى.

أثنى الله تعالى عليهم بأنهم أعفَّاء شرفاء لا يرتكبون المحارم, بعيدون عن كلِّ قذارةٍ جنسية, فالإسلام يقرر نظافة الاتصال الجنسي, فيبيح العلاقات الجنسية إذا كانت بطريق شرعي شريف, ويحرِّمها إذا كانت بطريق الفوضى, كالحيوانات ينزو بعضُها على بعض, ويعتبرها رجساً وقذراً, يستحقُّ فاعلها العقوبة.

. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: لا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر, وحفظ القلب عن الفكر, وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع, فإن هذه محرِّكات للشهوة ومغارسها[1].

(**612**) {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون} [المعارج: 32].

أي يؤدون الأمانات, ويحفظون العهود, فإذا ائتمنوا لم يخونوا, وإذا عاهدوا لم يغدروا, خلافاً لما عليه المنافقون من خيانة الأمانة ونقض العهد.

(**613**) {وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُون} [المعارج: 33].

أي والذين يقيمون الشهادة بالعدل, يشهدون بالحق على القريب والبعيد, ولا يكتمون الشهادة ولا يغيِّرونها.

(**614**) {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُون} [المعارج: 34].

ويحافظون على صلاتهم, في أوقاتها, بفرائضها وأركانها وآدابها.

---

(1) تفسير الإمام الغزالي رضي الله عنه ص327.

(**615**) {أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُون} [المعارج: 35].

هؤلاء الذين اتَّصفوا بالصفات الفاضلة الحميدة, هم الوارثون لجنَّات النعيم, يلقون فيها التحيَّة والتكريم. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**616**) **{فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُون}** [المعارج: 42].

أي دعهم واتركهم في غيِّهم وضلالهم, اتركهم يخوضوا في باطلهم, ويلعبوا بدنياهم, حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب. نعوذ بالله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**617**) {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [نوح: 15].

أي ألم تشاهدوا عظمة الله تعالى وسلطانه, وقدرته الباهرة؟ وتنظروا نظر تفكُّر واعتبار, كيف أنَّ الله جلَّ وعلا العظيم الجليل, خلق سبع سموات, بعضُها فوق بعض, محكمة البناء, سماءً فوق سماء, وهي في غاية الإبداع والإتقان؟

(**618**) {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [نوح: 16].

وجعل القمر في السماء الدنيا, منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل؟ وجعل الشمس سراجاً وهَّاجاً, يزيل ظلمة الليل, ويبصر به الناس ما حولهم, كما يبصر أهل البيت الأشياءَ في ضوء السراج؟ عبَّر عن القمر بالنور, وعبَّر عن الشمس بالسراج, وهذه لفتة بديعة, لأنه ثبت علمياً أنَّ القمر جِرم مظلم, يستمدُّ نوره من الشمس, وأما الشمس فهي السراج الوهَّاج, فالقمر كالمرآة يعكس نور الشمس لأهل الأرض, فسبحان من أحاط بكلِّ شيء علماً!

ثم ذكَّرهم نبيُّهم نوح عليه السلام, بأصل نشأتهم من الأرض, ثم عودتهم إليها بعد الموت, ليقرِّر لهم عقيدة (البعث والنشور) فقال:

(**619**) {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا} [نوح: 17].

أي والله جلَّت عظمته, خلقكم خلقاً بديعاً, وأنشأكم من الأرض إنشاءً, كما يخرج منها النباتُ.

(**620**) {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: 18].

ثم يعيدكم إلى الأرض بعد موتكم, ثم يخرجكم منها للحساب والجزاء. وتشبيهُ خلق الإنسان بالنبات, تشبيهٌ عجيب, يوحي بحقيقة علمية, قلَّما ينتبه إليها البشر, وهي (وحدة الخلق) في الإبداع والإنشاء, فالإنسان كالنبات, ينمو كما ينمو النبات, من عناصرها الأساسية, يتغذَّى وينمو, والأرضُ أمُّه منها خُلق وإليها يعود, يتغذَّى من لَبَانها, ويأكل من نباتها, يتناول الحبوب, والخضار, والثمار, وهي خارجةٌ من الأرض, ويأكل لحوم الأنعام, وهي تتغذَّى من كلأ وعشب الأرض, فهو تماماً يشبه النبات, بل هو نباتٌ من نبات الأرض, وأصلُ البشر كلِّهم من التراب, فسبحان القائل في محكم التنزيل: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: 55]!

ثم وجَّههم إلى نعمة تذليل الأرض, وتيسير أسباب الحياة والعيش عليها, فقال:

(**621**) {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا} [نوح: 19].

أي جعلها فسيحةً, واسعة, ممهَّدة لكم, جعلها كالبساط والفراش, فيها تزرعون, وعليها تبنون, وفوق ظهرها تنامون وتتقلَّبون.

(**622**) {لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا} [نوح: 20].

لتسلكوا في الأرض طرقاً واسعة في أسفاركم, تنتقلون بواسطة هذه الطرق من بلد إلى بلد, ومن مكان إلى مكان.

شبَّه الأرض بالبساط, في امتدادها واستقرار الناس عليها, وليس معنى قوله {بِسَاطًا} أنها منبسطة غير كروية, فإنَّ كروية الأرض, أمرٌ مقطوع به, أثبته علماؤنا المتقدِّمون بأدلة عقلية ونقلية.

لقد سلك نوح عليه السلام مع قومه شتى الأساليب, وأنواع الوسائل, ليذكِّرهم بربِّهم وخالقهم ورازقهم, وكلُّ ذلك في دأب طويل, وصبر جميل, وزمان واسع, ومع ذلك لم يفلح في هدايتهم وإصلاحهم, ولذلك رجع إلى ربه بالشكوى من ضلال هؤلاء الطغاة المتمرِّدين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**623**) {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا} [الجن: 16].

أي لو استقام هؤلاء الكفار على شريعة الله تعالى التي أنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم, لأسقيناهم ماءً وافراً كثيراً, ننبتُ لهم به الزرع, ونُخرج لهم به الضرع.

(**624**) {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} [الجن: 17].

أي لنختبرهم به أيشكرون نعمة الله تعالى, أم يجحدونها؟ ومن يُعرض عن طاعة الله تعالى وعبادته, ندخله عذاباً شاقاً, صعباً شديداً.

(**625**) **{قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}** [الجن: 20].

أي قل لهم يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم: إنما أعبدُ ربِّي وحده, ولا أشرك معه أحداً, لا من البشر ولا من الأصنام.

(**626**) **{قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا}** [الجن: 21].

أي لا أقدر أن أجلب لكم نفعاً, أو أدفع عنكم ضراً, إنما الذي يملك هذا هو اللهُ تعالى وحده, فهو سبحانه النافع الضار.

(**627**) **{قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا}** [الجن: 22].

أي لن ينقذني من عذاب الله تعالى أحدٌ إن عصيتُه وأشركتُ معه غيره, ولن أجد ملجأً ألجأ إليه غير الله تعالى إن خالفت أمره, فكيف أطيعكم فيما

تدعونني إليه؟ والملتحَدُ: الملجأ والنصير.

كان المشركون قد طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك الدعوة إلى دين الإسلام, وأن لا يتعرَّض لآلهتهم بعيب أو طعن, وقالوا له: نحن نجيرك وننصرك, فنزلت الآية رداً على هؤلاء السفهاء.

(**628**) **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا}** [الجن: 26].

أي هو جلَّ وعلا وحده عالم الغيب, فلا يُطلع على غيبه أحداً من خلقه.

(**629**) **{إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** [الجن: 27].

أي إلا من اختاره وارتضاه لرسالته ونبوته, من بعض الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام, فيطلعهم على بعض مسائل الغيب, ليكون معجزة لهم تدلُّ على صدق دعوى رسالتهم, كما أطلع (عيسى عليه السلام) على بعض المغيَّبات كمعجزة له, وكما أطلع خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم على ما يحدث قُبيل قيام الساعة, فأخبر عنها, ثم قال تعالى عن هؤلاء الرسل الكرام: **{فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** أي فإنَّ الله تعالى يجعل لرسله عليهم الصلاة والسلام ملائكة وحرساً يحرسونهم من الجنِّ والشياطين, ومن أشرار البشر.

أقول: والذي يُطلِعُ الله تعالى المؤمنين عليه هو تابع لمعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم, وليس مستقلاً, فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لهم

الوحي الإلهي, والأولياء رضي الله تعالى عنهم لهم الإلهام الرباني.

(**630**) {لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن: 28].

أي ليعلم الله تعالى أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام قد بلغوا رسالاته إلى خلقه, دون زيادة ولا نقصان, (**أقول**: والمقصود إظهار ذلك التبليغ إلى الفعل, والله تعالى عالم به منذ الأزل), وأحاط علمُه بما عند الرسل عليهم الصلاة والسلام, فلا يخفى عليه شيء من أمورهم؛ وأحصى وضبط جلَّ وعلا كلَّ ما خلقه في الكون, حتى القطرَ والرملَ, والشجر والثمر, فلم يخفَ عليه شيء في الوجود سبحانه وتعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**631**) {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل} [المزمل: 1].

ثبت في الصحيح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه جبريل عليه السلام وهو في غار حراء يتعبَّد ربَّه، وأنزل عليه أول الآيات القرآنية: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق} [العلق: 1], رجع إلى السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها يرجف فؤاده، فقال لها: زمِّلوني، زمِّلوني، لقد خشيتُ على نفسي, وأخبرها بالخبر، فغطَّته بقطيفة، فأنزل الله تعالى عليه سورة المزمِّل، وانظر كمال الحديث في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

بدأت السورة الكريمة بنداءٍ للرسول عليه الصلاة والسلام، فيه ملاطفة وتأنيس له صلى الله عليه وسلم، والعرب إذا أرادت ملاطفة المخاطَب، وترك معاتبته، نادوه باسمٍ مشتق من حالته التي هو عليها، كقولهم: قم يا عجلان، أو يا ندمان، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله تعالى عنه حين غضب من فاطمة رضي الله تعالى عنها, ونام في المسجد, ولصق بجنبه التراب: (قم أبا تراب) أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى, فكان أحبَّ الأسماء عليه، فالنداء له صلى الله عليه وسلم بالوصف هنا: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل} إنما ناداه تعالى به تأنيساً وتلطيفاً له.

والمعنى: يا أيها المتلفِّف بثيابه، الراكنُ إلى الهدوء والراحة...

(**632**) {قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} [المزمل: 2].

قم بجدٍّ ونشاط, واجتهد في عبادة ربك، دع التزمُّل والتلفُّف، وانشط

لقيام الليل، فقم الليل كلَّه إلَّا قليلاً منه.

(**633**) {نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً} [المزمل: 3].

أو نصف الليل، أو انقص من النصف إلى الثلث.

(**634**) {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} [المزمل: 4].

أو زد إلى الثلثين، واقرأ آيات الذكر الحكيم في صلاتك، قراءة تُؤدةٍ وتمهُّل.

(**635**) {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} [المزمل: 5].

أي سننزل عليك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، قرآناً عظيماً جليلاً، له هيبةٌ وروعةٌ وجلال، لأنه كلام ربِّ العزة والجلال، وإنما أمرناك بصلاة الليل، لتستعدَّ وتتهيأ لنزول هذا الكتاب الجليل، وما فيه من تكاليف شاقَّة على النفس، وتبليغ ذلك إلى الناس.

(**636**) {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً} [المزمل: 6].

أي إنَّ العبادة التي تُنشئها وتحدثها في الليل، بالصلاة والناسُ نيام، أشدُّ كُلْفة ومشقةً على النفس, لأنَّ الليل جُعل للراحة والسكون، فإذا هجر الإنسان النوم، وقام لعبادة ربه كان ذلك شاقاً وصعباً على النفس، ولكنه أصفى للخاطر، وأعدلُ وأبينُ {قِيلاً} أي قولاً، بمعنى أنَّ القراءة في الليل، أقرب إلى تدبُّر كلام العزيز الحميد, حيث تهدأ الأصوات وتنقطع الحركات، فتكون النفسُ أصفى، والقلبُ أوعى، ويحصل التأمُّل والتدبُّر لمعاني كلام الله جلَّ وعلا.

(**637**) {إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً} [المزَّمل: 7].

أي إنَّ لك في وقت النهار ما يكفيك للتصرُّف في أشغالك، فتفرَّغ بالليل لعبادة ربك. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والمقصود أنَّ قيام الليل هو أشدُّ مواطأة بين القلب واللسان, وأجمع على التلاوة, ولهذا قال تعالى: {هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً}، أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهُّمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس، ولَغَط الأصوات، وأوقات المعاش.

وإنَّ لك في النهار فراغاً طويلاً, فأفرغ لربك الليلَ، وهذا حين كانت صلاةُ الليل فريضة، ثم إنَّ الله تعالى منَّ على عباده، فخفَّفها ووضعها.

(**638**) {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} [المزَّمل: 8].

أي دمْ على ذكر ربِّك جلَّ وعلا ليلاً ونهاراً، واستعن بالذكر على دعوة الله تعالى {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} أي انقطع إليه انقطاعاً تاماً، فاجعل همَّك طلب مرضاته، ولا تعتمدْ في شأن من شؤونك على غيره تعالى، فإذا انقطع قلبك عن الخلق، واتصل قلبك بالله جلَّ وعلا، كفاك الله تعالى شرَّ عباده.

(**639**) {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} [المزَّمل: 9].

أي ثقْ بربك جلَّ وعلا وحده، فهو الخالقُ والمالك لمشارق الأرض ومغاربها، وهو المتصرِّف في الكون، يُعزُّ ويُذلُّ، ويُغني ويُفقر، ويَرفع ويَخفض، فاجعل اعتمادَك على الله تعالى وحده.

(**640**) {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً} [المزَّمل: 10].

واصبر على أذى المشركين وسفههم، واهجرهم ولا تتعرَّض لهم، فعمَّا

قريب سيرون عاقبة التكذيب.

(**641**) {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المزّمل: 20].

أي ربُّك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنك تقوم للتهجُّد مع أصحابك أقلَّ من ثلثي الليل، وأحياناً ثلثه، في طاعة الله تعالى وطلب مرضاته {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي والله جلَّ وعلا يعلم مقادير ما تقومون به من الليل {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أي علم الله تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كلِّه، ولا معظمه، فرحمكم فخفَّف عنكم.

{فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} أي فصلُّوا ما تيسَّر لكم من قيام الليل والتهجُّد, واقرؤوا في الصلاة ما تيسَّر من القرآن، وإنما عبَّر عن الصلاة بالقراءة، لأنَّ القراءة أحد أركان الصلاة, قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: سقط عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامُ الليل وصارت تطوعاً, وبقي ذلك فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم بيَّن تعالى الحكمة من هذا التخفيف فقال سبحانه: {عَلِمَ أَن

سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي عَلِمَ ربُّكم أنه سيكون منكم من يعجزه المرضُ عن قيام الليل، ومن يعجزه السفرُ, وقد سافر لطلب الرزق, فيشقُّ عليه القيام؛ وهناك جماعة مجاهدون, خرجوا لنشر دعوة الله تعالى, والجهاد في سبيله, هؤلاء لا يستطيعون قيام الليل، لأنهم في النهار في شغل شاغل في جهاد الأعداء.

{فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} أي صلُّوا لله تعالى ما تيسَّر من الصلاة, {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} أقيموا الصلاة المفروضة عليكم (الصلوات الخمس), وأدُّوا زكاة أموالكم, وتصدَّقوا في وجوه البر والإحسان.

{وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} أي وما تفعلوه ـ أيها الناس ـ من وجوه الخير، طاعةً لربِّكم جلَّ وعلا، وطلباً لمرضاته، تلقوا أجره وثوابه عند ربِّكم سبحانه أضعافاً مضاعفة عمَّا فعلتموه من صالح الأعمال.

{وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم} أي اطلبوا مغفرة ربِّكم جلَّ وعلا في جميع أحوالكم، فإنَّ الإنسان قلَّما يخلو عن تفريطٍ أو تقصير, والله تعالى عظيم المغفرة, واسع الرحمة.

والآية تكاد تكون صريحة في أنَّ قيام الليل كان واجباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم نُسخ الحكم عن المؤمنين، وبقي فريضةً

على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ وإنما كُلِّفوا في بدء أمر الدعوة أن يقوموا ساعات من الليل طويلة, لا تقلُّ عن ثلثه, ولا تزيد عن ثلثيه، لأنَّ قيام الليل وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة, من ذكرٍ, وصلاة, وتلاوة قرآن، واستغفار, يقوِّي أبدانهم، ويزكِّي أرواحهم، ويعوِّدهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة، والانغماس في الملذات، كلَّفهم الله تعالى بذلك, ليعدَّهم إعداداً جسمياً، وروحياً, للقيام بأعباء الدعوة الجديدة, وتحمل المشاقِّ في سبيل نشر الإسلام, ولهذا فتحوا البلاد والأمصار، ويا لها من تربية كريمةٍ مجيدة, تنشئ الرجال, وتصنع الأبطال!!

أقول: إذا فاتتكم صلاة التهجُّد بالليل, فعليكم أن تقضوا بالنهار, كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**642**) {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدَّثر: 38].

أي كلُّ نفس محبوسةٌ بعملها يوم القيامة, ولا تُفكُّ حتى تؤدِّي ما عليها من الحقوق.

(**643**) {إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [المدَّثر: 39].

أي إلَّا السعداء أهل الجنَّة, فإنَّهم فكُّوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم, كما يفكُّ الراهن رهنه بأداء الدَّيْن.

أقول: وإذا كان من أصحاب اليمين, وكان عليه حقوق, فإنه يؤدي؛ إما أن يؤدي الله تعالى عنه, وإما من طرف العبد بالمسامحة, أو يحلُّ الله تعالى بينهم, والله تعالى يرضي صاحب الحقِّ, وهو يذهب إلى الجنَّة.

(**644**) {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُون} [المدَّثر: 40].

أي هم في حدائق وبساتين ناضرة...

(**645**) {كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ} [المدَّثر: 54].

كرَّر الردع توبيخاً لهم، ثم بيَّن أنَّ هذا القرآن تذكرة بليغة, كافية لاتِّعاظهم لو أرادوا الخير والسعادة لأنفسهم.

(**646**) {فَمَن شَاء ذَكَرَه} [المدَّثر: 55].

أي فمن شاء اتَّعظ به وانتفع.

(**647**) {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدَّثر: 56].

أي وما يتَّعظون بآيات الذكر الحكيم إلا أن يشاء الله تعالى لهم الهدى, فيتذكَّروا ويتَّعظوا. وفيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم, وترويح عن قلبه الشريف مما كان يغشاه من إعراضهم وتكذيبهم له {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} أي هو سبحانه حقيقٌ بأن يُتَّقى عذابه, ويُطاع, وحقيق لمن آمن به أن يغفر له, جلَّ شأنه, وعظُم سلطانه.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(648) {أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَه} [القيامة: 3].

أي هل يظنُّ الكافر الفاجر أنَّ الله تعالى لن يحييه بعد موته, ولن يجمع عظامه المتناثرة البالية؟

(649) {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه} [القيامة: 4].

أي بلى نجمعها, ونحن قادرون على ما هو أعجب من ذلك؛ أن نعيد الخطوط والدوائر التي على رؤوس الأصابع, نعيدها على ما كانت عليه. والمراد بالبَنَان: أطراف الأصابع، جمع بَنانَة؛ وهذه إحدى المعجزات القرآنية التي توصَّل إليها العلم الحديث, فقد ثبت علمياً أنَّ بشرة الأصابع مغطَّاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقَّة، منها ما هو على شكل أقواس, أو دوَّامات تشبه الدوائر، وهذه الخطوط لا يمكن أن يتشابه إنسان فيها مع آخر, ولذلك اعتمدتها الدول رسمياً, وأصبحت تميِّز بها الإنسان, والإعجاز في الآية أن التعبير جاءِ بلفظ: {أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه} ولم يقل: نخلق بنانه, ليشير إلى قدرة الله تعالى الباهرة في إعادة الهيئة والشكل الذي كانت عليه هذه الأصابع, بنفس الخطوط واللَّمسات التي كانت عليها, وتباركت عظمة الله تعالى في خلقه وإبداعه!

(650) {يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّر} [القيامة: 13].

أي يُخبَر الإنسانُ في ذلك اليوم العصيب عن جميع أعماله, صغيرِها وكبيرِها, ما قدَّمه منها في حياته, وما أخَّره بعد مماته, من سنَّة حَسَنَةٍ أو

سيِّئة.

(**651**) **{بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}** [القيامة: 14].

أي بل الإنسان شاهد على نفسه, لا يحتاج إلى شاهد آخر, تشهدُ عليه جوارحُه بسوء عمله وقبح صنيعه.

(**652**) **{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه}** [القيامة: 15].

ولو أنَّه أتى بكلِّ معذرة ليبرِّر إجرامه وفجوره, فإنه لا ينفعه ذلك؛ لأنَّ نفسه تشهد عليه {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: 14].

(**653**) **{أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}** [القيامة: 36].

أي هل يظنُّ الكافر الفاجر أن يُترك هملاً من غير تكليف, بحيث يبقى كالبهائم المرسلة, ومن غير بعثٍ ولا حساب ولا جزاء؟ لا ينبغي أن يظنَّ هذا الظنَّ الخاطئ.

(**654**) **{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى}** [القيامة: 37].

أي أما كان هذا الإنسان المتكبِّر على ربه ـ جلَّ وعلا ـ نطفةً مَهينة, تُراق وتُصبُّ في الأرحام؟ كقوله سبحانه: **{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ}** [المرسلات: 20]؟ فهذا أصل الإنسان.

(**655**) **{ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى}** [القيامة: 38].

ثم أصبح بعد ذلك علقة, تعلق بجدار الرحم **{فَخَلَقَ فَسَوَّى}** أي فخلقه الله تعالى في أبدع صورة, وجعله إنساناً سوياً.

(**656**) **{فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى}** [القيامة: 39].

أي فجعله صنفين: ذكراً وأنثى, بقدرته جلَّ وعلا, مع أنَّ النطفة واحدة.

(**657**) **{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى}** [القيامة: 40].

أي أليس هذا الإله المبدع الحكيم, الذي أوجد الإنسان من ماء مهين, بقادرٍ على أن يعيد خلقه بعد موته وفنائه؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(658) {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} [الإنسان: 1].

الإنسانُ من حيث إنه إنسان آيةٌ من آيات الله تعالى الباهرة, ومظهر من مظاهر قدرته جلَّ وعلا ووحدانيته, فقد أبدع الله تعالى خلقه, فركَّب فيه الحواس: (السمع, البصر, العقل, النطق, الفهم, التمييز) فأين كان الإنسان قبل أن يُخلق؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي صوَّره بهذه الصورة البديعة؟ أليس هو الله تعالى ربُّ العالمين؟ ولهذا ذكَّرنا الله عزَّ شأنه بنعمة الخلق والإيجاد, والتصوير والإبداع.

والمعنى: لقد أتى على الإنسان وقتٌ طويل كان في عداد الموتى, لم يكن له ذِكْرٌ ولا أثر, ثم أوجده اللهُ تعالى بارئ الأكوان, ومبدعُ الإنسان. والآية تشير إلى مرحلة ما قبل نفخ الروح, حيث مرَّ في بطن أمه بأطوار وأدوار, من نطفة إلى علقة, إلى مضغة, إلى لحم وعظام, ثم نفخ الله جلَّ وعلا فيه الروح فصار إنساناً سوياً.

(659) {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: 2].

أي نحن بقدرتنا الفائقة خلقنا الإنسان من (نطفةٍ أمشاج) أي أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة, لنختبره ونمتحنه بالتكاليف الشرعية والأوامر الإلهية، فجعلناه إنساناً سوياً, ذا سمع وبصر، وعقلٍ وتمييز. والمراد بالسمع والبصر

جميعُ الحواسِّ؛ من العقل, والفهم, والإدراك, وخصَّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواسِّ وأشرفها, فبالسمع يسمع آيات الرحمن, وبالبصر يرى بدائع الأكوان, وبالعقل يدرك عظمة الخالق جلَّ وعلا.

(**660**) {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: 3].

أي بيَّنا له وعرَّفناه طريق الهدى والضلال ببعثة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام, وإنزال الكتب الإلهية, ثم خيَّرناه وتركنا له طريق الاختيار, أن يسلك طريق الشكر أو الكفر, فإمَّا أن يكون مؤمناً تقياً فيسلك طريق الخير والرشاد, وإمَّا أن يكون فاجراً شقياً فيسلك سبيل الفجور والفساد, والشكرُ والكفرُ هما مناطُ الثواب والعقاب, والمراد: هديناه السبيل ليكون إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً. لم يقل تعالى: إما شاكراً وإمَّا كافراً, وإنما جاء بصيغة المبالغة في (الكَفور), ومعناه المبالغ في الكفر, دون الأولى, للإشعار بأنَّ الشاكر قليل, وأمَّا الكَفور, . وهو الجاحد لنعم الله تعالى . فكثير, ولهذا جاء النص: {وَإِمَّا كَفُورًا} بصيغة المبالغة, فتدبَّر أسرار القرآن.

(**661**) **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}** [الإنسان: 24].

أي فاصبر على ما ينالك من أذى المشركين, وانتظر لحكم ربك جلَّ وعلا وقضائه, فلا بدَّ أن ينتقم لك اللهُ تعالى من أعدائك, ويُقرَّ عينَك بإهلاكهم, ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان غارقاً في الآثام والشهوات, مبالغاً في الكفر والجحود لربِّه جلَّ وعلا.

(**662**) **{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}** [الإنسان: 25].

أي داوِم على ذكر ربِّك جلَّ وعلا في الصباح والمساء, وأكثر من طاعته وعبادته في كلِّ وقتٍ وحينٍ.

(**663**) {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً} [الإنسان: 26].

أي واسجد لربِّك في الليل متهجِّداً مستغرقاً في مناجاته, وأكثِر من الصلاة والعبادة لله تعالى في جنح الظلام والناسُ نيام, فهو الزاد لك على النصر على أعدائك. اللهمَّ أعنا يا ذا الجلال والإكرام.

(**664**) {إِنَّ هَؤُلاَء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً} [الإنسان: 27].

أي إنَّ هؤلاء الكفرة يُؤثرون الدنيا على الآخرة, وينهمكون في لذاتها الفانية, ويتركون وراءهم يوماً عسيراً شديداً, عظيم الأهوال والشدائد, وهو يوم القيامة, فلا يستعدُّون له ولا يفكِّرون فيه.

(**665**) {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: 30].

أي وما تشاؤون أمراً من الأمور إلا بتقدير الله تعالى ومشيئته, فهو سبحانه العليم بمصالح عباده, الحكيم في تدبيره وصنعه جلَّ جلاله.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**666**) {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ} [المرسلات: 20].

تذكيرٌ للجاحدين للقيامة, وتعجيبٌ من غفلتهم! أي ألم نخلقكم بقدرتنا من نطفةٍ قذرةٍ حقيرة هي المنيُّ؟

(**667**) {فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} [المرسلات: 21].

أي فجعلنا هذا الماء المهين في مكانٍ حصين, هو رحم المرأة.

(**668**) {إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ} [المرسلات: 22].

أي إلى وقت محدَّد معيَّن, قدَّره الله تعالى لهذا الجنين, وهو تسعة شهور, أو تزيد أياماً وساعات.

(**669**) {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [المرسلات: 23].

أي فقدرنا على خلقه في أطوار: نطفة, ثم علقة, ثم مضغة, ثم أنشأناه خلقاً آخر, فجعلناه في أجمل صورة وأحسن هيئة, فنِعْمَ القادرون نحن على الخلق والإعادة.

(**670**) {هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ} [المرسلات: 35].

أي في هذا اليوم الرهيب لا ينطق الفجار بحجة تنفعهم.

(**671**) {وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: 36].

أي ولا يُؤذن لهم ليعتذروا, فقد انقضى وقتُ الجدل, ومضى وقت الاعتذار, وجاء وقتُ العقاب {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: 52].

(**672**) {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُون} [المرسلات: 48].

إذا قيل لهم: صلُّوا لله تعالى واسجدوا له, واخشعوا لعظمته وجلاله, أبَوا واستنكفوا, يأبون السجود للرحمن, ويهرعون للسجود للأوثان, أفلا يستحقون مثل هذا العذاب لفجورهم وطغيانهم؟

(**673**) {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِين} [المرسلات: 49].

أي عذابٌ ودمار للكفرة الفجار.

(**674**) {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون} [المرسلات: 50].

فبأيِّ كتاب وبأيِّ كلام يصدِّقون ويؤمنون إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن الواضح الساطع المنير؟ هل هناك كتاب أو كلام أصدق من كلام ربِّ العزَّة والجلال؟

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(675) {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} [النبأ: 17].

أي إنَّ يوم الحساب والجزاء الذي يفصل الله جلَّ وعلا فيه بين الخلائق, له وقتٌ محدَّد معلوم في علمه تعالى وقضائه, لا يتقدَّم عليه ولا يتأخَّر. ثم بيَّن تعالى ووضَّح وقت مجيئه فقال:

(676) {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ: 18].

أي وقتُه وزمانه يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الإحياء, وهي النفخة الثانية, فتُبعثون من قبوركم وتُحضَرون جماعات جماعات للحساب أمام ملك الملوك, جبَّار السموات والأرض.

(677) {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ: 19].

أي تشقَّقت السماء وتصدَّعت من كلِّ جانب هيبةً من الله تعالى, فصار فيها مثل الأبواب, بعد أن كانت لا فطور فيها ولا صدوع, وذلك لنزول الملائكة عليهم السلام أيضاً {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً} [الفرقان: 25]. ومن هولٍ في السماء إلى هولٍ في الجبال:

(678) {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: 20].

أي نُسفت الجبالُ وقُلعت من أماكنها, فصارت كأنَّها هباء منبثٌّ متطاير, كالسراب؛ يظنُّه من رآه ماءً, وما هو في الحقيقة إلَّا هباء.

(679) {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: 31].

أي إنَّ للمؤمنين السعداء الذين اتقوا محارم الله تعالى, وأطاعوا ربهم جلَّ

وعلا في الدنيا, لهم الفوز بجنَّات النعيم, والظفر بكلِّ محبوب, والنجاة من عذاب الجحيم. ثم فسَّر هذا النعيم فقال:

(**680**) {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [النبأ: 32].

أي لهم بساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والثمار, وفيها أنواع الأعناب الطيبة من جميع ما تشتهيه النفس من الفواكه والثمار.

(**681**) {وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [النبأ: 33].

أي وفي الجنَّة نساء عذارى نواهد, في منتهى الحسن والجمال, كواعب جمع كاعب، وهي الجارية التي بَرَزَ نَهدُها (أي ثديُها) واستدار مع ارتفاع يسير, (أتراباً) أي مستويات في السنِّ والجمال. والمراد أنَّهنَّ بالغات تمام درجة الحُسْن الفائق, فيهنَّ رُواء الشباب ونضارتُه, وفيهنَّ الجمالُ الفاتنُ الذي لا يكاد يُوصف.

(**682**) {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: 34].

أي وكأساً من الخمر مملوءةً صافية. ومعنى الدِّهاق: المملوءة, والكأسُ إذا أطلقت في القرآن يراد بها الخمر.

(**683**) {لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا} [النبأ: 35].

أي لا يسمعون في الجنَّة كلاماً باطلاً لا فائدة فيه, ولا كذباً من القول؛ لأن الجنَّة دار السلام ودار السرور, فليس فيها ما ينغِّص العيش, أو يكدِّر الجوَّ, من الكلام القبيح والكذب الصريح.

(**684**) {جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا} [النبأ: 36].

أي جـازاهم الله تعـالى علـى إحسـانهم وعملهـم الصـالح بـذلك الجـزاء العظيم, تفضُّلاً منه وكرماً {عَطَاء حِسَابًا} أي عطاء كافياً وافياً.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**685**) {فَأَمَّا مَن طَغَى} [النازعات: 37].

أي فأما من كفر وفجر, وجاوز الحدَّ في الكفر والعصيان.

(**686**) {وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النازعات: 38].

واختار الحياة الفانية الدنيا, على الحياة الباقية الآخرة, وانهمك في الشهوات المحرَّمة.

(**687**) {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 39].

فإنَّ جهنَّم هي مسكنه ومأواه, لا مسكن له سواها.

(**688**) {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: 40].

أي وأمَّا من خاف عظمة ربِّه وجلاله, وخاف وقوفه بين يدي ربِّ العزة والجلال للحساب والجزاء, ونهى نفسه وكفَّها عن المعاصي والمحارم.

(**689**) {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 41].

فإنَّ مسكنه ومأواه هو الجنَّة دار النعيم.

وهذا ميزان دقيق, يستطيع أن يعرف به الإنسانُ مصيره في الآخرة وهو في الدنيا, فإنْ كان يخاف من الله جلَّ وعلا, ويجتنب محارمه, وينهى نفسه عن الشهوات المحرَّمة, فمصيره إلى الجنَّة, وإلَّا فمصير كلِّ من لا يؤمن بالله تعالى, ولا يصدِّق بالآخرة, ولا يكفُّ نفسه عن المحارم؛ نارُ الجحيم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**690**) {فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: 33].

الصَّاخةُ: صيحة القيامة, سُميت صاخَّة لأنها تَصُخُّ الآذان, أي تصمُّها بشدَّة صوتها, أي فإذا جاءت الداهيةُ العظيمة وهي القيامة التي يفزع لها البشر.

(**691**) {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه} [عبس: 34].

أي في ذلك اليوم الشديد الرهيب يهرب الإنسان من أعزِّ وأحبِّ الناس إليه, يهرب من أخيه.

(**692**) {وَأُمِّهِ وَأَبِيه} [عبس: 35].

أي ويهرب من أمه, وأبيه.

(**693**) {وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه} [عبس: 36].

أي وزوجته, وأبنائه, لئلا يطالبه بحقٍّ له عليه, ولشدة الهول يتمنَّى ألا يرى أحداً منهم, لأنَّ الهول عظيم, والخطب جسيم.

(**694**) {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه} [عبس: 37].

أي لكلِّ إنسان في ذلك اليوم شأن يشغله عن شأن غيره, ولذلك لا يفكِّر في غير نفسه. سمعت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الناس حُفاة عُراة غُرْلاً . أي غير مختونين . فقالت: يا رسول الله, الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: يا عائشة, الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض) رواه الإمام البخاري

رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**695**) **{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِين}** [التكوير: 27].

وما هو إلا موعظة وتذكرة لجميع البشر.

(**696**) **{لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيم}** [التكوير: 28].

أي لمن أراد أن يتَّبع الحقَّ, ويهتدي بهدي هذا النور الإلهي.

(**697**) {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين} [التكوير: 29].

أي وما تقدرون على شيء إلا بتقدير الله تعالى ولطفه, فاطلبوا من الله جلَّ وعلا الهداية والتوفيق لأفضل طريق. اللهمَّ اهدنا وسدِّدْنا يا ربَّ العالمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**698**) **{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَت}** [الانفطار: 4].

أي قُلب ترابُها, وأُخْرِج موتاها, فأصبحوا على ظهرها بعد أن كانوا في بطنها.

(**699**) **{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَت}** [الانفطار: 5].

هذا هو جواب (إذا), أي في ذلك اليوم تعلم كلُّ نفسٍ . برَّةً كانت أو فاجرة . ما أسلفت من خير أو شرٍّ, وما فعلت من صالح أو طالح.

(**700**) **{يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}** [الانفطار: 6].

المرادُ بالإنسان هنا: الإنسانُ العاصي الفاجر, بدليل الاستفهام الذي هو للتوبيخ, أي ما الذي خدعك وجرَّأكَ على عصيان ربك, وقد علِمت ما بين يديك من الدواهي والشدائد؟! وكيف تجرَّأت على مخالفة أمره, مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟! فالآية واردة مورد العتاب والتوبيخ, كأنَّها تقول: كيف قابلتَ إحسان ربِّك بالعصيان, ورحمته بك بالتمرُّد والطغيان؟ وليست لتلقين الحجة كما قال البعض, ولهذا قال عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه: غرَّه جهله, وغرَّه حُمقه. ثم فصَّل تعالى بعض نعمه الجليلة عليه, فقال:

(**701**) **{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَك}** [الانفطار: 7].

أي الذي خلقك بعد أن لم تكن شيئاً, فجعلك سويَّاً سالم الأعضاء, تسمع, وتبصر, وتعقل, وجعلك معتدل القامة, في أحسن الهيئات

والأشكال.

(**702**) {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} [الانفطار: 10].

أي والحال أنَّ عليكم ملائكةً حفظة, يضبطون أعمالكم.

(**703**) {كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار: 11].

ويكتبون أقوالكم, فلا تظنُّوا أنكم متروكون مُهمَلون, بل عليكم رُقباء من الملائكة يراقبون تصرُّفاتكم.

(**704**) {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: 12].

أي يعرفون كلَّ ما تعملونه أو تتحدَّثون به من خير أو شرٍّ, ويسجِّلون ذلك في صحائف أعمالكم, لتجازَوْا به يوم القيامة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: (أكرموا الكرامَ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة, والغائط) رواه ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى.

والآيةُ تحذيرٌ وتذكير, فإنَّ العبد إذا أيقن أنَّ الله تعالى رقيبٌ عليه, وأنَّ الملائكة عليهم السلام يحفظون أعماله ويكتبونها في صحفهم, وأنَّها تُعرض يوم القيامة على رؤوس الأشهاد؛ كان ذلك أزجر له وأبعد عن فعل القبيح والسوء.

(**705**) {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار: 13].

أي إنَّ المؤمنين الأبرار لفي الجنَّة دار السرور والحُبور, يتنعَّمون فيها بما لذَّ وطاب. اللهمَّ اجعلنا من عبادك الأبرار.

(**706**) {يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّه} [الانفطار:

19].

أي في ذلك اليوم الرهيب لا ينفع أحدٌ أحداً, ولا يدفع عنه أيَّ ضرر, والحكم والقضاء فيه بيد جبار السموات والأرض, لا يملكه غيره جلَّ وعلا, فهو الحاكم وهو المتصرِّف يوم الدِّين, كما قال سبحانه: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16].

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**707**) {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون} [المطفِّفين: 14].

أي ليرتدعْ ذلك الفاجر عن هذا القول الباطل, فليس القرآن أساطير الأولين, بل حقيقة الأمر أنه غطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الجرائم والقبائح, فطمس على بصائرهم, فصاروا لا يعرفون الرُّشد من الغيِّ. ومعنى قوله: {رَانَ} أي غلب وغطَّى. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: الرَّانُ: هو الذنبُ على الذنب, حتى يسودَّ القلب ويعمى فيموت. وفي الحديث الشريف: (إنَّ العبد إذا أذنب ذنباً نُكِتتْ في قلبه نكتة سوداء, فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبُه, وإنْ عاد ـ أي إلى الذنب ـ زادت حتى تعلو قلبَه, فذلك الرَّان الذي ذكر الله تعالى: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون}) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

(**708**) {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم} [المطففين: 22].

أي إنَّ السعداء الأبرار في الجنان الوارفة, والثمار الدانية, يتنعَّمون في الجنَّة بكلِّ ما يشتهون.

(**709**) {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُون} [المطففين: 23].

يضطجعون على السرر المزيَّنة بفاخر الثياب والستور, ينظرون إلى ما أعدَّ الله تعالى لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنَّة. وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: (إنَّ أدنى أهل الجنَّة منزلة, لَمَن ينظر في ملكه مسيرة ألف سنة, يرى أقصاه كما يرى أدناه, وإن أعلاهم لمنْ ينظر إلى الله عزَّ وجل

في اليوم مرتين) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى. اللهمَّ أكرمنا بالنظر إلى وجهك الكريم, وارضَ عنَّا برحمتك يا أرحم الراحمين.

(**710**) {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم} [المطففين: 24].

أي إذا رأيتهم تعرف أنَّهم أهل نعمة؛ لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحُسن, وترى بهجة النعيم ورَوْنقه, فهم في نعيم دائم وسرور كامل, تفيض البهجة والنُّضرة على وجوههم.

(**711**) {يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُوم} [المطففين: 25].

أي يُسقَون في الجنَّة من خمرٍ بيضاء صافية, لم تكدِّرها الأيدي, قد خُتم على تلك الزجاجات, فلا يفكُّها إلا أربابها. والرحيق: صافي الخمر وخالصها الذي لا غشَّ فيه.

(**712**) {خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون} [المطففين: 26].

أي ممزوج بمسك, إذا شربه الإنسان فاحت منه رائحة المسك. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: طيَّب الله تعالى لهم الخمر, فكان آخر طعمه مختوماً بمسك, أي بريح المسك؛ وفي مثل هذا النعيم والشراب الهنيء فلْيرغب الراغبون, وليتسابق المتسابقون.

(**713**) {وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيم} [المطففين: 27].

أي يُمزَج ويُخلَط ذلك الشراب (الرحيق) من عينٍ عاليةٍ رفيعة, تجري من جنَّة عدن, هي أشرف شراب أهل الجنَّة وأصفاه, تسمى التسنيم.

(**714**) {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُون} [المطففين: 28].

يشرب منها المقرَّبون صِرْفاً, يعني خالصاً, ويُمزجُ الرحيق منها للأبرار, فدلَّت الآية على أنَّ درجة (المقرَّبين) أعلى من درجة (الأبرار), وفي الحديث الشريف: (أيما مؤمن سقى مؤمناً شربةَ ماء على ظمأ, سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**715**) {يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيه} [الانشقاق: 6].

الكدحُ: السعيُ والجِدُّ وإجهاد النفس في العمل. والمعنى: أنتَ يا بنَ آدم تكدُّ وتتعب, وتشقى وتَنْصب, والزمانُ بك يطير, وأنت في كلِّ لحظة تقطع شوطاً من عمرك القصير, فكأنك سائرٌ ومسرع نحو الموت, ثم تلقى جزاءك هناك في الآخرة, إن خيراً فخير, وإن شراً فشرٌّ, فهلَّا قدَّمت لآخرتك ما ينفعك من العمل الصالح! وهلَّا كان كدحُك فيما يُنجيك من أهوال وشدائد يوم الحساب!

(**716**) {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه} [الانشقاق: 7].

أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه, وهذه علامةُ السعادة.

(**717**) {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: 8].

أي فسوف يكون حسابُه سهلاً يسيراً, فلا يُناقَش ولا يُدقَّق معه في الحساب, وإنما تُعرض عليه أعمالُه عرضاً, ثم يدخل الجنَّة معزَّزاً مكرَّماً.

ومعنى العرض: أن يُعرَّف المؤمنُ بذنوبه, ثم يُتجاوَز عنه, للحديث الشريف: (إنَّ الله تعالى يُدني ـ أي يُقرِّب ـ العبدَ يوم القيامة, حتى يضع عليه كَنَفه ـ أي ستره ـ فيقول له: فعلتَ كذا وكذا, يوم كذا وكذا.. ويعدِّد عليه ذنوبه, ثم يقول له: سترتُها عليك في الدنيا, وأنا أغفرها لك اليوم) والحديث في البخاري ومسلم؛ فهذا هو العرضُ الذي أشارت إليه النصوص النبويَّة.

سمعت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليس أحد يُحاسب إلَّا هلك, فقالت: يا رسول الله جعلني الله فداءَك! أليس يقول الله عزَّ وجل: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}؟ فقال لها صلى الله عليه وسلم: ذاك العرضُ, ومن نُوقش الحساب هَلَك) رواه البخاري ومسلم.

(**718**) {وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: 9].

أي ويرجع إلى أهله وإخوانه في الجنَّة, مبتهجاً مسروراً بما أكرمه الله تعالى به من العفو والنجاة من العذاب, وهذا هو المنقلب السعيد, الرضيُّ الهنيء.

(**719**) **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ}** [الانشقاق: 10].

أي وأمَّا من أوتي كتاب عمله بشماله, ومن وراء ظهره, وذلك علامةُ الشقاوة...

(**720**) **{فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا}** [الانشقاق: 11].

فسوف يدعو على نفسه بالويل والثبور, والهلاك والدمار, ويتمنَّى الموتَ الذي كان يفرُّ منه, يقول: يا ويلاه, يا ثبوراه, أنقذيني, ينادي الهلاكَ لينقذه, كما يتمنَّى المريضُ بداءٍ عضالٍ الموتَ, كما قال الشاعر:

كفَى بكَ دَاءً أن تَرَى الموتَ شَافِياً   وحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنَّ أمَانِيَا

(**721**) **{وَيَصْلَى سَعِيرًا}** [الانشقاق: 12].

ويدخل ناراً حامية مستعرة هي نار الجحيم.

(**722**) {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: 13].

أي لأنه كان في الدنيا بَطِراً, مُتْرَفاً, مسروراً مع أهله, غافلاً لاهياً, لا يفكِّر في العواقب, ولا تخطر على باله الآخرة, فأعقبه ذلك الفرحُ اليسير الحزنَ الدائم الطويل.

(**723**) {إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُور} [الانشقاق: 14].

أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربِّه جلَّ وعلا, ولن يجازى على عمله, فلذلك كَفَر وفجر, ومعنى: {يَحُور} أي يرجع.

(**724**) {بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق: 15].

أي بلى سَيُعِيدُهُ الله تعالى بعد موته, ويُحييه بعد فنائه, ويجازيه على كلِّ أعماله صغيرِها وكبيرِها, فإنَّ ربه الذي خلقه كان مطَّلعاً على جميع أفعاله, وحركاته وسكناته.

قال ابن زيد رحمه الله تعالى: وصف الله تعالى أهلَ الجنَّة بالخوف والحزن, والبكاء في الدنيا, فأعقبهم به النعيمَ والسرورَ الدائم في الآخرة, ووصف أهلَ النار بالسرور والتنعُّم, والضحك في الدنيا, فأعقبهم به الحزنَ الطويل في الآخرة.

(**725**) {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُون} [الانشقاق: 22].

أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والجحود والإنكار, وجاء بصيغة المضارع {يُكَذِّبُون} للدلالة على استمرارهم في التكذيب, لأنَّ المضارع يفيد التجدُّد والاستمرار.

(**726**) {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُون} [الانشقاق: 23].

أي والله جل وعلا هو العالم بما يضمرونه في صدورهم من عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

(**727**) {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم} [الانشقاق: 24].

أي فبشِّرْهم بالعذاب الموجع الأليم في نار الجحيم. وذكر البشارة في موضع الإنذار (للسخرية والتهكُّم), يسخر القرآن منهم كما سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم, ودينِ الله تعالى.

(**728**) {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون} [الانشقاق: 25].

أي لكنِ المؤمنون الصادقون, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فإنَّ لهم ثواباً في الآخرة دائماً غير منقوص ولا مقطوع, في جنَّات الخلد والنعيم, مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين, وحَسُنَ أولئك رفيقاً. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**729**) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: 11].

إنَّ المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم البساتينُ والحدائقُ الزاهرة, التي تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنَّة, ولهم فيها من كلِّ ما تشتهيه نفوسهم من أنواع المطاعم والمشارب, وذلك هو الظَّفَرُ العظيم بالمطلوب والمحبوب, الذي تصغر عنده الدنيا كلُّها وما فيها.

أقول: لا شكَّ لنا في إيماننا, ولكن نشكُّ في عملنا, هل هو صالح أم لا؟ أظنُّ أنَّ كلَّ البشر لا يحكمون أنَّ عملهم صالح أم لا, فإنه لا يخلو أن يدخل فيه شيء, فمنهم يحسُّون, فيستغفرون ويرجعون, ومنهم لا يحسُّون ولا يرجعون؛ إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام, المعصومون بعصمة الله تعالى لهم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**730**) {فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ} [الطارق: 5].

أي فلينظر الإنسانُ نظر تفكُّر واعتبار في أصل نشأته, من أيِّ شيء خلقه الله تعالى؟ ليعرف عظمة خالقه, ومبدع تكوينه.

(**731**) {خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ} [الطارق: 6].

خُلق من ماء متدفِّق من الرجل, يختلط مع ماء المرأة (البويضة الأنثوية), ليخرج منهما هذا المخلوق العجيب.

أقول: ومع هذا يكون مع كِبره وغروره! نعوذ بالله.

(**732**) {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق: 7].

أي يخرج من صلب الرجل (عظام الفقرات), ومن ترائب المرأة ـ وهي ضلوع صدرها ـ جمعُ تَرِيبَة, وهي ما بين الثديين, كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ وجاء العلم الحديث بمكتشفاته ومخترعاته الدقيقة, ليخبر عن هذه الحقيقة التي حدَّث عنها القرآن, فقد كشف العلم الحديث أنَّ في عظام الظهر يتكوَّن ماء الرجل, وفي عظام الصدر العلويَّة يتكوَّن ماء المرأة, وعند اللقاء الجنسي يتدفَّق المنيُّ بقوَّة وشدَّة, ويلتقي مع البويضة الأنثوية, ليجتمعا في قرار مكين هو رحم الأم؛ ولكنَّ خلقَ الإنسان من نطفة مهينة معجزةُ المعجزات, وأعجوبة الأعاجيب, فهذا الماء الدافق من صلب الرجل, يحمل معه جيشاً جرَّاراً من الجنود الشجعان المغاوير, يسمِّيها علماءُ الأجنَّة (الحيوانات المنوية), وفي الدَّفقة الواحدة يتدفَّق ما يزيد على أربعة ملايين

حيوان منوي, يهجمون هجوم الأبطال على البويضة الأنثوية القادمة من عظام صدر الأنثى, والمستقرَّة في رحم الأم؛ حيوانٌ واحد منها فقط, الأسبقُ والأمهرُ منها, هو الذي تحتضنه هذه البويضة وتقبله عريساً لها, وتُغلِق عليه باب الرَّحم, ويبدأ عندها شهر العسل, ثم تطرد بقيَّة العُشاق من الملايين الذين يموتون صرعى خارج الرحم, وتبدأ الرحلة العجيبة, فيتكون منها خليَّة واحدة ملقَّحة, ثم تبدأ في الانقسام المستمر إلى خلايا, وهذه الخلايا تقوم ببناء هيكل الجسم الإنساني, وكأنَّها عقلٌ مبدعٌ مدبِّر, قادرة على البناء والتصنيع لهذه العمارة الإنسانية, فهذه خلايا للجهاز العظمي, وهذه خلايا لجهاز التنفُّس, وهذه لجهاز الهضم, وتلك للجهاز العصبي, وكلٌّ مجموعة تقوم بعملها التخصُّصي الدقيق, فالخلايا المكلَّفة بالعين تعرف أن العين يجب أن تكون في الوجه, ولا يجوز أن تكون في البطن أو في الظهر؛ إذ كيف يمكن للإنسان أن يمشي لو كانت العين في الظهر مثلاً؟! وهكذا قُلْ في جميع الخلايا والعضلات والعظام, ومن هنا ندرك سرَّ قول الله عزَّ وجل: {فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ} لنرى عظمة الخالق المبدع الحكيم جلَّ وعلا.

(**733**) {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} [الطارق: 8].

أي إنَّ ربَّه تبارك وتعالى الذي خلقه من نطفةٍ من ماء مهين, قادرٌ على إحيائه وإعادته بعد موته إلى الحياة, لأن من قَدَر على البداءة, قادر على الإعادة, ولكنْ متى يكون موعد الإعادة؟ قال تعالى:

(**734**) {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: 9].

أي يوم تُمتحن القلوب وتُختبر, فيعرف ما فيها من الخفايا والنوايا, ويُميَّز بين القلب الطيب الطاهر, والقلب الخبيث الفاجر, فلا يبقى هناك سرٌّ مكتوم.

(**735**) **{**فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ**}** [الطارق: 10].

وليس للإنسان في ذلك اليوم قوةٌ تدفع عنه العذاب, ولا ناصرٌ ينصره أو يجيره من الكرب والبلاء, لأنه يفقد المعين والنصير.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(736) {إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} [الأعلى: 7].

استثناء من الأحكام, أي إلا ما شاء الله تعالى نسخه من الأحكام التشريعية, فإنك تنساه من صدرك {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} أي يعلم ما يجهر به العباد, وما يخفونه من الأقوال والأفعال, لا تخفى عليه خافية. وثمَّ بشارة أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم, وهي أن يجعل شرعه ودينه سمحاً سهلاً, لا ضيق فيه ولا حرج, ولا عُسر فيه ولا مشقة؛ الحمد لله على نعمة الإسلام.

(737) {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} [الأعلى: 8].

أي نوفِّقك للشريعة السمحة, التي هي أيسرُ وأسهلُ الشرائع السماوية, وهي ملة أبيك إبراهيم عليه الصلاة والسلام, ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (بُعثت بالحنيفيَّة السمحة) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند, فالشريعةُ الغراء هي شريعةُ اليسر والسماحة.

(738) {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى: 9].

أي فذكِّر يا أيها الرسولُ صلى الله عليه وسلم البشرَ بهذا القرآن الذي أنزلناه عليك, حيث تنفع الموعظةُ والنصيحةُ والتذكرة, ولا تُتعب نفسك مع الذين انحطُّوا إلى درجة البهائم والأنعام التي تسمع الكلامَ ولا تفهم المرام, فهؤلاء لا ينفعهم نصحٌ ولا تذكير. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ومن هاهنا يُؤخذ الأدبُ في نشر العلم, فلا يضعه عند غير أهله, كما قال عليٌّ رضي

الله تعالى عنه: ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم, إلَّا كان فتنةً لبعضهم. وقال كذلك: حدِّثوا الناس بما يعرفون, أتريدون أن يُكذَّب اللهُ تعالى ورسولُه صلى الله عليه وسلم؟!

أقول: وفيما يتعلَّق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة قل لهم, قبلوا أم لم يقبلوا, ما دام لم ينهوك ويمنعوك.

(**739**) {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} [الأعلى: 10].

أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من له قلبٌ حيٌّ, يخاف الله تعالى ويخشى عقابه.

أقول: ويخاف من عظمته جلَّ جلاله.

(**740**) **{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}** [الأعلى: 14].

أي قد فاز ونجح, ونال مطلوبه ومبتغاه, من طهَّر قلبه بالإيمان, وأخلص عمله للرحمن.

(**741**) **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** [الأعلى: 15].

وتذكَّر عظمةَ الله تعالى وجلالَه, فصلَّى خاشعاً ممتثلاً لأمر ربِّه جلَّ وعلا, فنال السعادة الكبرى بدخول جنَّة النعيم.

(**742**) {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [الأعلى: 16].

أي بل تفضِّلون أيها الناسُ هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية, فتشتغلون للدنيا وتنسون الآخرة.

(**743**) **{وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [الأعلى: 17].

والحالُ أنَّ الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى؛ لأنَّ الدنيا فانية, والآخرةُ باقية, والباقي خيرٌ من الفاني, ولو أنَّ دُورَ الدنيا ومساكنها كانت من ذهب, وكانت دُور الآخرة ومساكنها من خشب؛ لكانت الآخرة أفضل وأعلى وأثمن, لأنها دائمة باقية, والدنيا زائلة فانية, فكيف والأمر بالعكس؟! فإنَّ قصور الجنَّة من فضة وذهب, وكلُّ ما فيها نعيمٌ وأمنٌ, فكيف يفضِّل العاقل الدنيا على الآخرة؟!

قرأ سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه هذه الآية: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} فقال لأصحابه: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا نعلم, قال: لأنَّ الدنيا أُحضرت وعُجِّلت لنا؛ بطعامها, وشرابها, ونسائها, وبهجتها, ولذَّاتها, والآخرةُ زُويت وغُيِّبتْ عنا, فأحببنا العاجل وتركنا الآجل.

أقول: ومثاله الذين من أجل دقيقة واحدة أو أقل في الحرام والمخالفة يرجِّحون عذاب الله تبارك وتعالى.. نعوذ بالله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**744**) {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: 22].

أي لستَ بمتسلِّطٍ عليهم, ولا قاهرٍ لهم, حتى تُجبرهم على الإيمان, فالقلوب بيد الرحمن يقلِّبها كيف يشاء. نرجو من فضل الرحمن وبركته أن يوجِّه المؤمنين توجيهاً صحيحاً.

(**745**) **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُم}** [الغاشية: 25].

أي إنَّ رجوعهم بعد الموت إلينا وحدنا, لا لأحدٍ غيرنا.

(**746**) **{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم}** [الغاشية: 26].

أي ونحن الذين سنحاسبهم ونجازيهم على كفرهم وإجرامهم.

وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم, وإزالة لهمومه وأحزانه, كأنه يقول له: لا تحزن لتكذيبهم لك وسخريتهم منك, فرجوعهم إلينا, ونحن سنتولى عقابهم, ولن يُفلتوا من العقاب أبداً, فالمحاسبُ بصير, والله تعالى على كلِّ شيء قدير جلَّ وعلا.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**747**) {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: 14].

المِرْصاد: المكان الذي يرصد الإنسان فيه عدوَّه, أي إنَّ ربَّك جلَّ وعلا يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم للطغاة المفسدين في الأرض, يرقبهم ويترصَّد خطواتهم, كما يترصَّد رجال الأمن مجرماً, لا يفوته أحد من الطغاة الأشرار. وفي هذا تهديد لكفار قريش الذين كذبوا سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم. ثم جاء الحديث عن طبيعة الإنسان الكافر الجاحد لنعم ربِّه, الذي يبطر عند الرخاء, وييئس عند الضراء, فقال سبحانه:

(**748**) {فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [الفجر: 15].

أي فأمَّا الإنسان الغافل عن ربِّه تبارك وتعالى, وعن الإيمان بالحساب والجزاء, فهو لجهله وغفلته لا يهتمُّ إلَّا بأمور دنياه, فإذا اختبره ربُّه وامتحنه بالغنى واليسار فيقول: ربي أحسنَ إليَّ لأنني مستحقٌّ لهذا التكريم والنعيم, وينسى أن هذا اختبار له, أيشكر أم يكفر؟

(**749**) {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر: 16].

أي وأما إذا اختبره وامتحنه بضيق الرزق والفقر, فيقول متبرِّماً ضجراً: ربي أهانني بتضييقه الرزقَ عليَّ, وهذا من جهله وغفلته, فهو يحصر النعمة في الغِنى والمال, ولا ينظر إلى نعمة الصحَّة, والعقل, والأمن, ونعمة المعافاة

من كلِّ بلاء, وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث والنشور.

وإنما أنكر عليه قولَه: {رَبِّي أَكْرَمَن} وقولَه: {رَبِّي أَهَانَن}؛ لأنه قال الأولى: {أَكْرَمَن} على وجه الفخر والكِبْر, لا على وجه الشكر, وقال: {أَهَانَن} على وجه التشكِّي وقلَّة الصبر, ولهذا جاء له الردعُ والزجر {كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيم} [الفجر: 17].

(**750**) **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}** [الفجر: 23].

أي وأُحضرت جهنَّم ليراها المجرمون رَأْيَ العين, ففي ذلك اليوم الرهيب, والموقف العصيب, يتَّعظ الكافر, ويندم الفاجر, يندم على تفريطه وعصيانه, ويتمنَّى أن يعود إلى الدنيا ليصلح سيرته؛ ومن أين له ذلك, وقد ذهبت الدنيا وجاء وقتُ الحساب والجزاء؟!

(**751**) **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة}** [الفجر: 27].

أي يا أيتها النفس المؤمنة, الطاهرة الزكيَّة.

(**752**) **{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّة}** [الفجر: 28].

ارجعي إلى رضوان ربِّك جلَّ وعلا وجنَّته, راضيةً بما أعطاكِ الله تعالى من النعيم, راضياً عنك ربُّك سبحانه بما قَدَّمتِ من عمل.

(**753**) **{وَادْخُلِي جَنَّتِي}** [الفجر: 30].

أي فادخلي جنان الخلد في زمرة عبادي الصالحين, ادخلي معهم الفردوس الأعلى مع النبيين والشهداء والصالحين. وهذا يقال للمؤمنين عند

الاحتضار, لتكون للمؤمن بشرى عاجلة سارَّة قبل موته, جعلنا الله تعالى وإياكم من عباده الصالحين.

أقول: وهذا يكون في الآخرة, والمراد بالنفس هنا ذات الإنسان.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**754**) {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَد} [البلد: 5].

الضمير: {أَيَحْسَبُ} يعود إلى بعض صناديد قريش, وهو أبو الأشدِّ كَلَدة بن أسيد, كان طاغية جباراً يغترُّ بقوته, كان يُبسط له الجلدُ الغليظ, فيضعه تحت قدميه, ويقف عليه ويقول: من يسحبه من تحت قدميَّ فله كذا وكذا, فيجذبه عشرة من الرجال الأقوياء, فيتقطَّع الجلد قِطَعاً ولا تزلُّ قدماه[1]. ومعنى الآية: أفيظنُّ هذا الشقيُّ الفاجر, المغترُّ بقوته, أن أحداً لن يقدر على الانتقام منه؟ بلى إنَّ ربَّه تعالى الذي خلقه قادرٌ عليه, فلا يغترُّ بجبروته وقوته.

(**755**) {أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَد} [البلد: 7].

أي هل يظنَّ أنَّ الله تعالى لم يره حين كان ينفق؟ وهل يظنُّ أنَّ أعماله تخفى على ربِّ العباد جلَّ وعلا؟ ليس الأمر كما يظنُّ هذا الأحمق, فالله تعالى رقيبٌ مطَّلع عليه, وسيجازيه يوم القيامة على هذا الإجرام. ثم ذكَّره تعالى بنعمه ليتَّعظ ويعتبر, ويكفَّ عن غيِّه وضلاله, فقال سبحانه:

(**756**) {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْن} [البلد: 8].

---

(1) ذكر أن كَلَدَةَ بنَ أُسيد بن خلف كان بلغ من شدَّته . فيما زعموا . أنه كان يقف على جلد البقرة, ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدمه, فيتمزَّق الجلد ولا يتزحزح عنه, وقد دعا النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى المصارعة, وقال: إن صرعتني آمنتُ بك, فصرعه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مراراً, ولم يؤمن. وقد نسب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب. كذا في الروض الأنف: 79/2.

أي ألم نكرمه فنجعل له عينين يبصر بهما؟

(757) {وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} [البلد: 9].

أي ولساناً ينطق به فيعبِّر عما في ضميره؟ وشفتين يطبقهما على فمه, ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ؟

(758) {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: 10].

أي وبيَّنَّا له طريق الخير وطريق الشرِّ, وسبيل الهدى والضلال؛ ليسلك طريق السعادة, ويجتنب طريق الشقاوة؟ والمراد بالنَّجدين: الخير والشر, كما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(759) {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد: 17].

أي فعل هذه القربات لوجه الله تعالى, وابتغاء أجره وثوابه, وهو مع ذلك مؤمنٌ صادق الإيمان, فالعمل الصالح من غير إيمان لا ينفع صاحبَه شيئاً, وقوله: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان, وطاعة الرحمن, وبالشفقة والرحمة على كلِّ إنسان, لاسيما إذا كان من الضعفاء والمساكين.

أقول: المهمُّ بعد أوامر الله تبارك وتعالى ونواهيه, الشفقةُ على خلق الله تعالى.

(760) {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [البلد: 18].

أي هؤلاء الأتقياء الموصوفون بتلك الأوصاف الحميدة الجليلة, هم

أصحاب الجنَّة, الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم, ويسعدون بالخلود في جنَّات النعيم, (مع النبيِّين والصدِّيقين, والشهداء والصالحين, وحسن أولئك رفيقاً).

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**761**) {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس: 7].

أي وأقسم بالنفس الإنسانية, وبالذي أنشأها وأبدعها, وجعلها سوية مستعدَّة لكمالها, بعد أن وهبها العقل وأرشدها.

(**762**) {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: 8].

أي وعرَّفها طريق الفجور وطريق التقوى, وما تفرِّق به بين الرُّشد والضلال. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بيَّن لها الخيرَ والشرَّ, والطاعة والمعصية, وعرَّفها ما تفعل وما تتَّقي.

أقسم تعالى بهذه الأقسام السبعة: الشمس, القمر, الليل, النهار, السماء, الأرض, النفس الإنسانية؛ إظهاراً لكمال قدرته تعالى وعظمته وسلطانه, وانفراده بالألوهية, فإنَّ هذه الأشياء جميعها مخلوقةٌ له جلَّ وعلا, وللتنبيه على كثرة منافع هذه الأشياء, وأنه لا بدَّ لها من صانع ومدبِّر لحركتها وسكناتها.

أما المقسَم عليه فهو قوله سبحانه:

(**763**) {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} [الشمس: 9].

أي واللهِ لقد فاز ونالَ مبتغاه من زكَّى نفسه بطاعة الرحمن, وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام.

(**764**) {وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: 10].

أي وقد خاب وخسر من أذلَّ نفسه وحقَّرها بالفجور والمعاصي, وأوقع

نفسه بالتهلكة.

{دَسَّاهَا} من دسَّ الشيء إذا أخفاه, وأصلُ الكلمة: دسَسَها, فكأنَّ هذه الجرائم التي يُخفيها الإنسان هي المهلِكة له, فإنَّ من ارتكب الفواحش وسار مع الشهوات, فقد سقط من عداد العقلاء, وصار في عداد البهائم {إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان: 44].

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(765) {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [الليل: 4].

هذا جواب القَسَم, أي إنَّ عملكم أيها الناس مختلفٌ ومفترق, كما أنَّ جزاءكم متباين, فمنكم مؤمن ومنكم كافر, ومنكم بَرٌّ ومنكم فاجر, فللجنة أهلٌ وأصحاب, وللنار كذلك أهل وأرباب. ولهذا قال بعدها:

(766) {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى} [الليل: 5].

أي فأمَّا من أعطى الفقيرَ حقَّه, واتقى ربَّه تعالى, فكفَّ عن محارمه وعصيانه.

(767) {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: 6].

أي وصدَّق بالجنَّة التي أعدَّها الله تعالى للأبرار, وأيقن بلقاء الجبار سبحانه.

(768) {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: 7].

أي فسنهيِّئه ونيسِّر له عمل الخير, ونيسِّر له الطاعة والعبادة, حتى يكون من عباد الله تعالى الأبرار, فالعملُ من الإنسان, والتيسيرُ من الرحمن جلَّ وعلا, ولا إكراه لأحدٍ على طاعةٍ أو عصيان.

(769) {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى} [الليل: 8].

أي وأمَّا من بخل بإنفاق ماله, ولم يُعط حقَّ الفقير والمسكين شحاً به وبُخلاً, واستغنى عن الله تعالى وعن ثوابه.

(770) {وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} [الليل: 9].

أي وكذَّب بالجنَّة ونعيمها.

(**771**) {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: 10].

أي فسنهيِّئه للخصلة الشاقة المؤدية إلى حياة العُسْر, وهي الحياة التعيسة الشقية, التي تنتهي بصاحبها إلى الجحيم.

سمَّى الله تعالى طريق الخير (يُسرى) لأنَّ عاقبتها اليُسْر, وهي الجنَّة دار النعيم, وسمَّى طريق الشر (عسرى) لأنَّ عاقبتها العُسْر, وهي دخول الجحيم.

خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في جنازة, وعند موارة الميت قال لأصحابه: (ما منكم من أحدٍ إلَّا وقد كُتب مقعدُه من النار, ومقعده من الجنَّة. قالوا: يا رسول الله, أفلا نتَّكل على كتابنا ونَدَع العملَ؟ قال: لا, اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له, أمَّا من كان من أهل السعادة فيُيسَّر له عمل أهل السعادة, وأما من كان من أهل الشقاء فييسَّر لعمل أهل الشقاوة, ثم قرأ صلى الله عليه وسلم الآيات: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى...}) الآية, رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

ومن هنا نعلم أنَّ الإنسان إذا أراد الخير سهَّل الله تعالى له طريقه, ومن أراد الشرَّ سهَّل له طريقه, والإنسان يُجازى على عمله وكسبه, لا على علم الله تعالى السابق. يقول تعالى لأهل الجنَّة: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون} [النحل: 32], ويقول لأهل النار: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد} [آل عمران: 182].

(**772**) {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى} [الليل: 13].

أي وإنَّ لنا ما في الدنيا والآخرة, نحن المالكون والمتصرِّفون فيهما.

أقول: وعظمته جلَّ وعلا تحيط بالكونين, ليس هناك مانع أن نرى, لكن حصل في عيوننا الرمد.

(**773**) **{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى}** [الليل: 14].

أي حذَّرتكم يا معشر البشر ناراً مستعرة, تتوقَّد وتتوهَّج من شدَّة حرارتها.

(**774**) **{وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى}** [الليل: 17].

أي وسينجو من هذه النار ويُبْعَدُ عنها المؤمنُ التقيُّ.

(**775**) **{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}** [الليل: 18].

وهو الذي ينفق ماله في مرضاة الله تعالى, ليطهِّر نفسه من الشحِّ والدنس.

(**776**) **{وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى}** [الليل: 19].

أي وليس لأحدٍ عنده نعمة سابقة حتى يكافئه عليها.

(**777**) **{إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى}** [الليل: 20].

وإنما ينفق المال لوجه الله تعالى, وطلباً لمرضاته, وليس له غاية إلَّا نيل رضوان الله تعالى.

(**778**) **{وَلَسَوْفَ يَرْضَى}** [الليل: 21].

أي ولسوف يعطيه ربُّه من الأجر ما يرضيه, وهو وعد كريم من ربٍّ رحيم, والله تعالى لا يخلف الميعاد.

نزلت هذه الآيات ـ بإجماع المفسرين ـ في سيِّدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه, فقد كان يشتري المستضعفين من المؤمنين بماله ويعتقهم لوجه الله تعالى, ليخلِّصهم من ظلم طواغيت قريش, واشترى بلالاً رضي الله تعالى عنه بمالٍ كثير من سيِّده, وأعتقه لوجه الله تعالى, فقال المشركون: إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده ـ أي لإحسانٍ سابق من بلال رضي الله تعالى عنه عليه ـ فنزلت الآية: {وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى} وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: أبو بكر سيِّدُنا, وأعتق سيِّدَنا؛ يعني بلالاً رضي الله تعالى عنهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بالإجماع, ولكنها عامَّةٌ في كلِّ من أنفق لوجه الله تعالى, ولا شك أنَّ أبا بكر رضي الله تعالى عنه داخل فيها, وأولى الأمة بعمومها, فقد كان صِدِّيقاً كريماً تقياً, بذَّالاً لأمواله في طاعة الله جلَّ وعلا ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم, رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

أقول: ومن هنا يُعلم تأسُّف الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم إيمانهم.. وعلى عدم العمل بمقتضى الإيمان.. اللهمَّ ارزقنا العمل بما أنزلت على سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم, آمين, والحمد لله ربِّ العالمين.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**779**) {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَر} [الضحى: 9].

أي فأمَّا اليتيم فلا تُهنه, ولا تعبسْ في وجهه, ولا تغلبه على ماله, ولكنْ أحسنْ إليه, وتعطَّف عليه, فقد ذقتَ طعم اليُتْم, فكن لليتيم كالأب الرحيم.

(**780**) {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر} [الضحى: 10].

أي وأما الفقير المحتاج, طالبُ العون والإحسان, فلا تطردْه إذا سألك, ولا تُغلظْ له القول, بل أعطه مما أعطاك الله جلَّ وعلا, ورُدَّ المسكين برفق ولين؛ وهذه في مقابلة قوله: {وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} [الضحى: 8].

(**781**) {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث} [الضحى: 11].

أي حدِّث الناسَ بفضل الله تعالى وإنعامه عليك, وعلِّم الناس كما علَّمك الله جلَّ وعلا. وهذه في مقابلة قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى} أي كما أكرمك الله جلَّ وعلا وأنعم عليك بتلك النعم, فقد كنت يتيماً وتائهاً وفقيراً, فآواك الله تعالى وهداك وأغناك, فتعطَّف على اليتيم, وأحسن إلى السائل, وأرشد العبادَ إلى طريق الرشاد, كما هداك الله جلَّ وعلا إلى دينه القويم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**782**) **{**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب**}** [الانشراح: 7].

أي فإذا انتهيتَ من دعوة الناس إلى الله تعالى فاجتهد في عبادة ربِّك سبحانه.

(**783**) **{**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب**}** [الانشراح: 8].

واجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله تعالى, لا في هذه الدنيا الفانية الزائلة, فإنَّ ما عند الله تعالى خيرٌ للأبرار.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**784**) {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4].

أي خلقناه في أبدع صورة وأحسن شكل, وزيَّناه بالعقل والنُّطق والفهم, ليشكر ربَّه تعالى على إنعامه وإفضاله, فهو أكمل المخلوقات وأفضلُها وأشرفُها, يمشي منتصب القامة, متناسب الأعضاء في أجمل صورة, يأكل بيده, ويمشي على قدميه, بينما سائر الحيوانات تأكل بفمها, وتمشي على أربع, وهي منكوسة على وجهها؛ {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء: 70], فأجملُ المخلوقات على ظهر الأرض هو الإنسان.

(**785**) {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: 5].

أي ثم نردُّه إلى أسفل دركات النار, إن لم يؤمن بالله الواحد القهار, جزاءً له على كفره وإجرامه وإهماله للعقل الذي رزقناه إيَّاه. بيَّن تعالى أنَّ بعد هذه الصورة الجميلة يكون على أقبح صورة وأبشعها, من سواد الوجه, والكلوح, وزرقة العيون, فمن لم يعرف قدر الكرامة ذاق ذلَّ الإهانة.

(**786**) {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: 6].

أي إلا المؤمنين المتقين, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, فلهم ثواب دائم لا ينقطع, وهو الجنَّة دار المتقين.

(**787**) {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: 8].

أي أليس الله جلَّ وعلا بأعدل العادلين؟ **بلى ونحن على ذلك من الشاهدين**, حُكماً وقضاءً وفصلاً بين العباد. وفي الحديث الشريف: (مَنْ قرأ: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون ...} فقرأ: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِين}؟ فليقل: بلى, وأنا على ذلك من الشاهدين) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**788**) {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1].

أشرقت أنوار الرسالة الإلهية, وتنزَّل الوحيُ في البلد الحرام, على سيِّد الرسل الكرام عليه الصلاة والسلام, وهو في غار حراء يتعبَّد ربَّه جلَّ وعلا, وكان هذا بداية الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم, وأول اتِّصال السماء بالأرض, بهذه الآيات البينات التي تفيض روعةً وجمالاً وجلالاً: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} هذا هو مطلع السورة, وفيها دعوةٌ صريحة إلى العلم, وإلى القراءة والكتابة؛ أي اقرأ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن, مستعيناً باسم ربِّك جلَّ وعلا, الذي خلق جميع المخلوقات.

(**789**) {خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: 2].

ثم فسَّر كيفية الخلق, تفخيماً لشأن الإنسان على وجه الخصوص, فقال: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} أي خلق جنس الإنسان ـ الذي هو أشرف المخلوقات, بهذا الشكل البديع ـ من العلقة التي تشبه الدودة الصغيرة؛ وقد أثبت الطبُّ الحديث أنَّ النطفة التي خُلق منها الإنسان, تحتوي على حيوانات منوية تشبه الديدان الصغيرة, لها رأس وذنب, لا تُرى بالعين المجردة, وإنما تُرى بالمجهر الدقيق (الميكروسكوب) واحدٌ من هذه الملايين من الحيوانات المنوية يلتقي بالبويضة ويدخل الرحم فيعلق بجداره, ومنه يُخلق الإنسان العاقل السميع البصير, فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

(**790**) {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم} [العلق :3].

أي اقرأ يا أيها الرسولُ صلى الله عليه وسلم, وربُّك العظيمُ الجليلُ الكريم.

(**791**) {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} [العلق: 4].

الذي علَّم البشر القراءة والكتابة بالقلم.

(**792**) {عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 5].

وعلَّم الخلائقَ ما لم يكونوا يعرفونه من فنون العلوم والمعارف, فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمعرفة, فكما علَّم سبحانه بواسطة الكتابة والقراءة, فإنه يعلِّمك بلا واسطة, وإنْ كنتَ أمياً لا تقرأ ولا تكتب.

وهذه الآياتُ الخمس المباركات, هي أولُ القرآن نزولاً على خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام, فقد نزل بها جبريل الأمين عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتعبَّد ربَّه بغار حراء, كما في رواية البخاري ومسلم. (وآخر الآيات نزولاً قول الله تعالى: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون} [البقرة: 281]).

(**793**) {كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى} [العلق: 6].

أخبر تعالى عن سبب طغيان الإنسان, فقال سبحانه: {كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى} (كلَّا) للردع والزجر, أي ليرتدعْ هذا الأحمقُ الجاهل عن غيِّه وضلاله, فإنَّ الإنسان يتكبَّر ويتجبَّر على ربه تعالى.

(**794**) {أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: 7].

ويزيد في الطغيان والفجور حينما يرى نفسه غنياً, ذا ثروةٍ ومال, وبدلاً

عن أن يشكر ربه يطغى ويفجر.

(**795**) {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} [العلق: 8].

هذا وعيد وتهديد, أي تذكَّر أيها الإنسان أنَّ مرجعك ومصيرك إلى ربِّك جلَّ وعلا, وسترى حينئذٍ عاقبة طغيانك.

(**796**) {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى} [العلق: 9].

الاستفهامُ للتعجيب, أي ألا تعجب من حال هذا الشقيِّ الضالِّ, الذي ينهى..؟

(**797**) {عَبْدًا إِذَا صَلَّى} [العلق: 10].

أي ينهى أكملَ الخلق صلى الله عليه وسلم في العبودية لله تعالى, ينهى رسولَ الله محمَّداً صلى الله عليه وسلم عن الصلاة, ما أشنعَ فعله, وما أسخف عقله!! كأنَّ الصلاة جريمةٌ يستحقُّ فاعلُها أن يُنهى عنها! هل هناك أمرٌ أعجب من هذا؟!

(**798**) {أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى} [العلق: 11].

أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلِّي, الذي تنهاه عن الصلاة, عبداً صالحاً مهتدياً؟

(**799**) {أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} [العلق: 12].

أو كان آمراً بالإخلاص والتوحيد, داعياً إلى الهدى والرشاد, كيف تزجره وتنهاه؟ ما أحمقك يا أيها الغبيُّ الجاهل, وما أعجب أمرك!

(**800**) {أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [العلق: 13].

أي أخبرني عن حال هذا الشقيِّ الضال, إن كذَّب بالقرآن, وأعرض عن الإيمان.

(**801**) {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14].

ألم يعلم أنَّ الله تعالى يراه, وأنه مراقب لأفعاله وسيجازيه عليها؟!

. نزلت هذه الآيات في عدوِّ الله أبي جهل, قال يوماً لطغاة قريش: هل يعفِّر محمَّد صلى الله عليه وسلم وجهه بالتراب؟ . يعني هل يصلِّي ويضع جبهته على الأرض أمامكم . قالوا: نعم, فقال لهم: واللات والعُزَّى, لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على عُنقه, ولأعفرنَّ وجهه بالتراب؛ فأقبل ذات يوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم, وهو يصلِّي, ليفعل به ما حلف عليه, فما إن اقترب قليلاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رجع يهرول, وهو يتقي وجهه بيديه, فقالوا له: ما لك يا أبا الحَكَم؟ فقال لهم: لقد رأيتُ بيني وبين محمَّد صلى الله عليه وسلم خندقاً من نار, ورأيت أجنحةً وهولاً تكاد تختطفني, فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم, فقال: (لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً) رواه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى. ففيه نزلت هذه الآيات: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى..} [العلق: 10.9], وهذه الآيات وإن نزلت في حقِّ أبي جهل, لكنها موعظة لجميع الخلق, وتهديد لمن يمنع عن الخير والطاعة, فإنه شريكٌ لأبي جهل في هذا الوعيد.

وقد احتاط لهذا الأمر بعضُ الأكابر, حتى رُوي عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه رأى في المصلَّى أقواماً يصلُّون قبل صلاة العيد, فقال: ما رأيتُ

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك. فقيل له: ألَا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت وعيد قوله سبحانه: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى}؛ واستمسك بهذا الأدب الرفيع أبو حنيفة رحمه الله تعالى, حين سأله تلميذه أبو يوسف رحمه الله تعالى: أيقول المصلِّي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهمَّ اغفر لي؟ فقال له: يقول: ربنا لك الحمد, ويسجد, ولم يصرِّح بالنهي, خشية أن يكون قد منع من دعاء الخير.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**802**) {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...} [البينة: 5].

أي وما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بعبادة الله تعالى وحده, وأن يُخلصوا العبادة له جلَّ وعلا فلا يعبدوا معه غيره, ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا, فعبدوا عُزيراً, وعبدوا المسيح, وجعلوا لله سبحانه أبناءَ وشركاء, وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما يدعونهم إليه من الضلال.

(**803**) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: 7].

أي إنَّ المؤمنين الصادقين, الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح, هم خيرُ الخليقة على الإطلاق, وهم السعداء الأبرار, الذين فازوا بالنعيم الدائم وعقبى الدار.

(**804**) {جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه} [البينة: 8].

أي ثوابُهم في الآخرة على ما قدَّموا في الدنيا من الطاعة وصالح الأعمال حدائقُ وبساتين زاهرة ناضرة, تجري من تحت قصورها أنهار الجنَّة.

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} أي لا يُخرجون منها ولا يموتون, فهم ماكثون فيها أبداً, في أحسن حال وأطيب مكان, في نعيم دائم لا ينقطع.

{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه} أي نالوا رضا الله

جلَّ وعلا, وهم رضوا بما أثابهم تعالى به من الأجر والكرامة, والعطاء العظيم الجزيل الذي لا يُتصور, وهذا الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله تعالى واتقاه, وكفَّ عن محارم الله سبحانه.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**805**) {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه} [الزلزلة: 7].

أي فمن يعمل من الخير {مِثْقَالَ} أي وزن الذرَّة من التراب, يجد ثوابه يوم القيامة.

(**806**) {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه} [الزلزلة: 8].

ومن يعمل من الشرِّ وزن الذرَّة من التراب, يجد جزاءه عليه, ولا يضيع عند الله تعالى عمل الإنسان مهما كان قليلاً, كما قال سبحانه: {وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين} [الأنبياء: 47], فالموازين دقيقة, والمحاسبُ هو الحكم العدل الذي لا يضيع عنده وزن الذرَّة.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**807**) {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود} [العاديات: 6].

أي طبيعة الإنسان الجُحودُ والتنكُّر لفضل ربِّه جلَّ وعلا, لا يشكره على نعمه العظيمة, يذكر المصائب وينسى النعم, وصيغة (كَنود) من صيغ المبالغة, ومعناها: شديد الكفر والجحود, قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (كنود) أي جاحد لنعم الله تعالى.

(**808**) {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيد} [العاديات: 8].

المراد بالخير هنا: المال, وإنه لشديدُ الحبِّ للمال, حريصٌ على تكديسه وجمعه, كما قال سبحانه: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: 20]؛ وأمَّا على طاعة ربه وعبادته فضعيفٌ متقاعس, وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (لو كان لابنِ آدمَ واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً, ولا يملأُ فمَ ابنِ آدمَ إلَّا التراب, ويتوب الله تعالى على من تاب) رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

(**809**) {أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُور} [العاديات: 9].

أي أفلا يعلم هذا الغافل الجاهل إذا قُلِبتِ القبورُ وأُخرج ما فيها من الموتى.

(**810**) {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُور} [العاديات: 10].

وكُشِفَ ما في صدور الناس من الأسرار والخفايا التي يسرُّونها, وفُضحوا على رؤوس الأشهاد؟

(**811**) {إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِير} [العاديات: 11].

إنَّ الله تعالى مطَّلع على جميع ما فعلوه ومجازيهم عليها؛ أفلا يخافون الفضيحة أمام الخلائق وأمام ربِّ الأرباب جلَّ وعلا؟! نعوذ بالله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**812**) {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوث} [القارعة: 4].

أي يوم يخرجُ الناس من قبورهم فزعين خائفين, كأنهم فَراش متفرِّقٌ منتشر هنا وهناك, يموج بعضهم في بعض من شدَّة الفزع والاضطراب, يكونون حيارى هائمين على وجوههم, لا يدرون ما يصنعون؛ شبَّههم تعالى بالفَراش الذي إذا طار لا يدري أين يتوجَّه؛ وهكذا يكون الناس يوم القيامة, يموج بعضهم في بعض, كما قال سبحانه: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ..} [الكهف: 99] الآية.

(**813**) {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوش} [القارعة: 5].

أي وتكون الجبال كالصوف المتطاير المتناثر في الهواء, ومعنى (العِهْن) الصوف, شبَّه تعالى الجبال وهي متنوعة الألوان, منها الأبيض والأحمر والأسود, فعند تطايرها تشبه الصوف الملوَّن المتناثر في الفضاء, فإذا كان هذا حال الجبال, فكيف يكون حال الرجال؟!

(**814**) {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُه} [القارعة: 6].

أي فأما المؤمن الذي رجحت حسناته على سيِّئاته.

(**815**) {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَة} [القارعة: 7].

فهو في ذلك اليوم في لذَّة وسعادة وهناء, يرضى عنها صاحبها, لأنه يكون في جنان الخلد والنعيم. اللهمَّ اجعلنا منهم.

(**816**) {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه} [القارعة: 8].

أي وأمَّا من زادت سيِّئاتُه على حسناته, وكان كافراً لا يؤمن بالله تعالى.

(**817**) {فَأُمُّهُ هَاوِيَة} [القارعة: 9].

أي فنار جهنَّم أمُّه ومصيره ومأواه, لا مسكن له غيرها, وهي مأوى الأشقياء المجرمين, تضمُّهم إليها كما تضمُّ الأمُّ أولادها.

(**818**) {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه} [القارعة: 10].

أي وما أعلمك ما هي هذه الهاوية؟

(**819**) {نَارٌ حَامِيَة} [القارعة: 11].

إنها نار متناهية في الحرِّ والشدَّة. أجارنا الله تعالى وإياكم من نار الجحيم.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**820**) {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: 1].

أي شغلكم أيها الناس التفاخرُ بكثرة الأموال والأولاد عن طاعة الله عزَّ وجل, وعن الاستعداد للآخرة.

(**821**) {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} [التكاثر: 2].

أي حتى مُتُّم وأصبحتم من أهل القبور. وزيارة القبور هنا كنايةٌ عن الموت. يقال لمن مات: قد زار قبره. ومنه قولُ الأعرابي: (بل هي حُمَّى تفور, على رجلٍ كبير, تُزيرهُ القبور) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(**822**) {كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: 3].

هذا زجرٌ وتهديد, أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بالدنيا الفانية, وتكديس الأموال والثروات, فسوف تعلمون عاقبة تفريطكم في جنب الله تعالى وغفلتكم عن الآخرة.

ثم كرَّر التهديد والوعيد للتحذير من الغفلة, فقال سبحانه:

(**823**) {ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: 4].

أي سوف تعلمون عاقبة تفاخركم إذا نزل بكم الموت.

قال الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى: (لا يغرنَّك كثرةُ من ترى حولك؛ فإنك تموت وحدك, وتُبعث وحدَك, وتُحاسَب وحدَك).

(**824**) {كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: 5].

أي لو علمتم العلم الحقيقي الذي ليس معه شك, وجواب (لو)

محذوفٌ تقديره: لو عرفتم ذلك, لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله تعالى, ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها.

(**825**) {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} [التكاثر: 6].

أي أُقسم وأؤكِّد لكم بأنكم ستشاهدون نار الجحيم عياناً ويقيناً.

(**826**) {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: 7].

أي ثم ترون الجحيم رؤيةً حقيقية ليس فيها شكٌّ, وذلك حين تذوقون عذابها. أعاذنا الله تعالى.

(**827**) {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: 8].

أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعم الله تعالى التي أنعم بها عليكم, من المال, والأمن, والصحة, ونعمة العقل والعلم, وسائر النعم, من المطعم والمشرب والمركب والمفرش {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا} [إبراهيم: 34].

والآية فيمن لم يشكر ربه جلَّ وعلا على تلك النعم, وعاش عيشة البهائم لبطنه وشهواته, أمَّا من شكر النعمة فقد أدَّى حقها, كما جاء في الحديث الصحيح: (إنَّ الله تعالى ليرضى عن العبد أنْ يأكل الأكلةَ فيحمده عليها, ويشرب الشَّرْبة فيحمده عليها) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

قرأ سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} فقال عليه الصلاة والسلام: (يقول ابنُ آدم: مالي, مالي؛ وهل لك يا بن آدمَ من مالكَ إلّا ما أكلتَ فأفنيت, أو لبستَ فأبليت, أو تصدَّقتَ فأمضيت) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

وقوله: (تصدَّقتَ فأمضيت): أي قدَّمتَه لآخرتك فبقيَ ذُخراً لك.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم أو ليلة, فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما, فقال: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة)؟ قالا: الجوعُ يا رسول الله, قال: (وأنا والذي نفسي بيده لَأخرجني الذي أخرجكُما, قوموا), فقاموا معه, فأتى رجلاً من الأنصار, فإذا هو ليس في بيته, فلما رأته المرأةُ قالت: مرحباً وأهلاً, فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أين فُلان)؟ قالت: ذهب يَسْتَعْذِبُ لنا من الماء ـ أي يأتي لنا بماء عذبٍ للشُّرب ـ إذ جاء الأنصاريُّ, فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه, ثم قال: الحمد لله, ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً منِّي, قال: فانطلق فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتَمْر ورُطَب, فقال: كُلوا من هذه, وأخذ المِدْيَة, فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إيَّاك والحَلُوبَ) ـ أي لا تذبح شاةً فيها حليب ..

فذبح لهم, فأكلوا من الشاة, ومن ذلك العِذْق, وشربوا, فلما أن شبعوا ورَوُوا, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ وعمر رضي الله تعالى عنهما: (والذي نفسي بيده لتُسْأَلُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة, أخرجَكم من بيوتكم الجوعُ, ثمَّ لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

**   **   **

بسم الله الرحمن الرحيم

(828) {وَالْعَصْرِ} [العصر: 1].

المرادُ بالعصر هنا: الوقتُ والزمان, لأنه رأسُ عُمُرِ الإنسان, فمن ضيَّع عمره في غير ما ينفعُه فقد شقي وخسر. أي أُقسم لكم بالدهر والزمان, وما فيه من أصناف العجائب والعِبَر.

(829) {إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: 2].

أي إنَّ جنسَ الإنسان في شقاء وخسران. والمراد بالإنسان: البشر المنحرفون عن منهج الله تعالى, العاملون بغير طاعته, لأنَّ الله جلَّ وعلا استثنى من هذا الخسران المؤمنَ الصادق المتصف بأربع صفات, فقال:

(830) {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا} أي إلَّا المؤمن الكامل الذي تحلَّى بجلائل الأعمال.

{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي آثروا طاعةَ الله تعالى ورضوانَه على شهوات الدنيا وملذَّاتها, وأدَّوا ما افترض الله تعالى عليهم من أنواع الطاعات والواجبات.

{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} أي تواصوا فيما بينهم على فعل الطاعات وترك المحرمات.

{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} أي تواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب.

حَكَم تعالى بالخسران على جميع البشر, إلَّا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

الإيمان, العمل الصالح, التواصي بالحق, التواصي بالصبر, وهذه عناصر النجاة, وسبيلُ الخير والسعادة, ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لو لم يُنزل الله جلَّ وعلا من القرآن سوى هذه السورة الكريمة لكفت الناسَ. أي لأنها جمعت وسائل النجاة. وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا, لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها, ثم يسلِّم أحدهما على الآخر, كما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**831**) {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [الهُمَزة: 1].

الهُمَزَةَ: الهمَّازُ الذي يغتاب الناس, ويطعن في أعراضهم بالسخرية والتهكُّم, والاحتقار والازدراء, واللُّمَزَةُ: الذي يلمزهم بعينه وحاجبه أي بالإشارة, استخفافاً واحتقاراً لهم.

والمعنى: عذابٌ وهلاك ودمار لكلِّ من يَعيبُ الناس ويطعن فيهم بلسانه, أو بعينه وحاجبه. وصيغة {هُمَزَةٍ} و{لُّمَزَة} للمبالغة, لأنه يدلُّ على الكثرة والاعتياد, فلا يقال: فلانٌ لُعَنة, وضُحَكَة, إلا للمكثر المعتاد, قال الشاعر:

تُدلي بودِّي إذا لاقيتَني كَذِباً   وإن تغيَّبتُ كنتَ الهَامِزَ اللُّمَزَة

نزلت هذه السورة في الأخنس بن شَريق, أحد صناديد الكفر وطغاة مكة, وكان كثير الوقيعة في الناس, يحتقرهم ويعيبهم, ويطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم, حتى صار هذا الأمر طبعاً له وخُلقاً. والحكم عامٌّ؛ لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب, ولأن الله قال: {لِّكُلِّ} وهو لفظٌ يدلُّ على العموم.

ثم ذكر من صفات هذا الشقي بعضَ المعايب والنقائص فقال:

(**832**) {الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه} [الهُمَزة: 2].

أي جمع المال الكثير, وأحصاه, وحافظ على عدده, فلم يُنفق منه في وجوه الخير, شُحّاً وبخلاً, ولم يعرف فيه حقَّ اليتيم والمسكين.

قال ابن كعب رحمه الله تعالى: شَغَله ماله بالنهار, يجمع ويكدِّس هذا إلى هذا, فإذا جاء الليل نام كأنه جيفةٌ منتنة.

(**833**) {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَه} [الهُمَزة: 3].

أي يظنُّ هذا الأحمق الجاهل. لفرط غفلته وفساد عقله. أن المالَ سيتركُه مخلَّداً في الدنيا لا يموت, كأنَّ المال وثيقةُ ضمان لحياته وخلوده.

(**834**) {كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَة} [الهُمَزة: 4].

أي ليرتدعْ هذا الجاهل عن هذا الظنِّ الخائب, فواللهِ لنطرحنَّ هذا الشقيَّ في النار التي تحطمُ كلَّ ما يُلقى فيها, وعبَّر بالنبذ: {لَيُنبَذَنَّ} للاستخفاف والاحتقار, كأنه. لمهانته. حصياتٌ أخذهنَّ واحدٌ فطرحهنَّ في مكان مهين, أو رمى بهنَّ في البحر, جزاء ترفُّعه على الناس وتكبُّره.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**835**) {لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ} [قريش: 1].

معنى الإيلاف: الإلْفُ والاعتياد. واللام متعلِّقة بالفعل بعدها {فَلْيَعْبُدُوا} والمعنى: من أجل تيسير الله تبارك وتعالى على قريش وتسهيله لهم.

(**836**) {إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْف} [قريش: 2].

أي ما كانوا يألفونه من رحلتي الشتاء والصيف؛ في الشتاء إلى اليمن, وفي الصيف إلى الشام, حيث كانوا يسافرون للتجارة, فيأتون بالأطعمة والثياب, ويربحون وهم آمنون مطمئنون, لا يتعرَّض لهم أحد بسوء, لأنَّ الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله تعالى, وسُكَّانُ حَرَمه, فلذلك جاء الامتنان عليهم تذكيراً لهم بالنعم, ليوحِّدوه ويشكروه.

(**837**) {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْت} [قريش: 3].

دخلت الفاء لأنَّ فيها معنى الشرط, كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه الجليلة, فلْيعبدوه من أجل هذه النعمة, حيث فتح لهم أبواب الرزق في هاتين الرحلتين, مع الأمن والسلامة, والناس من حولهم يُتَخطَّفون.

(**838**) {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْف} [قريش: 4].

أي هذا الإله العظيم, الذي أطعمهم وهم جياع؛ لأنهم في بلدٍ ليس فيه زرعٌ ولا ضرع, وآمَنَهم في بلادهم من الأعداء, أفيؤمنون بالأصنام والأوثان, ويكفرون بالرحمن؟! فهلَّا شكروا ربَّهم جلَّ وعلا على نعمة الغنى واليسار,

ونعمة الأمن والاستقرار.

لقد كانت عنايةُ الله تعالى بالبيت الحرام وساكنيه في غاية السموِّ والعظمة, حتى أهلك الله جلَّ وعلا من قصده بسوء, وحمى أهله من جبروت أبرهة الأشرم, في الوقت الذي عجزوا فيه عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل, فكان يقتضيهم هذا شكر ربِّهم تبارك وتعالى على نعمه الجليلة, بدل الكفر والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم.

قرأ صلى الله عليه وسلم هذه السورة: {لإِيلاَفِ قُرَيْش * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْف} [قريش: 2.1], فقال: (ويحكم يا معشر قريش! اعبدوا ربَّ هذا البيت, الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**839**) {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّين}.

(**840**) {الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُون} [الماعون: 54].

أي هلاكٌ وعذاب ودمار, للمصلِّين الذين يؤخِّرون الصلاة عن وقتها, وهم لاهون عنها, لانشغالهم بتجاراتهم وشهواتهم, وهذه صفة المنافقين, يصلُّون رياءً وسمعة, ولا يهتمُّون بها.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هو المصلِّي الذي إن صلَّى لم يرجُ لها ثواباً, وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً, لأنَّ قلبه خلا من الإيمان. ويدلُّ عليها قوله تعالى بعده:

(**841**) {الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُون} [الماعون: 6].

أي هم المنافقون المراؤون, الذين يصلُّون رياءً ليتظاهروا بالتقى والصلاح.

(**842**) {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون} [الماعون: 7].

ويمنعون الناسَ إعارة المنافع اليسيرة, كالإبرة, والفأس, والقِدْر, ورغيف العيش. و{الْمَاعُون}: كلُّ ما فيه منفعة للغير.

وقد دلت الآيات على أنها في المنافقين, فقد روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (تلك صلاةُ المنافق, يجلس يرقبُ الشمس, حتى إذا كانت بين قرنيْ الشيطان, قام فنقر أربعاً ـ يريد صلاة العصر ـ لا يذكر الله تعالى فيها إلَّا قليلاً).

قال بعضُ السلف: الحمد لله الذي قال: {عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُون} ولم

يقل: في صلاتهم, وإلَّا هلك الناس؛ لأنه لا يخلو أحدٌ من السهو.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**843**) {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1].

بشارةٌ كريمة, وخبرٌ سارٌ, وتوجيه رشيد, إلى النبيِّ الحبيب صلى الله عليه وسلم, يبشِّره فيه ربه جلَّ وعلا بالفتح الأعظم (فتح مكة), وهذا الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه من أظهر الدلائل, وأوضح البراهين, على صدق نبوة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم. وقد أجمع المفسرون على أنَّ المراد بالنصر هنا فتح مكة.

والمعنى: إذا نصرك الله تعالى يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم على أعدائك المشركين, وفتح الله تعالى عليك أمَّ القرى مكة المكرَّمة, ذلك الفتح الأكبر الذي يترقَّبه أتباعك المؤمنون.

(**844**) {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} [النصر: 2].

أي ورأيت العرب وسكان الجزيرة من حولك يدخلون في دين الإسلام جماعاتٍ جماعات, من غير حرب ولا قتال.

(**845**) {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: 3].

أي سبِّح ربَّك العظيمَ الجليل, وعظِّمْه على هذه النعم الجليلة, واشكره على نصرك على أعدائك وإظهاره لدينك, واطلب منه المغفرة والتوبة لك ولأمتك, إنه سبحانه واسع الرحمة, عظيم التوبة, كثير المغفرة والإحسان.

هذه السورة تُسمَّى سورة (النصر) وسورة (البشارة) وسورة (التوديع), وفيها نعيُ النبي صلى الله عليه وسلم, والتنبيهُ له بقرب وفاته صلى الله عليه

وسلم, ولهذا لما نزلت هذه السورة الكريمة قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله تعالى عنها: (ما أَراه إلَّا حضور أجلي) ذكره في التسهيل.

وخرج صلى الله عليه وسلم كالمودِّع لأصحابه, فخطب فيهم فقال: (إنَّ الله تعالى خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده, فاختار ما عند الله تعالى), فبكى أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقال: فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الراوي: فعجبنا لبكائه أن يُخيِّر الله تعالى عبداً من عباده, ويبكي له أبو بكر رضي الله تعالى عنه, فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر, وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه أعلَمَنا. رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: (كان عمر رضي الله تعالى عنه يدخلني مع أشياخ بدر ـ وكان شابّاً صغير السنِّ ـ فكأنَّ بعضهم وَجَد في نفسه, فقال: لمَ تُدخل معنا هذا ولنا أبناء مثله؟ فقال لهم عمر رضي الله تعالى عنه: إنه من حيث علمتم, فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم, فقال لهم عمر رضي الله تعالى عنه: ما تقولون في قول الله تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح}؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمدَ اللهَ تعالى ونستغفره إذا نصرنا الله تعالى وفتح علينا المدائنَ والقصور. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً, فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلتُ: لا يا أميرَ المؤمنين, قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أي إشارة إلى انتهاء عمره ـ

أعلَمَه له, قال: إذا جاء نصرُ الله تعالى والفتحُ, وذلك علامةُ أجلك, فسبح بحمد ربك واستغفره. فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما أعلمُ منها إلا ما تقول) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: (كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهمَّ وبحمدك, اللهمَّ اغفر لي)؛ يتأوَّلُ القرآن) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

وقد كان الأمر كذلك, فقد انتقل صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربِّه بعد حجة الوداع بفترة وجيزة, هي (80) يوماً, ودُفن في الروضة الشريفة, فكان ذلك تأويلاً لهذه السورة الكريمة, وكان يوماً حزيناً, بالِغَ الوقع والتأثير على نفوس المسلمين, حتى كادوا يفقدون رشدهم.

روى الإمام الترمذي رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال: (لما كان اليومُ الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلُّ شيء, فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيء, وما نفضنا الأيدي من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وإنا لفي دفنه ـ حتى أنكرنا قلوبنا).

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(**846**) {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد} [الإخلاص: 1].

بدأ الله تعالى السورة الكريمة ببيان صفاته القدسيَّة وذاته العليَّة جلَّ وعلا, أي قل يا أكمل الرسل صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المشركين, المنكرين لوحدانية ربِّ العالمين: إنَّ ربي الذي أعبده وأدعوكم لعبادته, هو ربٌّ عظيم جليل, متَّصفٌ بكلِّ صفات الكمال, فهو واحد أحد, فردٌ صمد, ومعنى (أحد) أي واحد؛ واحدٌ في ذاته, وواحد في صفاته, وواحد في أفعاله, لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير.

(**847**) {اللَّهُ الصَّمَد} [الإخلاص: 2].

أي هو سبحانه السيِّدُ الذي تُصمَد إليه الحاجاتُ, أي تطلب منه الحاجاتُ. ومعنى: {الصَّمَد} قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: هو السيِّدُ الذي انتهى إليه السُّؤدَدُ, والعربُ تسمي أشرافها: الصَّمد.

وفي الحديث الشريف: (يقول الله تعالى . يعني في الحديث القدسي .: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك . أي لا ينبغي له أن يكذِّبني . وشتَمني ولم يكن له ذلك, أمَّا تكذيبه إيَّاي فقولُه: لن يعيدني كما بدأني! وليسَ أولُ الخلق بأهون عليَّ من إعادته؛ وأمَّا شتمه إيَّاي فقوله: اتخذ الله ولداً! وأنا الأحد الصَّمد, الذي لم ألد ولم أولد, ولم يكن لي كفواً أحد) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

أما سبب نزول السورة, فقد رُوي أن بعض المشركين جاؤوا إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمَّد صلى الله عليه وسلم: صفْ لنا ربَّك, أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من ياقوت؟ أم من زبرجد؟ فأنزل الله تعالى: {ٱ ٻ ٻ...} السورة.

(**848**) {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد} [الإخلاص: 3].

أي ليس له أبناء ولا بنات, كما أنه لم يولد من أبٍ ولا أم, لأنَّ كلَّ مولودٍ حادثٌ, والله تعالى أزليٌّ قديم, فالجملة الأولى: {لَمْ يَلِدْ} نفيٌ للذريَّة والبنين, والجملة الثانية: {وَلَمْ يُولَد} نفيٌ للوالديَّة, أي ليس له تعالى والد, فإنه لم يولد من أب ولا أم.

(**849**) {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد} [الإخلاص: 4].

أي وليس له جلَّ وعلا شبيهٌ ولا مثيلٌ ولا نظير, وهو مالكُ كلِّ شيء وخالقُه, فكيف يكون مِن خلقه نظيرٌ يساميه, أو قريب يدانيه؟

وعقيدة التوحيد هي عقيدة المسلمين التي جاء بها جميعُ الرسل عليهم الصلاة والسلام, وهي العقيدة التي يقبلها الله تعالى, المتَّفقة مع المنطق والعقل, وصدق الله العظيم: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين} [آل عمران: 85].

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(850) {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: 1].

هذه إحدى المعوِّذتين, وفيها الاستجارة والالتجاء إلى ربِّ الأرباب جلَّ وعلا من شرِّ الأعداء, وقد خُتم الكتاب العزيزُ بهما كما ابتدأ بالفاتحة الشريفة, ليجمع بين حُسْن البدء وحُسْن الختام, فالعبد المؤمنُ يستعينُ بالله تعالى ويلتجئ إليه, من بداية الأمر إلى نهايته. والمعنى: قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: ألتجئُ وأعتصمُ بربِّ الفَلَق, أي بربِّ الصبح الذي ينفلق عن الظلام {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} [الأنعام: 96]. قال الزجَّاج رحمه الله تعالى: {الْفَلَق} هو فَلَق الصبح, وهو ضياؤه, وفي أمثال العرب: الأمر أبينُ من فَلَق الصبح.

(851) {مِن شَرِّ مَا خَلَق} [الفلق: 2].

أي من شرِّ جميع المخلوقات, من الإنس, والجنِّ, والوحوش, والهوامِّ, والأفاعي, وشرِّ كلِّ مؤذ من المخلوقات.

(852) {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَب} [الفلق: 3].

الغاسقُ: الليلُ إذا أظلم, ومعنى: {وَقَب} أي دخل بظلامه.

والمعنى: وأستجير بالله تعالى من شرِّ الليل إذا أظلم وأقبل بظلامه الدامس, فإنَّ بمجيء ظلمة الليل يكثر الأشرار, وينتشر الفجَّار, وتكثر اللصوص, ويقلُّ الغوث, ولهذا قالوا في الأمثال: (الليلُ أخفى للويل) أي أستر للأحداث المخيفة المهلكة, ففي الليل تخرج السباع من آجامها, والهوامُّ من

مكانها, ويظهر اللصوص والسُّرَّاق, ويقع الحريق, ويُخشى الطريق.

(**853**) {وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: 4].

أي وأستجير بالله تعالى وأحتمي به من شرِّ النساء السواحر, اللواتي يعقدن عُقداً في خيوط, وينفثن فيها ـ أي ينفخن فيها ـ للإضرار بعباد الله تعالى, والتفريق بين المرء وزوجه, وخصَّص النساء بالذِّكر {النَّفَّاثَاتِ} لأنَّ السحر أكثر ما يقع منهنَّ, بسبب الغيرة الشديدة, فالنساء يَكِدْن بعضهنَّ البعض بواسطة السِّحر.

(**854**) {وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق: 5].

أي وأستجير بالله تعالى من شرِّ كلِّ حاسد يحسد الإنسان, ويتمنَّى زوال نعمة الله تعالى عنه. والحسدُ صفة اليهود الخبثاء, وليس من صفة المؤمنين الصادقين في الإيمان, وقد قال سبحانه عن اليهود: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} [النساء: 54]؟ فقد حسدوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على النبوة, وأرادوا أن تبقى في بني إسرائيل, والحسدُ مرضٌ خطير, أخطرُ من مرض الجسد, ولهذا حذَّر منه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: (دبَّ فيكم داء الأمم من قبلكم: الحسدُ والبغضاء, هي الحالقةُ, لا أقول: تحلق الشَّعر, ولكنْ تحلقُ الدِّين...) أي تُذهب دين الإنسان, والحديث رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى.

وأول ذنبٍ حصل وعُصي به اللهُ تعالى هو الحسدُ, فقد حسد إبليسُ آدم عليه السلام, فطرده الله تعالى من حضرة القدس, فصار شيطاناً رجيماً.

أما سببُ نزول المعوِّذتين, فهو أن يهودياً سَحَر النبيَّ صلى الله عليه وسلم, فمرض صلى الله عليه وسلم, فنزلت المعوِّذتان, وأخبرهُ جبريل بموضع السحر, فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاءه بالسحر, وفيه إحدى عشرة عُقدة, فقرأهما عليه, فكان كلَّما قرأ آية انحلَّت عقدة, حتى وجد صلى الله عليه وسلم خفة ونشاطاً, ورقاه جبريل عليه السلام بهذه الدعوات: (باسم الله أرقيك, من كلِّ شيء يُؤذيك, من كلِّ حاسد وعينٍ, اللهُ يشفيك) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى, فشفاه الله عزَّ وجل.

وقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (سُحِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم, حتى كان يُخَيَّل إليه أنه كان يفعل الشيء ولم يفعله, حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي, دعا اللهَ تعالى ودعاه, ثم قال: يا عائشة, أشعرتِ أنَّ الله تعالى قد أفتاني فيما استفتيهُ فيه؟ أتاني رجلان . وفي رواية أخرى مَلَكان . فقعد أحدهما عند رأسي, والآخر عند رجليَّ, فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرجل؟ قال: مطبوبٌ . أي مسحور . قال: ومن طبَّه؟ قال: (لبيد بن الأعصم) اليهودي, قال: في أيِّ شيء؟ قال: في مُشْطٍ, ومُشَاطةٍ, وجُفِّ طَلْع نخلةٍ ذَكَر, قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان, فذهب النبيُّ صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إلى البئر, فنظر إليها, فرأى ماءها كأنه نُقاعة الحناء, فأمر بها فدُفنت) رواه البخاري ومسلم وأحمد رحمهم الله تعالى.

وقد كان صلى الله عليه وسلم بعد هذه الحادثة لا يترك قراءة المعوِّذتين

عند نومه وعند مرضه, كما روت لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ذلك حيث قالت: (كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم ينفث على نفسه في المرض بالمعوِّذات, فلما ثقُل ـ أي اشتدَّ به المرضُ ـ كنت أنفث عليه بهنَّ, وأمسح بيد نفسِه لبركتها) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

** ** **

بسم الله الرحمن الرحيم

(855) {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس} [الناس: 1].

هذه ثاني المعوِّذتين اللتين نزلتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم, وفيهما الاستجارة والاحتماء بربِّ الأرباب جلَّ وعلا, من شرِّ أعدى الأعداء, إبليس اللعين, وأعوانه من شياطين الإنس والجن, الذين يُغوون الناس بأنواع الوسوسة وفنون الإغواء. والمعنى: قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: إني أعتصمُ وألتجئ وأستجيرُ بخالق الناس, ومربِّيهم, ومدبِّر أرزاقهم وشؤونهم.

(856) {مَلِكِ النَّاس} [الناس: 2].

أي مالك جميع الخلق, حاكمين ومحكومين, ملوكاً وشعوباً, وهو المتصرِّف فيهم بالإحياء والإماتة, والعزِّ والذلِّ, والغنى والفقر, فهو جلَّ وعلا ملك الملوك {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء} [آل عمران: 26]. ثم قال تعالى:

(857) {إِلَهِ النَّاس} [الناس: 3].

أي هو جلَّ وعلا ربُّهم ومعبودهم, لا ربَّ لهم سواه, ولا معبودَ يستحقُّ العبادةَ غيرُه.

وصف تعالى نفسه: بالمِلِك, وبالإله, لأنَّ في الناس ملوكاً, فذكر أنه مِلِكُهم, وفي الناس من يعبد غيرَه, فذكر أنه إلههم ومعبودهم الحق, وأنه هو الذي يجب أن يُلجأ إليه, وأن يُستعاذ به, دون غيره من الملوك والعظماء؛

وإنَّما كرَّر لفظ: الناس ثلاث مرات, لإظهار كرامتهم وشرفهم عند الله تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء: 70] فأضافهم إليه تكريماً وتعظيماً, ولبيان الاعتناء بشأنهم, وفي التكرار عزٌّ لهم وفخار, كما قال القائل:

أعِـدْ ذِكْـرَ نُعْمـانٍ لنَـا إنَّ ذكـرَهُ ... هـو المِسْـكُ مـا كَرَّرتَـه يتضَـوَّعُ

أما المستعاذ منه فهو الشيطان الرجيم, ولهذا قال:

(**858**) {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاس} [الناس: 4].

أي من شرِّ الشيطان اللعين, الذي يوسوس في صدور البشر, ليغريهم بالكفر والمعصية والفجور. والوسواسُ: اسم للشيطان, ومعنى: {الْخَنَّاس} الذي يَخنُس, أي يتأخر ويختفي عندما يذكر العبدُ ربَّه جلَّ وعلا, فإذا غفل عن ذكر الله تعالى عاد فوسوس له.

(**859**) {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس} [الناس: 5].

أي الذي يُلقي ـ لشدة خُبثه ـ في قلوب البشر صنوفَ الوساوس والأوهام الباطلة {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [النساء: 120]؛ ووسوستُه: هي الدعاءُ لطاعته بكلام خفيٍّ يصل مفهومه إلى القلب, من غير سماع صوت.

وفي الحديث الشريف: (إن الشيطان واضعٌ خَطْمه ـ أي مقدَّم أنفه وفمه ـ على قلب ابن آدمَ, فإذا ذكرَ اللهَ تعالى خَنَس ـ أي توارى وتأخَّر ـ وإذا نسي التقمَ قلبه فوسوس) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي والبيهقي وابن أبي الدنيا رحمهم الله تعالى.

ثم بيَّن تعالى من هو الذي يُستعاذ من شرِّه فقال:

(860) {مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاس} [الناس: 6].

أي هذا الذي يوسوس للناس لفتنتهم وإغوائهم, هو من شياطين الجنِّ والإنس, كما قال سبحانه: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: 112], والسورةُ الكريمة فيها الاستعاذةُ من جميع الشياطين, والالتجاء إلى الله عزَّ وجل من شرِّهم, ولا شكَّ أنَّ شياطين الإنس أشدُّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن, فإنَّ شيطان الجنِّ يخنس بالاستعاذة, وشيطان الإنس يُزيِّن له الفواحش, ويغريه بالمنكرات, ولا يثنيه عن عزمه شيء.

لقد بلَّغ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن بالأسلوب الذي نزل عليه, كما أوحاه الله تعالى إليه, ولهذا لم يقل: أعوذ برب الفلق, أعوذ برب الناس, وإنما حكى السورتين باللفظ الموحى له: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق}. قال زِرُّ بن حُبَيش رضي الله تعالى عنه: (سألتُ أُبيَّ بنَ كعب رضي الله تعالى عنه عن المعوِّذتين, فقال: سألتُ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (قيل لي فقلتُ), فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

فائدة: عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة, جمع كفَّيه, ثم نفث فيهما, فقرأ فيهما: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

النَّاس}, ثمَّ يمسح بهما ما استطاع من جسده, يبدأ بهما على رأسه ووجهه, وما أقبل من جسده, يفعل ذلك ثلاث مرات) أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

هذا ما تيسَّر إثباته في هذا الكتاب, والله الموفِّق للهداية, والمرشد إلى الصواب, جعله الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم, ونفع به آمين, بحرمة القرآن المبين, وصلَّى الله تعالى على سيِّدنا محمَّد, وعلى آله وصحبه وسلَّم, وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

** ** **